دكتور محمد عباس

اغتيال أمة

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

خالد الاسلامبولى

السادات العار

المبادرة

سليمان خاطر

سعد إدريس حلاوه

مصطفى النحاس

جمال عبد الناصر

سيد الشهداء

سعد زغلول


اغتيال
أمة
قصة سادات
رسالة إلى جيل قادم ورئيس آت

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

اغتيـــــال

أمـــــة

قصة سادات

رسالة إلى جيل قادم ورئيس آت

دكتور

محمد عباس

مكتبة مدبولى

١- إجراءاتنا ستكره الكتاب على أن ينشروا كتباً طويلة ستقرأ قليلاً من أجل طولها وأسعارها الغالية. بينما سننشر نحن كتباً رخيصة نعلم بها العامة ونوجه عقولهم فى الإتجاهات التى نرغب فيها.

٢- قبل الطبع سيكون على الناشر أو الطابع أن يلتمس من السلطات إذناً بنشر العمل. وبذلك سنعرف سلفاً كل مؤامرة تدبر ضدنا.

من بروتوكولات حكماء صهيون

مقدمة الطبعة الثانية

مرت سنوات أربع منذ صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب وست منذ الشروع في كتابته، وبالرغم من أن الحديث فيه وثيق الصلة بالسياسة، وهى فى بلادنا كالرمال المتحركة لا تستقر على حال، بالرغم من ذلك فمازالت مقولاته صحيحة كنظرية رياضية أو قانون طبيعى كل مايضاف إليه هو مجرد أمثلة وتطبيقات عليه.

كنا مستضعفين مهزومين مسحوقين..

ولا نزال..

وكان الفساد يضرب فى أطناب بلادنا..

ولم يزل..

وكان الحكم يفتقد الصدق والنزاهة والمنطق وربما المشروعية.

وما ينفك..

تسلط علينا سفهاؤنا..

وما برحوا..

وتولت مقاليد الفكر والإعلام حثالة بشرية دأبت على تشويه وجدان الأمة..

وما فتئت..

إلا أن ما استجد لم يكن أقل إيلاماً مما ولّى..

فعلى المستوى العام ازدادت اسرائيل عتواً وأمريكا غلواً.. وأدرك الخاصة بعد الكافة - أجل.. الخاصة بعد الكافة وليس العكس - أننا مستهدفون لسلسلة حلقاتها متصلة منذ نيف وألف عام فى حرب صليبية لم يهدأ أوارها ولم

تخبُ نارها، حرب صليبية يشكل الصليب فيها علامة حضارة لا رمز دين. لكن هذا الإدراك جاء متأخراً جداً بعد أن عطله فى الطريق كثيراً جداً حكام وفقهاء وسفهاء.. وعندما نطق شامير بكلمة كبر أن تخرج من فيه يسب فيها سيد الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم متهماً أمته بالكذب مثله، لم يجرؤ من أمة محمد أحد كى يرفع رأسه.

على المستوى العام أيضاً جاءت بيروسترويكا جورباتشوف الذى ليس سوى سادات آخر، ليثبت أن العالم يتهاوى أمام حضارة الغرب، وليضيف علينا عبئاً آخر هائلاً ونحن الذين ننوء بعبئنا غير قادرين عليه. إذ أصبح على العرب والمسلمين فقط مواجهة الآلة الهائلة لحضارة الغرب التى تجرى فى عروقها دماؤنا التى سفحت، وثرواتنا التى نهبت.

على المستوى العربى غزا صدام حسين الكويت، فكان قصاصاً ربانياً أن انقلب الظالم على من ساعده فى ظلمه. وانقلبت أيضاً الحثالة التى طالما هللت له وهتفت باسمه كى تدينه. أما حكام العرب فقد هرعوا إلى ربهم فى واشنطن كى يرفع الضر عنهم.

ورفع ربهم الضر عنهم فمسنا نحن يا أرحم الراحمين، وكانت كارثة الخليج والموقف الفاجع الذى اتخذته مصر من الأزمة كابوسا لانكاد نصدق أنه حدث، كان حكامنا يقولون لنا أنهم يدافعون عن المبادئ والقيم ومصالح الأمة، وكان رب البيت الأبيض بوش يعترف بالحرف: «شبابنا غامر بحياته من أجل الدفاع عن اسرائيل ضد أخطر أعدائها»[1] فمن الكذاب، من الذى يخون المبادئ والمثل ومصالح الأمة. ربما جعلنى هذا كله أشعر بنوع غريب من الخجل أمام التاريخ، خجل ممن سيأتون بعدنا ويتقصون أخبارنا، وينظرون الينا بنفس مزيج الغضب والاحتقار الذى ننظر نحن به إلى أسلافنا الذين هدموا دين الله لكنهم ظلوا يرفعون راياته وهم يستأصلون شافة آل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يزالون.

على مستوى الوطن تدنى كل شئ فحكم وزراء مكانهم الطبيعى مؤسسات المجرمين أو مستشفيات المجانين. وازدادت الشراسة والبذاءة والكذب.

ذابت طهارة مؤسسات الحكم - المفترضة - فى فساد الحاشية، وتوارى

---

(١) أخبار اليوم ١٤/٩/١٩٩١.

عجزها البادى خلف العجز العربى والإسلامى الشامل كما يتوارى شلل عضو من أعضاء الجسد إزاء غيبوبة تكتنف الجسد كله. وإزاء ذلك فما تزال الفصول التى تتحدث عن، وتحدث حسنى مبارك جديرة بأن تطرح كما هى.

على مستوى الوطن أيضاً تفجرت أحداث ثورة مصر، جرح فى ضمير الأمة لا يندمل، وكان على الطبعة الثانية من هذا الكتاب أن تحمل بين دفتيها فصلاً عنها.

على المستوى الفكرى بهت اليقين....

تزلزلت الاقتناعات القديمة....

امّحى الحلم فى تغيير العالم..

وسقطت من الأيدى المجذوذة الأصابع رايات بشّرت بنصر.. وتهاوت الأسس الفكرية التى شكلت ضمير جيل..

وعلى المستوى الروحى تهنا بين من يدعون إقامة ممالك الله على الأرض وليسوا فى حقيقتهم سوى دعاة ممالك الشيطان. ومع انهيار الفكر تكالبت الطفيليات والعفن على عقولنا.. حتى أضحينا نرى فى مقولات قديمة ما لم نكن نرى، وأمسى كتاب كبروتوكولات حكماء صهيون - وهو الذى طالما سخرنا منه - نبوءة صادقة مشئومة لعراف كأنه الشيطان عينه.

على مستوى الوطن مات فتحى رضوان.

على مستوى الوجود مات أبى.. وبموته جف نهر يقين فتُركت فى البيداء دون رواء.. وانخلعت شجرة وارفة كانت جذورها فى الأرض وفروعها فى السماء.. أصبحت الغربة أنكى، والوحشة أشد، والألم أفرى والعزاء ممتنع إلا هزاء أخيراً هو أن كل ما هو حادث، وكل ماقد حدث، وكل ما سوف يحدث، مهما اشتمل على بلايا، واحتوى من رزايا، إنما هو قدر مقدور.. قد يعز علينا فى الدنيا فهمه. إلا بإرادة الله يسرى..

تقديـــم

بقلـم الدكتــور محمـد حلمــى مــراد
وزيــر التربيـــة والتعليــم الأسبــق

عندما عرض علىّ الطبيب محمد عباس أصول هذا الكتاب تصورت أننى لن أستطيع الأنتهاء من مطالعته فى وقت قصير لأنه يتناول أحداثاً عشت معظمها ولم يمض عليها وقت طويل بحيث يجتذبنى للتوافر عليه والتشبث بمتابعة فصوله لمعرفة ما يخلص إليه.. ولكننى ما أن بدأت فى القراءة حتى وجدتنى مشدوداً لمواصلتها، راغباً فى استكمالها.

فقد جذبنى الأسلوب الذى استخدمه الكاتب فى عرض انفعالاته مع الأحداث سواء فى مجال عمله الوظيفى أو على ساحة العمل الوطنى والعام فى وطنه.. فهو أسلوب تصويرى معبر يشعرك بأن الألفاظ مختارة بعناية دون افتعال، وأن الصياغة روعى فيها إشراك القارئ فى أحاسيس الكاتب دون ارهاق له أو ضغط عليه.. فجمع بين الكتابة الجادة فى أدق موضوعات الحياة السياسية بروح وطنية عالية وبين العرض بالطريقة القصصية السلسة التى لاتتعب الذهن، وإن كانت تثير المشاعر وتدفع إلى معاودة التفكير فيما حدث.

وإذا كنت اختلفت مع الكاتب فى تحليله لبعض الأحداث وفى استخلاص النتائج منها، وفى فهمه لمواقف بعض الأشخاص والتيارات حتى أننى اعتذرت فى البداية عما طلبه المؤلف من تقديم الكتاب للقراء خشية أن يفهم خطأ أننى أوافق

على كل ما ورد فيه من اتجاهات فكرية وتفسيرات للأحداث واستنباطات لما تنطوى عليه من مفاهيم أو ما يترتب عليها من انعكاسات.. إلا أننى لم أر من ناحية أخرى أن أحاول اقناعه بتغيير مافهم من وقائع الأحوال التى مرت به أو ما استخلصه منها على النحو الذى انعكس فى نفسه حال وقوعها إذ أن قيمة الكتاب تكمن بالدرجة الأولى فى تصويره لنفسية شاب مصرى مثقف ممتلئ حباً لوطنه، يرنو ببصره إلى المُثل العليا ويريد الخير والصلاح لبلده، يبحث عن القدوة الطيبة بين رجالات هذه الأمة.

وعلى هذا الأساس، فإن محتوى الكتاب يعبر عن مشاعر الكثير من أمثاله من الشباب المخلص فى هذه الحقبة من حياة مصر ازاء الأحداث الجارية على أرضها، وعما دار فى أذهانهم من أفكار حولها سواء جاءت هذه المشاعر والأفكار نتيجة فهم ومتكامل لكافة الظروف والملابسات أم كانت تتصف بالمثالية التى تبعد عن الواقعية فى إصدار الأحكام.. وهو بهذا المعنى يعتبر عوناً للباحثين فى تاريخنا على تفهم الكثير من ردود أفعال الشعب ازاء الأحداث، ومرشداً للمشتغلين بالعمل السياسى إلى صدى بعض التصرفات التى يأتونها عن عمد أو يقعون فيها عن غير قصد حتى يتجنبوا التردى فيها فتسئ اليهم وتدين بعض أفعالهم.

ووفقاً لهذه الاعتبارات قبلت أن أقدم هذا الكتاب الذى أشعر أنه عصارة نفس مؤلفه وخلاصة انفعالاته خلال فترة غير قصيرة من أنضر أيام حياته وهى مرحلة شبابه المبكر، ومدركاً بأنه ينبغى أن يخرج إلى الناس كما هو دون تعديل أو تحرير، شأنه فى ذلك شأن الفيلم التصويرى الذى يسجل الأحداث حال وقوعها.. فهى اعترافات شاب هذا العصر.

وما أحوجنا إلى تسجيل مثل هذه الخلجات النفسية لشباب كل عصر من العصور التى تمر بنا.. إذ هى هواجس وانفعالات تكشف عن أمانى الأجيال القادمة التى يجب أن تؤخذ فى الحسبان وتكون محل اعتبار كل مفكر فى الاصلاح المنشود والتطور المأمول.

بهذا المفهوم يقدم كتاب الدكتور محمد عباس الكثير من النفع لقارئيه سواء اتفقوا معه فى كل ما ورد به أو اختلفوا معه فى بعضها.. راجياً منهم أن يعملوا فكرهم: لماذا اختلفوا معه ولماذا لم يخرج الكاتب بنفس الرأى الذى يرونه؟.. من خلال هذه الحوارات الذاتية تتضح أمامنا معالم الطريق السوى لمستقبل أمتنا.

هدانا الله جميعاً إلى الفكر الصائب والعمل المثمر من أجل صلاح بلدنا واسعاد أهلها.

القاهرة فى ١٩٨٧/١٢/٢٥ — محمد حلمى مراد

اهـــداء

إلى الشهداء الذين دفعوا حياتهم فكانوا
دليل براءة جيلنا أمام الأجيال القادمة..

إلى خالد الاسلامبولى
إلى سعد إدريس حلاوة
إلى سليمـان خـاطـر

مقدمة

أنا خائن

أنا خائن كخالد الإسلامبولى

مجنون

مجنون كسليمان خاطر

مهزوم

مهزوم كجمال عبد الناصر

رجعى

رجعى كمصطفى النحاس

فاشل كسعد زغلول

درويش كأحمد عرابى

خارج على رأى أمير المؤمنين كسيد الشهداء الحسين

صابئ بكل أديان الجاهلية وعلى دين محمد بن عبد الله

لم أحب زعيماً مثلما أحببت جمال عبد الناصر، ولم أدن زعيماً كما أدنته. ولم أبغض رئيساً كما أبغضت أنور السادات. ولم أعذر رئيساً كما عذرته. لأن الخراب الذى قاد مصر إليه كان أكبر من قدرته. كان يستلزم وجود عشرات الآلاف مثله، وقد وجدوا، وما زالوا.

لقد ترددت كثيراً فى كتابة هذا الكتاب لأننى أدركت أن تجربة جيلنا الجريح ليست ملكى، وأنها إدانة لجيل حاضر - بكل ما فيه - حتى ومضات الضوء الرائعة به هى الأخرى إدانة، فقد كانت تمثل الاستثناء لا القاعدة، وكانت للحزن هى الأخرى تجرى فى تيار ضد مجرى الجيل، وأدركت أيضاً أن من حق الأجيال القادمة أن تعرف حقيقة ماحدث للوطن وللأمة فى جيلنا من خلال مواطن عادى وليس من خلال كتاب كذابين أو قادة هم الذين ساقوا الوطن للخراب. ولأن هذه التجربة ادانة لجيل حاضر فهى رسالة لجيل آت ـ ولو بعد ألف عام ـ.. فلربما يعتبر هذا الجيل.. ولا يقترف ما اقترفناه ضد أنفسنا، ولقد حاولت ـ قدر جهدى ـ أن أبتعد عن التجريد كما حاولت تجنب المثالية الساذجة التى تغرق فى المطلق منفصلة عن أرض الواقع باحثة عن مدينة فاضلة لم ـ ولن ـ توجد على الأرض.

ولم يجمح بى الخيال حتى أطلب نيل المستحيل. ولم يبلغ بى الشطط أن أطلب ديمقراطية كديمقراطية بريطانيا ـ التى ادعى السادات أنه تجاوزها ـ ما حاولت أن أبحث من خلال الواقع عن جذور الانهيار الكائن.. وعما كان يمكن أن يكون حتى بنفس الامكانيات والظروف الخارجية.. دون خيانات أبناء الوطن.

ولكم كان أليماً أن أدرك أننا بدأنا عصراً من عصور التدهور القومى والتى كان كل منها يبدأ بخروج حاكم أعماه الجشع والجهل فيطعن أمته، لتظل طعنته

تدميها مئات السنين.

حدث هذا مع يزيد بن معاوية.. ومع الخديوى توفيق.. ومع أنور السادات. وكان كل حاكم منهم يجد حوله كثيراً من المنافقين والأفاقين واللصوص والمرتشين والخونة والمخدوعين وأقلية من المعارضة والشهداء، لكن الغالبية العظمى كانت صامتة مقهورة. ولم تكتف الفئة الأولى بأن تستولى على ملكوت الدنيا فقط، بل بلغ بها الفجور أن تحاول الاستيلاء على ملكوت الآخرة أيضاً.. وهكذا حكم يزيد وفقهاؤه على مولانا الامام على وعلى سيد الشهداء الامام الحسين بالخروج على الإسلام.. وحكم الخديوى الفاسق والخائن على أحمد عرابى بالكفر.. لذلك لم يكن غريباً أن يسرى الحكم نفسه على جمال عبد الناصر.

موغل هو التزييف فى التاريخ إذن.. وكان التكفير سيفاً بسله كل حاكم مجرم وأتباعه اللصوص على معارضيهم. ولم يكن الأمر فى معظم الأحوال يتعلق بأصول الدين والعقيدة ـ وان ارتدى لباسها ـ لكنه كان يتعلق دائماً بأمرين ثلمهما معاوية من الإسلام ولم يعودا إليه بعد: ألا وهما شرعية الحاكم بشرعية اختيار أمته له وشرعية توزيع المال بين أفراد هذه الأمة، واقتدى معظم من جاء بعده به فضاع حق الله وحق عباده.

وعبر التاريخ الدامى لأمتنا وجد دائماً من يدافع عن الإسلام.. لكن معظمهم كانوا يدافعون عن إسلام يزيد لا إسلام الحسين. ومعظمهم كانوا خنجراً فى قلوب المسلمين لا فى أيديهم. وكانوا عونا للطاغوت ومحلين له ألا يكتفى بالاستيلاء على ما لقيصر.. بل أن يتجاوزه ليستولى على ما لله وما للناس.

كان كل ذلك ماثلاً أمامى وأنا أرقب فى حزن مأساوى تشرذم أمتنا بين أقوام طلبوا الحق فأخطأوه.. وآخرين طلبوا الباطل فأصابوه.. وشهداء وصامتين وكان ماثلاً أمامى وأنا أحاول الربط بين فساد الأفراد وانهيار الوطن.... وامتداد ذلك عبر التاريخ.. فمازال فقيه يزيد يفتى وحجاجه يقطع الرقاب. وما زال أنصار على والحسين مطاردين.. وما زال خونة أحمد عرابى سادة يقبضون ثمن خيانتهم لوطنهم ولدينهم وما زال أنصاره مكبلين فى السجون. وكان كل ذلك ماثلاً أمامى كمواطن مقهور فى أمة مقهورة. يرقب الزيف فى التاريخ والذى كتب أساساً فى دهاليز سلطة غاصبة.. فلم يكن تاريخاً حقيقياً بقدر ما كان تبريراً للاجرام وطمساً للحقائق وكان يواجهه أحياناً تاريخ آخر مداده دم الشهداء الذين دافعوا عن الحق والدين المبدأ. لكن الصامتين وهم الأغلبية ـ وأنا منهم ـ لم يشاركوا

من قبل فى كتابة التاريخ.

ولست أدعى أننى أكتب فى هذا الكتاب تاريخاً.. بل أريد أن أنقل للأجيال القادمة احساس رجل الشارع العادى والذى لم يكن ولم يطمح أن يكون حاكماً فى السلطة أو زعيماً فى المعارضة. وإنما هو مجرد مواطن عادى ينقل نبضة لا لمواطنيه وإنما لأجيال تأتى بعده.. ربما كمحاولة لاستجداء حكمهم علينا بالبراءة كأغلبية صامتة لم تشارك فى اغتيال الأمة عبر تاريخها. وأننا لم نفقد الوعى كشيوخنا فكنا نعرف دائماً من معنا ومن علينا.. ولم نكن نحتاج فى ذلك إلى أدلة اتهام ولا حيثيات حكم. فقد كانت قلوبنا تنبئنا دائماً: هذا من أتباع الحسين وذلك من خلفاء يزيد. وهذه النقطة بالذات غابت عن ذهن كل طاغوت. فهو يظن أن وعى الأمة قابل للتزييف إذ ما أطلق فقهاءه أو كتابه لتزييفه.

أجل كنا نعرف الحقيقة بقلوبنا.
ولم نشارك فى اغتيال الأمة..
لأننا ـ نحن ـ كنا الأمة.

* * *


البدايـــة

تتملكنى الحيرة من أين أبدأ...

لو أن الحكاية كانت شخصية لبدأت بتسلسل الأحداث الطبيعى.. مقتصرا عليها، لكنها ليست كذلك.. ولو كانت ما استحقت أن تكتب.

وإنما تكتسب قضية هذا الكتاب أهميتها من كونها دلالة ومثلاً على عصر الانحطاط القومى الذى نعيشه....

لذلك قد يكون منطقياً أن أبدأ منذ هزيمة ١٩٦٧..

الألم الساحق المروع المدمر.. الحزن الأكبر فى حياتى.. الجرح النازف فى أحشائى والذى لم يندمل قط.. نقطة البداية لكل ألم وأرجو الله أن لا تكون نقطة النهاية لكل أمل لكن تلك الهزيمة تقف فى التاريخ العربى كإحدى عناصر المطلق التى لاتكاد تحصره بداية ولا نهاية.. وإلا فما السر فى أنها لم تدخل فى بناء عمل كبير.. يسجل تلك الفترة (فتخلده ولا يخلدها لأنها خالدة بطبعها) وأثرها المدمر والهائل على الناس وعلى المجتمع والتاريخ والسياسة والجغرافيا. حتى نجيب محفوظ ويوسف إدريس عجزا عن ذلك فهل أستطيع أنا؟

وفكرت أن أختار يوماً من أيام الفجيعة القومية.. يوم موت جمال عبد الناصر. والذى كان بمثابة الوثيقة الرسمية لهزيمة ٦٧، والتى تأخر إعلانها حتى موته. وأردت أن أتساءل عن الجموع الحاشدة التى خرجت تبكيه ويمثل ما لم يحدث فى تاريخ مصر وعلاقتها بالجموع التى خرجت تستقبل نيكسون الذى لفظه شعبه وبالجماهير التى استقبلت السادات فى ذلك اليوم الرهيب الأسود الذى عاد فيه من زيارة اسرائيل.

كل ذلك يشكل تشويشاً فى عقلى.. فبرغم ما يبدو فى الظاهر أن هذه

الأحداث بعيدة عن موضوع هذا الكتاب إلا أننى أومن بارتباط ما قبل التاريخ بالتاريخ بما بعد التاريخ فى كيان عضوى حى مستمر هائل تتحكم فيه القدرة الإلهية.

وإذا كانت قوانين الطبيعة تقرر أن المادة لاتفنى ولا تستحدث ولا تنشأ من عدم فما بالنا ننكر ذلك على الطاقة المعنوية التى هى بالتأكيد أسمى من الطاقة المادية إن الأمور كلها شديدة الترابط. لا عبث.. كمبيوتر هائل قد لا نفهمه لذلك نفقد الترابط الحقيقى بين الأشياء، إن تركيب المجموعة الشمسية هو نفس تركيب الذرة. وما حدث وما يحدث وما سيحدث هو كل مترابط.. وأن انهيار الوطن مرتبط بانهيار المواطنين فى تأثير متبادل. وأن الفساد الداخلى الذى نعانيه كمواطنين ليس نباتاً شيطانياً نما داخل الأفراد دون معونة السلطة.. كما أن السلطة لاتنحرف دون معونة الأفراد.. وأن ذلك كله لايتم بمعزل عن الدنيا وتأثيرها الخارجى.

ومن هذا المنطلق فإنه كما تلخص الذرة المجموعة الشمسية كلها فإن قصة فساد واحدة تلخص قضية الفساد فى وطن. وقيام مسئول بتخريب مؤسسته مقابل عمولة أو رشوة هو ـ كامب ديفد ـ صغيرة.

وفى هذا الكتاب أريد أن أنقل للقارئ ماذا كان يحدث فى مصر على أعتاب القرن الواحد والعشرين.. عندما يتصدى إنسان مثلى كان مدفوناً بين صفحات كتب الفلسفة والدين والتاريخ.. خرج فجأة ليواجه العالم فوجد فساداً.. وحاول أن يحاربه.. وأريد أن أركز على موقف المجتمع المؤيد للفساد المحارب لمن يحاربونه.. وموقف الأجهزة التى كانت مهمتها محاربة الفساد فتسلل إليها. وأريد أن أقول أن الفساد فى بلادنا أصبح سلوكاً جماعياً وأن القيم الطيبة أصبحت مجرد سلوك فردى محاصر فى أغلب الأحوال ومحارب وأن الفساد بعد أن كان سمة أفراد يتصدى لهم مجتمع أصبح سمة مجتمع يتصدى له أفراد. ولكى أنقل للقارئ ذلك يجب أن أجد بداية.

ولأن حياة المجتمعات كحياة الكائن الحى، فان أى فصل بين الأشياء هو فصل نظرى، وكل تقسيم ليس إلا تسهيلا، ذلك أن تشريح القلب ـ مثلا ـ ووظائفه وأمراضه لايمكن الإلمام بها بمعزل عن أمراض الرئة والشرايين، وهذه لايمكن فهمها منقطعة الصلة بأمراض الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية المتخللة المتأثرة المؤثرة فى كل الأعضاء، بل يتجاوز الأمر ذلك إلى تأثير البيئة المحيطة

والمؤثرات الخارجية. لذلك فان الشكل الذى يلتزم به هذا الكتاب ليس الا سم خياط أرقب من خلاله حجم الكارثة فى وطنى، وهى كارثة لا يشكل الفساد فيها سوى عرض ظاهرى يفتك بالوطن وبالأمة.

على المستوى الشخصى فيما يتعلق بدورى، كان فى مخيلتى اميل زولا وهو ينضو عن نفسه طيلسان الأدب فينزل إلى معترك الحياة فى القضية المعروفة بقضية دريفوس ليهاجم ظلما فيكشف فسادا فاذا تحت الفساد فساد أشد، واستمر حتى وقع فى المحظور عندما عرى رؤوس السلطة فمسه سيفها، وحكم عليه بالسجن!!.

كان فى مخيلتى أيضا نجيب محفوظ، العبقرى الذى لم يفر أحد فريه، الكاتب العملاق الذى لاتدانى قامته قامة ولا تساوى هامته هامة، كنت أذهل لتناقض آرائه المعلنة ع آراء أبطاله، وكنت - ومازلت - أرى أن آراء أبطاله أعظم من آرائه وأصدق. كنت أقول ذلك للدكتور لويس عوض فى شتاء سنة ١٩٧٠ الحزين، وكان الدكتور يوسف ادريس قد قدمنى للقراء فى صحيفة الجمهورية عام ١٩٦٨، كانا يشجعانى على مواصلة الكتابة، لكن الوطن كان مذبوحا والأمل مذبوحا فكيف يكتب مذبوح، كان قرارى واختيارى ألا أكتب، وكان وعدى للدكتور لويس عوض أننى اذا كتبت يوما فسوف أبدأ بطرح أفكارى مهما كانت خطورتها كى لا أتنصل منها خلف رمز فى قصة أو حوار فى رواية فلعلى بهذا الكتاب أفى بوعدى.



المبـــــرة

١٩٧١

عام الحسم الذى لم يحسم

هشيم أوراق الخريف وزهوره الذابلة...

أتصفح الصحف المتشابهة بملل...

إعلان من مستشفى المبرة بطنطا عن طلب أطباء للعمل بها..

أرسل أوراقى بالبريد وأجتاز المسابقة فأعين بها..

كانت النذر تخيم على أحلام الوطن الجريح....

وكان طوفان الحلم فى الخمسينيات قد اهتز بالأنفصال، واستنزف فى اليمن، وتشوه بممارسات الداخل قبل أن يتهشم فى يونيو ١٩٦٧، لكننا رفعنا الرؤوس لنرتق ماتمزق وسط شراسة حرب الاستنزاف، ثم أيلول الأسود، ثم موت جمال عبد الناصر ثم التدشين لكل ذلك بتولى السادات....

ثم كانت ١٥ مايو ولم أفلت منذ الساعات الأولى معناها وكنت أقول لأصدقائى:

ـ سوف يثبت التاريخ الذى يكرر نفسه أن ١٥ مايو توازى هزيمة أحمد عرابى فى التل الكبير.. وأنها انقلاب كامل... وأن أنور السادات هو الخديوى الجديد.

المبرة....

طنطا.. وسط المدينة.. بالقرب من بداية شارع الجيش ـ الذى مازال يحتفظ باسمه القديم «شارع البحر» ـ خلف مسرح مدينة طنطا ـ الذى لا يعمل ـ يقبع مبنى أبيض مكون من ثلاثة طوابق.. بنى تحت رعاية الأميرة فوزية سنة

١٩٥١، هو مستشفى المبرة بطنطا.

٢ فبراير سنة ١٩٧٢....

الأيام الأولى فى المبرة....

أتعرف بالزملاء والرؤساء....

كان مدير المستشفى هو الدكتور محمود جامع. ولقد اكتشفت فى الأيام الأولى أنه شخص غير عادى. كان صديقاً حميماً للسادات تتصدر مكتبه صورة ضخمة له بمساحة جدار كامل كما تتناثر فى أماكن عديدة صور للسادات يداعب أبناء الدكتور جامع وصورة له يداعب أبناء السادات. وكان نجمه السياسى قد بدأ يبزغ منذ تولى السادات[1]. ثم سطع فى ١٥ مايو بتعيينه عضواً فى لجان متعددة مع الدكتور عاطف صدقى والدكتور رفعت المحجوب. وكانت مهمة تلك اللجان أن تستبعد من الاتحاد الاشتراكى أنصار مجموعة ١٥ مايو، لكن الذى اتضح فيما بعد أن مهمتها كانت أبعد بكثير من ذلك وأنها كانت تمهيداً للانقلاب الكامل فى السياسات الخارجية والداخلية والاقتصادية. وكانت علاقته قوية بالوزراء ورئيس الوزراء وكبار الصحفيين وبعض السفراء الأجانب وأجهزة الأمن. وكان صديقاً قديماً للاخوان المسلمين لكن لم يشمله الاعتقال. فقد كان من الاخوان المسلمين حتى عام ٥٤ وناصرياً حتى عام ٧١ ثم ساداتياً بعد ذلك. وهو بذلك يصلح كنموذج مثالى للغالبية العظمى ممن تولوا السلطة منذ السبعينيات حتى الآن. كان الوزراء والمحافظون وقيادات أمنية يزورونه كثيراً فى مكتبه. وكان السادات يزوره أحياناً فى بيته وتردد أنه رفض باصرار أن يتولى منصباً وزارياً مفضلاً أن يمارس السلطة خلف ستار. كان جديراً بالاعجاب فى حزمه وقدرته الفائقة على حل أى مشاكل ادارية تقابله فى المستشفى وكان ينسف الروتين نسفاً محطماً كل اللوائح المالية والادارية فى سبيل انقاذ المستشفى من الانهيار كما كان يقول. لكنه كان كالسادات.

❋ ❋ ❋

١- نشرت الصحف بعد ذلك أنه كان واحداً من بضع أفراد على مستوى الأمة ممن علموا من السادات بموعد حرب أكتوبر حيث أوصاه: «هذا كلام لايخرج من لسانك لأحد». ولقد عرفته عن طريقه بصورة ماقبل الحرب لكنى لم أصدق.

وذات ليلة رأيتنى فى الروضة الشريفة بالمدينة المنورة وثمة وجه غاضب ينظر نحوى متسائلا لماذا لم تأت وأجبته لكنكم لم تطلبونى فأشاح عنى بغضب قائلاً:

ـ فرق بين الطالب والمطلوب.

وفى ١٦ أبريل ١٩٧٣ سافرت للعمل فى المملكة العربية السعودية.

❋ ❋ ❋

١٠ رمضان ١٣٩٣هـ

ما أبشع المذلة... هوان مابعده هوان...

تسحرنى المناظر الخلابة وأنا أركب الطائرة لأول مرة..

لكن الصحيفة الكويتية التى أمامى تلفت نظرى.. ففيها شئ آخر مختلف غير تلك المنشورات اليومية التى يسمونها صحفاً حكومية، وتتحدث الصحيفة فى مقال طويل عن الصراع العربى الاسرائيلى وعن احتمالات المواجهة الحضارية....

أما عن المواجهة العسكرية فالصحيفة تقرر فى لهجة اليقين الذى مابعده يقين: «ومن المعروف أنه فى حالة مواجهة عسكرية فإن الجيش الاسرائيلى قادر أن يصل ـ فى ظرف ساعات قليلة بالجيش المصرى إلى حالة العجز المطلق».

يا للذل والهوان والألم....

العجز المطلق.

ثمة وضع أسمى وأشرف من العجز اسمه الموت...

هأنت ذى يامصر.. يا أمى الجريحة الذبيحة.. تكاثر عليك الأعداء وخذلك الأصدقاء وخانك بعض أبنائك.. هأنت ذى.. كلئن حى هائل يمتد عبر التاريخ كله. بلغت ذات يوم ذرا المجد لكنك الآن.. مهزومة ذليلة يا مصر.. فقيرة تلعق جراحها.. تجمع قروش أبنائها.. تكفكف دماءهم.. تلملم أشلاءهم.. ترتق جروحهم.. تستنهض فيهم الدين والتاريخ والمجد وتنفخ فيهم الروح وتحاول أن تنهض...

أحبك .. أحبك يامصر.. أحبك ذليلة وعزيزة.. جريحة وصحيحة.. عالية وفى الحضيض.. منتصرة ومنكسرة.. أتأمل من الطائرة تضاريس وجهك كما

يتأمل العاشق ملامح معشوقه.. رمال صحرائك وسهول وديانك ومجرى نيلك وصخور جبالك مروية بالدم يامصر.. لكم قتلونا.. الهكسوس فالرومان فالفرس فالتتار فالصليبيون فالمماليك فالفرنسيون فالانجليز فاسرائيل.. تكأكأت عليك الخطوب فهل نال منك الدهر.. يا أمي العجوز الطيبة الرائعة.. أيصلون إلى العجز المطلق؟ وفي ساعات قليلة..؟ لم يعد لديك أمل في الحياة إذن.... أتموتين؟!

يلعننا الدهر....

ويطوف بأعيننا القهر.

ان نحن صمتنا....

أو نحن توانينا عن نيل الثأر....

اليوم العاشر من رمضان..

الحمد لله الذى أعانني على الصوم.. كنت خائفاً جداً أنني إزاء الحرارة اللاهبة قد لا أستطيع الصوم.. ذلك أن درجة الحرارة هناك تتجاوز السبعين درجة مئوية في الشمس.. لم أفهم إلا هناك معنى أن يطرح بلال أرضاً والصخرة فوق صدره ولهيب الشمس والصحراء والهجير يلفحه فيهتف: أحد.. أحد.. ولايمكن أن يفهم أحد معنى ذلك إلا إذا أحس بنفسه درجة الحرارة في بطاح مكة أو ميناء جدة... تساءلت ذات مرة: أليس هناك شتاء فأجاب أحد الزملاء أن العام هنا ينقسم إلى فصلين: ستة شهور حارة وستة شهور أشد حرارة!!

أتناول الأفطار مع زوجتي.. تدير أناملي مفاتيح المذياع في بحث عن صوت مصر الحبيبة.. أبحث عن البرامج فلا أجد إلا أغاني وطنية..

أذعت القيادة العامة للقوات المسلحة بيانها الرابع:

عبرت قواتنا المسلحة قناة السويس..

الله أكبر..

الله أكبر..

ومن أعمق الأعماق صارخة متوسلة مستغيثة داعية باكية ملهوفة مفزوعة.. اللهأكبر.. في لحظة مركزة من الزمان تتجمع مرارات الهزائم العلقمية عبر التاريخ ودم الشهداء المسفوك وهوان المذلة والانسحاب ودموع الثكالى والأرامل والأيتام والرغبة الهائلة الدامية في أن نغسل عار جيلنا وننتصر.. محمد وأحمد ومصطفى وحسين وعباس وعبد السلام وصلاح وعتريس وموريس.. لا يحاربون اسرائيل ولا حتى أمريكا وإنما يحاربون الموت ذاته.. يارب..

اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تقوم لنا قائمة فى الأرض بعد اليوم.. يارب إنه أملنا الأخير.. ميناؤنا الأخير.

لن نحتمل هزيمة أخرى.. انتصر.. انتصر ياسادات.. انتصر لتحمل مصر اسمك مدى التاريخ.. إنى أغفر لك حماقتك وغرورك وزيفك.. بل إننى أدين نفسى لأننى كذبتك واحتقرتك.. انتصر.. فلا أمل أمامنا إلا أن ننتصر.. يارب.. هؤلاء هم عبادك.. خطاؤون لكنهم عبادك التوابون فانصرهم.. يامحمد.. يارسول الله.. أمتك أمتك.. أدركنا يارب.. أغثنا.. ياملائكة الرحمن.. أهبطوا وحاربوا.. اليوم بدر.. ياجبريل قد جيشك وهاجم.. ياخالد بن الوليد ياصلاح الدين الأيوبى ياسيف الدين قطز يا ابن تيمية ياعز الدين بن عبد السلام يا أحمد عرابى يامصطفى كامل ياعبد المنعم رياض ياجمال عبد الناصر يا أرواح الملايين الذين استشهدوا.. هبوا من قبوركم وحاربوا إن أرواحكم موجودة فى مكان ما من هذا الوجود فتعالوا..

زوجتى والأصدقاء يذهلهم انفعالى..

أنتم لاتدركوَن مابى.. إنى أحمل فى صدرى ناراً..

التاريخ كله يشتعل داخل قلبى.. مئات الملايين الذين قطنوا مصر منذ خلقها الله كأنهم أحياء يصرخون داخلى. آمال محيطة وآلام ملتاعة وعواطف مشبوبة وخوف مروع حتى العظام في القبور تصرخ داخلى.. انكسارات المسلمين عبر التاريخ.. هم خير أمة أخرجت للناس.. فلماذا لايتبؤون مكانتهم يارب.

يفسر بعض الزملاء انفعالاتى الطاغية بأن لى شقيقاً أو عزيزاً فى الحرب لايدركون أن كل من يحارب أعز على من شقيق.. وأنه لايوجد أبداً شخص معين أخاف عليه..

أسمع إذاعة اسرائيل.. وطن الطغيان والكفر والجبروت.. وطن العصابات يأجوج ومأجوج.. كنت قد حرمت على نفسى سماعها منذ ٦٧.. تشاجرت مع الأصدقاء كثيراً لأنهم يسمعونها.. الآن أسمعها لأعرف.

عبر المصريون القناة وسوف نسحق عظامهم.. يارب.. ياقوى ياقهار ياجبار إمنعهم.. إن الكلمات تسرى داخلى فتتحول من موجات صوت إلى مزيج مروع من العظام المسحوقة والدماء المسفوكة واللحم البشرى المشوى والرمال المعجونة فى كل هذا.. كأنما يتجمع المليون مقاتل داخلى.. فأسمع بأذنى دوى القنابل وزفير الصواريخ وأزيز الطائرات وأصوات السفن ودوى الرصاص وتسحقنى جنازير

الدبابات الضخمة فأستشهد وأصحوا وأستشهد وأصحو مليون مرة..

تتداعى إلى مخيلتي مثل كابوس رهيب أحداث يونيو ٦٧..

وبرغم أنني أيامها كنت أتوقع الهزيمة إلا أن التوقع ليس كالواقع..

منذ عام ٦٢ كانت الجفوة قد بدأت تحل بيني وبين جمال عبد الناصر.. لا معنى لأى شئ إن خالطه قهر فرد أى فرد.. وبناء السد العالى برغم ما يمثله من شموخ قومي لم نمارسه منذ بناء الأهرامات وهزيمة الصليبيين والتتار إلا أنه لا يساوى إعدام الشيخ سيد قطب أو قتل شهدى عطية.

ويأتى مايو ٦٧ مشحوناً بأحداث جسام.. ويقف جمال عبد الناصر فى مؤتمر صحفى فى أواخر مايو ٦٧.. عظيماً جليلاً مهيباً شامخاً.. تتمثل فيه عزتنا القومية ونحلم أن تتحقق على يديه آمالنا فى المجد.. خبأناها فى قلوبنا وتحت جفوننا مئات السنين.. يا للثارات القديمة الدامية.. كنصل حاد يمزقنا بذكريات فجور أعدائنا.. يومها انتهت الجفوة.. وعاد لى أباً وزعيماً وأملاً فى الخلاص.. إلا أننى كنت أفكر بطريقة أخرى.. أن الاستعمار العالمى لن يسمح له أبداً بالنصر.. إننى أنظر له وهو يتحدث فى فيض من الثقة لكننى أرى فى عينيه الخوف «فليعنا اللهأن نعود إلى حدود سنة ١٩٤٨ الدولية» الناس يتوقعون أن تدخل تل أبيب فى بضع ساعات أم أنك تناور.. ذهبت إلى حجرتى أقرأ قصيدة لأمل دنقل: آخر كلمات سبارتاكوس وأنا أقول لنفسى أن سبارتاكوس سيصلب من جديد. ونصحو على دوى القنابل والبيانات العسكرية الكاذبة.. لايمكن أن تكون الهزيمة بشعة هكذا.. الطيران كله يدمر.. أمر بالانسحاب إلى الخط الثانى.. أين يوجد. على بعد أمتار من الحدود الدولية أم ضاعت سيناء.. أمر آخر بالانسحاب إلى قناة السويس.. اسرائيل ترقص وتغنى قولوا لعين الشمس ماتحماشى.. جيش عبد الناصر راجع ماشى.. لابد أنها خدعة. استدرجهم عبد الناصر إلى سيناء كى يحصيهم عدداً ويشتتهم بدداً. الآن سوف تخرج القوة الضاربة الأساسية للجيش والتى لم تحارب بعد.. أرهم ياعبد الناصر جبروتك الذى أريتناه.. السادسة مساء اليوم ستخطب كما وعدت.. فى النهار متسع إذن لضربة قاصمة لاسرائيل.. إن لم يكن كذلك فسوف نسحلك فى الشوارع.

السادسة مساءاً..

عبد الناصر يتنحى ومصر هزمت..

كبركان يقذف حممه انفجرت مصر بالجماهير الصارخة الرافضة.. طوفان من

البشر.. سنحارب.. سنحارب حتى النصر.. ابق يا عبد الناصر.. تجسدت مصر ليلتها فى شخصه.. إن ضاع ضعنا.. وإن بقى سيولد الأمل من جديد.. كيف نسحله وهو سويداء القلب وفلذة الكبد والرمز الدامى على أمل مات.. هو نحن إن فقدناه فقد حققنا لهم كل مايريدونه.. مهما كانت أخطاؤه فهو الخلاصة المركزة للأمل والألم والعجز والحلم.. وهو شعب فى رجل.. وذهل العالم وهو يرى الشعب يهتف للمهزوم.. كنا نمنى أنفسنا أننا فى كابوس مروع وأننا سنستيقظ منه فإذا مصر اكتسحت اسرائيل وتهدد الأسطول السادس.. ويعود جمال عبد الناصر وننام كل يوم على أمل الضربة الكبرى فى اليوم التالى. كم مات منا ؟ عشرة آلاف.. عشرون ألف.. خمسون ألف.. مازال الباقون أحياء لديهم الارادة والأمل والسلاح سيعوض فى أسابيع.. ونهاجم.. رأس العش.. سنطور الهجوم.. هجوم الطيران المصرى فى يوليه.. ستزحف المشاة والدبابات......

لكن الآمال كلها كانت مجهضة......

حجم الهزيمة يكبر كل يوم......

وتبدأ حرب الاستنزاف ضارية مروعة.. وتنزف.. لكن اسرائيل أيضاً تنزف.. الأطفال يتساقطون قتلى.. المواطنون فى غزة يتفجرون بالغضب الجامح وهم يحملون صور عبد الناصر.. ويستغيثون به.. يا ألم العجز الساحق.. جمال عبد الناصر حزين ومريض وجريح.. ويموت..

مرت الأيام الأولى ولم تسحق اسرائيل عظامنا.. يصحو الحلم على استحياء.. خائف أن أتشبث بأهداب الأمل فأسقط فى غياهب اليأس والواقع.. كعطشان تشقق بالجفاف حلقه فيرى الواحة أمامه فيظنها سراباً.. ألم الموت أصبح أمامه أهون من موت الأمل.. وتتتالى البيانات باقتضاب ووقار لا يناسبان الأوار داخلى.. أعطهم القوة وإمنحهم النصر يارب.. تدمير لواء دبابات اسرائيلى بالكامل وأسر قائده عساف ياغورى.. التليفزيون السعودى يعرض صورته وحديثه عن مفاجأته المذهلة بامكانيات الجندى المصرى.. الله أكبر.. تدمير النقاط الحصينة الباقية من خط بارليف... الجيش السورى يتعرض لضغط رهيب لكنهم أبطال وأسود كواسر.

تتوقف البيانات المصرية عن اضافة جديد سوى أن قواتنا تحكم قبضتها على أرض محررة.. كم حررتم؟ ولماذا لم نواصل تقدمنا إلى الممرات.. اسرائيل تتحدث عن هجومها المضاد.. ينخلع القلب هلعاً.. عاجز أنا كحيوان حبيس فى قفص..

لو أنني كنت فى مصر.. أعلم أنه لن يكون لى دور ولا قيمة.. لكنني أريد أن أكون هناك.. معرض مثلك يامصر لقصف الطائرات ونسف الصواريخ كى يختلط لحمى بلحمك ودمى بدمك.. أموت لا محالة إن مت وأعيش أو أموت إن انتصرت.. لا أكاد أنام والمذياع يصاحبنى وأنا ألهث بين محطات الاذاعة باحثاً عن خبر يطمئننى.. موشى ديان يعترف بكثافة الهجوم المصرى وعجز الجيش الاسرائيلى عن رده إلى غرب القناة...

الحمد لله....

والله أكبر....

نصر عبده وأعز جنده ونصر مصر وحده.. تقدم ياسادات إلى الممرات إذن.. الضغط على سوريا رهيب فتقدم.. تأتى رسل العالم تطلب وقف اطلاق النار.. كان الطلب الأول يعبر عن العهر الأمريكى حيث طلبوا عودة القوات المتحاربة إلى خط ٦أكتوبر بما يعنى انسحاب الجيش المصرى من سيناء.. يارجس الشيطان.. ولماذا لم تطلبوا مثل ذلك يوم ٥ يونيو.. وتتوالى الرسل راجية وقف اطلاق النار على خطوط القتال.. وافق يا سادات.. احفظ نصرنا الغالى الدامى من أن يتحول إلى هزيمة... السادات يرفض..

الله معه..

أذقتنا بشائر النصر فلا تحرمنا حلاوته يارب.

١٤ أكتوبر.. جولدا مائير تصرح أن قوات اسرائيلية تحارب غرب القناة وتهدد بأنها ستدخل دمشق..

تحت وطأة العذاب تسقط الكلمات صرعى.. لا شئ يصف الألم.. نجلس مع القنصل المصرى فى السفارة المصرية بجدة فيخبرنا أن الوضع خطير وأن اسرائيل تحاول حصار الجيش الثالث والثانى..

تخمد الآمال وتنطفئ الأضواء..

ينبئنى بالكارثة قلبى.. لكن علىّ أن أنتظر ثلاثة عشر عاماً حتى أقرأها صريحة فى مذكرات اسماعيل فهمى أننا فى سنة ٧٣ هزمنا عسكرياً وأن أقرأ فى مذكرات محمود رياض كيف حول السادات النصر إلى هزيمة..

ويصرخ محمود رياض:

ـ «كان العالم كله مع مصر.. لكن السادات كان مع أمريكا» ويؤكد أن ماحدث هو جريمة ضد الأمة يستلزم التحقيق الشامل لمعرفة أسباب فشل مشروع

الأمن القومى العربى بعد جهود هائلة استغرقت خمسة وعشرين عاماً حفلت ببشائر الانتصار وتذر الهزيمة لكننا كنا فيها أحياء نعى ونحاول ونحارب.. وكانت الأيام الأولى فى حرب أكتوبر موحية بأنها ستلحق بسوابقها العظام فى القادسية وحطين وعين جالوت لتحطم مذلة هزيمة ٦٧ والتى حاولوا بعدها ايهامنا بأننا شعب لايستطيع أن يقاتل.. متجاهلين عمداً أن العرب عامة ومصر بالذات قد خاضت أشرس حروب التاريخ.. وأنها انتصرت فى مجملها لتوجد فى النهاية بعد سبعة آلاف عام.. ولم ينجحوا بعد ٦٧.. لكنهم سينجحون بعد ٧٣ فيما سماه محمود رياض جريمة ضد الأمة.. وستنهال كالطوفان بعد ذلك مئات المذكرات يكتبها مسئولون وخونة..

وكان أقل القليل منها يستحق الاحترام لصدقه..

لكن أغلبها كان إما محاولة عميل لإكمال اغتيال الأمة وهدم ثقتها فى نفسها أو محاولات خائن أو مخطئ لابعاد سيف الاتهام بالجريمة عن عنقه بأن يسرد الأحداث من وجهة نظره هو محاولاً طمس أدلة اتهامه.. كانوا قد باعوا الوطن وقبضوا الثمن لكنهم يريدون أن يتنصلوا من الجرم تنصل أخوة يوسف.. ضاعت الحقيقة ومازالت ضائعة.

الأيام الأخيرة من الحرب..

كتل المرارة الفاجعة...

محادثات الكيلو ١٠١.

لا أستطيع أن أستمر.

❋ ❋ ❋

١٩٧٤

....١٩٧٤

يتسلل الشرف والمجد بين مسامنا كما يتسلل الماء فى الأرض الخراب.. يدير السادات دفة البلاد فتنهار قيم وتمزق مشاعر ويضيع تاريخ.. كنت أكره هذا الرجل منذ عرفته ولا أثق فيه.. لكننى أسلمت له مجامع قلبى فى العشرة أيام الأولى من الحرب فلما خاب وأهدر امكانية انتصارنا عاد بغضى له بصورة أشد.

الآن أدرك فداحة مافعلته بنا.

أكاد أصرخ كهاملت وهو يواجه أمه الخائنة التى قتلت أباه وعشقت عمه «أنت أمى وليتك لم تكونى» وأنت ياسادات رئيسنا وليتك لم تكن.

لم يكن طرد الخبراء الروس عام ٧٢ خطوة لكى تحارب مصر معركتها وحدها كما ادعيت أنت.. ولم تكن أيضاً مجرد خيانة صديق ولا نكران جميل ولا جحود فضل كما فهمت أنا. لكنها كانت استبدال عشيق بصديق.

ولم يكن قرارك بتنويع مصادر السلاح قراراً من أجل قوة جيشنا إذن.. بل كنت تتحول من رئيس دولة إلى سمسار لبيع السلاح لوطنك.. ولما كان التعامل مع الكتلة الشرقية تعاملاً بين دول ولا توجد به عمولة ولا رشوة فإن سلاحها لم يعد يناسب آمالك فى المستقبل.. مستقبلك أنت لا مستقبل مصر.

فك الاشتباك...

لكم عذبتنى أيها الجيش الثالث وأنت محاصر.. كيف حدث ذلك وكيف حوصرت.. إن محمد حسنين هيكل يكتب عن الفواصل بين الجيوش كنقط ضعيفة.. والفريق سعد الدين الشاذلى يستقيل أو يقال.. المعلومات قليلة لكننى أحس أن الأمر فيه خيانة.. تحكُّم اسرائيل فى مرور الماء والطعام والبطاطين

يمرغ فى الوحل كرامتى.. أتوق إلى مواجهة عسكرية للثغرة لكن رحلات كيسنجر وطريقة مقابلة السادات له تشعرنى أن شيئاً غالياً جداً وعزيزاً جدا يمتهن ويباع.. شرفنا القومى.. وتم فك الاشتباك الأول.. وتم أيضاً الافراج عن مصطفى أمين.. وبرغم أننى لم أصدق قط أن مصطفى أمين كان جاسوساً للأمريكيين برغم كل ماقيل إلا أننى كنت واثقاً من اتجاهه السياسى الذى جعله يقف مع الملك ضد مصطفى النحاس ثم جعله يتدله فى حب الثورة بعد ذلك بصورة يرفضها المنطق.. وتجافى الصدق مع النفس.. وكنت أشعر دائماً باتجاهه لأمريكا وأن ذلك يمثل اتجاهاً شخصياً له لا يعيبه إنما يعيب من يضعه فى موقع هام وهو يعرف أنه يعبر عن أشياء ضد اقتناعاته الشخصية.. ولو أن مصطفى أمين وهو فى موقعه عبر عن آرائه الحقيقية بصدق لظفر باحترامى.. ولو أنه ترك مكانه لأنه لا يقتنع بالاتجاه العام لظفر باحترامى أيضاً.. لكنه لم يفعل هذا ولا ذاك.

وخرج مصطفى أمين من السجن وهذا شئ عظيم ورائع وحق وعدل..

لكنه خرج فى اطار تكثيف العلاقة المصرية الأمريكية وكأنه أمر أمريكى وهذا شئ بشع ومقزز..

وشغل على أمين كان محمد حسنين هيكل فى الأهرام..

وانتابنى الذهول..

هل يجرؤ السادات على هذا... رجل يجرؤ على ذلك سوف يجرؤ على كل شئ آخر.. وقفزت إلى مخيلتى مشاعر أيتام مات أبوهم العظيم ومازالوا يعالجون لواعج الحزن عليه فإذا بهم يفاجأون بزوج أم غريب.

إلا أننى لا أنكر سعادتى وشماتتى بمحمد حسنين هيكل.. لقد ملكت ناصية القلم والفكر القومى طويلاً.. وكانت لديك وسائل المعرفة متاحة وسهلة.. ألم تدرك قط أن السادات لم يكن الأخ ولا العم وإنما زوج الأم الغريب الطامع الخائن لصديقه والذى ظل ثمانية عشر عاماً قابعاً فى الظل ينتظر لحظة تحقيق أطماعه.. إن كنت أنا أدركته أنا المواطن العادى الذى لايملك من وسائل المعرفة سوي وسائل أعلام كاذبة تشوه الحقائق.. وبرغم التشويه والكذب حددت موقفى من السادات وأدركت كنهه منذ البداية فكيف لم تدرك أنت.. كنت أنت مهندس ١٥ مايو. ووقف القلم والفكر أمام الدبابة والمدفع فانتصرت.. وكانت ثمرة نصرك المرة هى مجئ السادات. لكى أكون واضحاً فإننى لم أحب على صبرى ولا

شعراوى جمعة.. ولم أكن أريدهما بدائل عن السادات.. رجوت أن يكون حسين الشافعى ذلك البديل.. كما رجوت أيضاً أن يكون هذا البديل هو أنت يامحمد حسنين هيكل.. أعترف أنى أحببتك.. وبقدر حبى لك كانت شماتتى بك.. لن أغفر قط مساندتك للسادات وسعيد جداً أن يصدق ظنى أنا ويخيب ظنك أنت ياسيد الفكر والقلم.. قد يكون نوعاً من الاعتذار لك موقفك الشجاع والرافض عندما بدأت السفينة تعكس مسارها لكن هذا الاعتذار غير مقبول عندى.. فلم أظنك قبل اليوم غير شجاع حتى تعتذر شجاعتك لك.. أنت أخطأت يامحمد حسنين هيكل وأى نوع من التبرير مرفوض وأى حجة مدحوضة بما أثبتته الأحداث الفاجعة بعد ذلك.

❋ ❋ ❋

كل شئ يضيع.. دم الشهداء هباء.. تسقط أحلامنا القومية عبر عشرين عاماً.. الجيش ينسحب من سيناء.. ثلاثون دبابة فقط تبقى فيم كان العبور إذن.. فيم كان الألم الطاحن والرغبة المشبوبة والشوق المجنون للعبور إن كنا سنسحب بعده.. تقيح الجرح وأزمن فتعودنا عليه وعايشنا ألمه.. وإننى حتى لا أملك القوة ـ ولا الرغبة ـ أن أهمس أين أنت ياجمصى وأين أنتم ياقادة العبور.. إن كان السادات يخون القضية فأين أنتم..

وسائل الاعلام تبشر الناس وتدق الطبول للبطل.. يلوون عنق الصدق.. يختنق.. يكاد يموت.. أصبحت فجأة سياسة عد الناصر هى سياسة النبوت والمعتقلات والانغلاق... واستعاد توفيق الحكيم وعيه بعد غيبوبة عشرين عاماً.. واكتشفوا فجأة أن جبروت عبد الناصر تجاه شعبه كان سببه عجزه كرجل بسبب اصابته بمرض السكر.. عبد الناصر جبار وجزار وهمجى ووحشى.. أما أنور السادات فهو رمز التحضر والايمان والدبلوماسية وبطل العبور...

وفى مجلس الشعب ـ الذى غيَّر السادات اسمه ضمن ماغير.. كانوا يدقون الطبول للبطل.. وكانت الحكومة تمارس نوعاً من التجارة المحرمة أشد خطراً من تجارة المخدرات.. ألا وهى بيع أوهام كاذبة للشعب الذى يعانى عناء اقتصادياً شديداً بعد أن طفحت سياسة الانفتاح نماذج غريبة من الشواذ والنصابين، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً أخل بشعرة معاوية، لقد عبر البطل المؤمن قناة السويس وحقق أول انتصار فى تاريخ مصر الحديث، سيعبر بنا عنق الزجاجة إلى عام الرخاء.. وفجأة هبت رياح الرخاء المنتظر بإعلان الحكومة رفع الأسعار.. كأنما

مصر كلها قلب رجل واحد انفجر بالغيظ والغضب والاحتقار من الاسكندرية إلى أسوان، حيث كان رب العائلة فى مشتاه الدافئ.. واضطر يومها إلى الهروب هلعاً بعد أن كادت المظاهرات تدهمه وتسحقه، حتى لقد ترك أوراقه دون جمعها ، ومن يومها لم يغفر السادات لشعب مصر قط. ولم يعد بعد ذلك مصرياً.

كان السادات ـ هذا مجرد رأى شخصى ـ يعرف بالطبع عن نفسه ما لم يكن يعرفه الآخرون عنه أو بصورة أخرى كل الآخرين.. كان يعرف مثلاً عن نفسه أنه مدمن للمخدرات، وفى مواجهة ذلك وللتغطية عليه انتشر وصفه بالرئيس المؤمن. وكان يدرك أنه فى أى ظروف طبيعية يسودها المنطق كان مستحيلاً أن يكون رئيس جمهورية.. كان يناسبه فعلاً أن يكون عمدة ميت أبو الكوم، ولقد عامل مصر كلها كأنه عمدتها.. ولقد وصل إلى هذا المنصب بوسائل كلها غير مشرفة، ابتداء من علاقته بالألمان، ثم الحرس الحديدى، ثم هروبه ليلة ٢٣ يوليو، ثم صمته ثمانية عشر عاماً، ثم سقوطه مغشياً عليه يوم موت جمال عبد الناصر، ثم وعده الأكيد على أن يسير على طريقه... كان السادات متناقضاً مع نفسه وكانت رغباته المناسبة لعمدة تتناقض مع الجلال الجديد برئيس الجمهورية، وكان يغطى هذه الفجوة بفيض من الكذب. ولقد كذب وكذب على أمل أن يصدقه الناس.. لكن هؤلاء الرعاع لايصدقون إلا نبوت عبد الناصر ومخابراته، ولقد أثبتوا بما لايدع مجالاً للشك فى يومى ١٨ . ١٩ يناير أنهم لم يصدقوه ولن يصدقوه.. فبدأ يصدق نفسه وبدأ يبحث عن مجد خارجى يعوض الخراب الداخلى.

إن الصدق ككل الفضائل الإنسانية الكبرى يحمل داخل طياته عزاء عنائه. وقد كُذِّب كل الأنبياء ومعظم المصلحين فما ازدادوا إلا إصراراً لأن يقينهم يتصل بعالم رحب آخر يتصل هو الآخر بقيم مطلقة تتصل بأسماء الله ذاته... وأن يكون الإنسان صادقاً فيكذبه الناس فذلك قاس. لكن الأقسى منه أن يكون كاذباً فيكذبه الناس.. فجأة تنشق الأرض تحت قدميه لتتلقفه غياهب المجهول.. لا عزاء له.. وهو لم يكذب إلا لأن كذبه هو المبرر الوحيد لوجوده.. وتكذيب الناس له نوع من محو هذا الوجود وحكم بالاعدام.. أولئك الملاعين والرعاع والحرامية لم ينسوا بعد يا سادات، وهاهم يرفعون فى مظاهراتهم صورة جمال عبد الناصر مدللين أنهم يرفضون زيفك ويطلبون أصالته.. بل إن هؤلاء السفلة تطاولوا حتى على شرفك كرجل فى هتافات فاجرة...

وتراجعت الحكومة عن قراراتها فى هلع مخز.... لكن السادات لم ينس قط وتحولت الممارسة السياسية فى مصر بعد ذلك إلى سيرك عجيب. حتى الحيوانات فى الغابة تتصرف بمقتضى ارادتها الحرة.. أما حيوانات السيرك فقد شوهت ارادتها وتغيرت صفتها.. وأصبح مجرد الاعتراض على تصرفات أنور السادات خيانة لمصر.

لم أعد أستطيع احتمال مايقوله أنور السادات ولا مايفعله.. ولما كنت كبقية ملايين المصريين عاجزاً عن تغيير مايحدث فقد تجاهلته.. ليس تفريطاً فى مصر الوطن، لكن للمشاعر البشرية قدرة محدودة على احتمال الألم، وبعد هذه الحدود لايكون أمام الانسان سوى الجنون أو الموت أو تجاهل كل مايحدث.



«سنبدأ بإثارة شعور الازدراء نحو منهج الحكم السابق، حتى أن الأمم ستفضل حكومة السلام فى جو العبودية على حقوق الحرية التى طالما مجدوها..»

من بروتوكولات حكماء صهيون

العـــار

المبـــادرة

كل شئ يضيع.. من محمد على إلى جمال عبد الناصر

المبادرة..

السادات فى القدس...

عار ما بعده عار...

لو لم أكن مصرياً لما تمنيت أن أكون كذلك...

كيف أمكنك يامصر أن يخرج هذا الرجل من بين أحشائك. أشك فى نفسى...

وتنطلق أجهزة الاعلام تزين الفاجعة كما يزين القواد الزنى لبغى.. لايمكن أن يحدث.. مستحيل.. آلاف السنين وملايين الأشياء ترفضه.. ضد المنطق والاحساس والتاريخ.. كيف إذن يحدث.. ستشتعل الأرض ناراً فلا يذهب.. سيهب الشعب المصرى فلا يذهب.. سوف يصطدم طياره بالطائرة فى قمة جبل فيحترق.. دولة عربية سوف ترسل طائراتها لتدمره فى الجو.. إن لم يحدث ذلك كله فستنزل عليه من السماء صاعقة.. سوف تعود عصور المعجزات فيمسخه الله.. أو سوف تصحو مصر صبيحة يوم الزيارة فإذا هو ميت.. لكنه لايموت ولايحترق ولا يصعق وشعبه لايقتله، والعرب جميعاً كأنما أخذتهم الصاعقة، ولم تحدث معجزة من المعجزات، ولم تغير قوانين الطبيعة من نفسها فحمل الهواء طائرته كما يحمل كل طائرة.. واستمر اشتعال الوقود داخل المحركات فلم تنفجر.. ألمح جزءاً من المشهد فى التليفزيون السعودى حيث كان العالم كله يرى مايحدث ساعة حدوثه.. وحدى فى المنزل بجدة.. كان يوم راحتى وكانت زوجتى بالعمل.. أغلق التليفزيون بسرعة.. أتذكر هزيمة ٦٧، وذلك الرجل الذى أطلق رصاص مسدسه على التليفزيون عندما علم منه أخبار الهزيمة.. لم يكن مجنوناً إذاً كما

ظننت.

أطلُّ من شرفة بيتى ملتاعاً مرتاعاً.. أمامى شارع طريق مكة يمتد من منزلى حتى المسجد الحرام على بعد ٧٥ كيلو متراً تشخص عيناى إلى مكة.

يارب....

لم يعد يستطيع منعه إلا أنت فامنعه...

ارسل إليه عزرائيل يقبض روحه وهو هناك.. لا تدعه يكمل، كأنه ينبش قبور الشهداء كى يبيع عظامهم.. إننى أرى الحسين يموت من جديد.. يذبحه الفجار وهو عطشان.. وأمام أهله.. آل بيت النبى ﴿ﷺ﴾.. وأرى كل جيوش المسلمين تجرجر أذيال الهزائم.. رايات لا إله إلا الله محمد رسول الله منكسة.. ها هو ذا أبو جهل يخلفه عبد الله بن أبى يخلفه يزيد بن معاوية يخلفه أنور السادات.. بالإنكسارات المسلمين عبر تاريخ جريح مضمخ بالدم.. أحاول أن أقنع نفسى.. أن تاريخ المسلمين كان فيه ما هو أسوأ.. أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة ماتوا قتلى.. وأن علياً.. علياً.. ظل مائة عام يُلعن فوق المنابر.. وأن المسلمين فى الأندلس ظلوا مائتى عام يسحقون ويحرقون وتأكل الوحوش أجسادهم..

وبالرغم من ذلك استمر الاسلام والمسلمون.. فلا تقف هكذا فى هذه الشرفة تنعى الوجود بأكمله.

تتوسط الشمس السماء.. مازال يسرى عبر الأثير شعاعها كأن بعضاً منه لم يضئ للسادات اليوم طريقه..

مازال فى القشرة الأرضية هواؤها..

تنظر عيناى إلى اللاشئ.. إلى اللانهاية.

كأنى أخترق حاجز الزمان فأرى بداية الخليقة..

لا شئ إلا الله....

يخلق الكون فى ستة أيام.. آلاف الملايين من الأعوام تمر.. ويعصى آدم ربه بالغواية فيهبط إلى الأرض.. لو لم يهبط لما كنت أنا الآن هنا أعانى ما أعانيه.. كان يمكن أيضاً لأى واحد من أجدادى عبر مئات الآلوف من السنين أن تلتهمه الوحوش أو أن يتزوج من عاقر فتنتهى السلسلة التى استمرت فقذفت بى فى هذا المكان أعانى هذا الألم.. تترامى أمامى صفحة السماء محايدة، ويمتد الأفق.. كم يمتد؟ سرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية الواحدة، فكم يكون

فى الدقيقة والساعة واليوم وكم يكون فى العام. مايقطعه الضوء فى العام يسمونه سنة ضوئية. أختلف العلماء حول عمر الكون بليون عام أو بليون بليون عام.. عبر هذا التاريخ كله.. وفوق هؤلاء الناس جميعاً.. هل تتخيل يامحمد عباس أن تستجيب القدرة الإلهية المهيمنة على ذلك كله لك أنت وحدك؟!

أترك مكانى فى الشرفة.. أدور فى غرف البيت كالمجنون.. أمام المرآة يصادفنى وجهى.. لا.. هذا وجه آخر.

وجه غريب..

وجه إنسان يختنق.. العينان اللتان لم تذرفا الدمع كأسا دم.. أتأمل ملامح الغريب كأننى أراه أول مرة.. الحزن ثقيل.. كأنك تأتى بعربة حمولتها عدة أطنان فتضع فوقها ملايين الأطنان.. أحس بالدوار..

يا أيها الألم

سرقت هويتى فأنت مزيف

لست الألم

لأننى أنا الألم.

إن كان الواقع هكذا فأنا ألفظه. وإن كانت قوانين الطبيعة والسياسة والجغرافيا تقبل أن يحدث ذلك فأنا أسحب اعترافى بها.. وأدلف إلى عالم نصفه جنون ونصفه أحلام يقظة.. تصل الأخبار إلى جمال عبد الناصر وهو جسد ميت فى قبره فيتحدى قوانين الوجود ويصحو.. نفاجأ به فى القصر الجمهورى وعلى شاشات التليفزيون المطفأة، وينبعث صوته من أجهزة المذياع المغلقة وينادينا فنذهب إليه.. ملايين وملايين أحياء وموتى.. ويتقدمنا فنذهب جميعاً إلى فلسطين.. نكتسح اليهود بنيران الغضب واليأس والمعجزة.. ونقبض على أنور السادات هناك ويقف يرتجف أمام عبد الناصر.. فيحكمنى فيه.. فأصدر حكمى أن يحاكمه كل من ذبحت مشاعره اليوم.. وأن يصدر حكمه فيه وأن تنفذ الأحكام منفردة.. حُكماً حُكماً.

لكن جمال عبد الناصر مازال ميتاً ولم يتحد قوانين الوجود ولم يصح.. فلأدلف إذن إلى عالم أقل جنوناً.

غضب هائل يجتاح العرب والمسلمين جميعاً.. الملوك والرؤساء يصدرون أوامرهم أن تتحرك جيوشهم نحو فلسطين.. آلاف الطائرات تنطلق وعشرات الآلاف من الدبابات وملايين الجنود.. يتصدر الملك فيصل جيش المسلمين الذى

يدك حصون اليهود دكاً.. ونصل إلى القدس بعد انتصار ساحق غذته ألف عام من المهانة والانتظار.. ونقبض على أنور السادات هناك ويقف يرتجف أمام الملك فيصل فيحكمنى فيه فأصدر حكمى بأن يحاكمه كل من ذبحت مشاعره اليوم وأن يصدر حكمه فيه وأن تنفذ الأحكام منفردة حكماً حكماً..

لكن جيوش المسلمين لم تتحرك وثبت أن العالم الجديد الذى دلفت إليه أشد جنوناً من سابقه..

أتصفح كتبى.. أين أنت ياكتب الدموع والألم.. وأعثر على كتب قد أخفيتها عن رجال الأمن فى المطار وأنا قادم من مصر.. ليست كتب جنس ولا فضائح ولا فجور ولا فساد وإنما كتب تتحدث عن جمال عبد الناصر..

وترثيه...

تنحدر الذكرى كالسيل...

٢٨ سبتمبر ١٩٧٠...

تتوقف المذبحة فى الأردن والجثث تغطى الشوارع.. بذل جمال عبد الناصر جهداً هائلاً وحزيناً وهو يرتق جرح الجسد العربى المأساة.. تهدأ أنفسنا اللاهثة ونحن نشعر رغم الأحزان بنوع من الفخر أن منحنا الله هذا الرجل الذى يستطيع أن يوقف النزيف.. أجلس فى غرفة الصالون فى قريتى وإذا بى أفاجأ بشقيقتى تدخل الّى مرتاعة:

ـكنت أريد أن أسمع أخبار الفلسطينيين لكن نشرة الأخبار لم تذع.. المذياع يذيع قرآناً باستمرار..

اختلج قلبى رعباً.. حدثنى عقلى بالكارثة لكن قلبى رفض..

نجلس والمذياع بيننا ويخيم علينا صمت كخيوط العنكبوت المتشابكة بألف فكرة وفكرة..

******

فقدت مصر وفقدت الأمة العربية وفقدت الإنسانية جمعاء جمال عبد الناصر.

******

الآن[1]

الآن وأن تنام عميقاً تسكن فى جنبيك الثورة ترتد الخطوات..

---

(١) مقتطفات من «القادم عند الفجر» لمحمد الفيتورى.

تعود الخيل مطأطئة من رحلتها مغرورقة النظرات..
الآن يقيم الموت سرادقه العالى يتدفق كالأمطار على كل الساحات..
الآن يكون الحزن عليك عظيماً والمأساة تدوس على جثث الكلمات..

تحملنى أمواج الأحزان فى الصباح للقاهرة فأغرق فى بحر دموعها... النساء يتشحن بالسواد والرجال ينتحبون... ألم مروع طاغ ذاهل والناس كاليتامى.. إنشقت الأرض عن ملايين فى القرى والمدن على الطريق إلى القاهرة ثم فى القاهرة نفسها كأنه يوم الحشر.. يهد الحزن قواهم.. تتردد الكلمات فى نواح مجهد حزين.. ياجمال نام وارتاح واحنا نكمل المشوار.. لا إله إلا الله عبد الناصر حبيب الله.. سنبكيك حتى الموت..

وفى يوم الجنازة كان المشهد الذى لم تشهده مصر وربما العالم قط.. من مجلس قيادة الثورة بدأت جنازته.. وفود أكثر من خمسين دولة تعزى.. استحكامات الأمن تحاول السيطرة على الجماهير.. ولكأنما تجمعت قوة الشعب عبر آلاف السنين والتى حاول جمال عبد الناصر أن يطلقها بعد طول كبت.. إنطلقت هذه القوة الخارقة فإذا بها تهدم كل استحكامات الأمن كما تهشم شاحنة ضخمة علبة ثقاب.. تعجز وفود المعزين عن الحركة فيعبرون النيل فى القوارب ويصل النعش الذى يحمل الجثمان إلى مكانه الحقيقى.. بين أفراد شعبه.. وتتعالى صرخات الأحزان ممزقة القلوب وأجواز الفضاء.. يحاول المذيعون نقل وقائع الجنازة.. بحر من الدموع.. لايستطيع معظم المذيعين نقل شئ سوى البكاء مع الباكين.. يتشنج بعضهم ويصرخ.. ويحاولون نقل نبض الجماهير لكن إلى من؟

كانت مصر كلها هناك...

كانت الجماهير تسير بلا اتجاه..

وثمة أغنية وداع تتردد على الألسن لايعرف أحد حتى الآن من ألفها ومن لحنها:

الــوداع

الـوداع ياجمـــال.. يــاحبيب المـــلايين.. الوداع
ثـورتـك ثـورة كفـاح عشتها طول السنين.. الوداع
أنت عايـش فـى قلوبنـا يـاجمـال الملايين.. الوداع
أنت ثـورة.. أنت جمـرة نذكرك طول السنين.. الوداع
أنت نـوارة بلـدنـا واحنـا عذبنـا الحنين.. الوداع

أنت ريحانة زكية لأجل كل الشقيانين.. الوداع
الوداع ياجمال ياحبيب الملايين.. الوداع

●●●●●●

يامحبوبى[٢]

حين صحوت على صوت الناعى
كانت صورتك تطل على مخدع أرقى
وتكذب صوت الناعى
وتشبث دمعى بعيونك
أتحدث طول الليل اليك
وجهك ينحنى ثقتى بحياتى
من لم يذرف قبل اليوم دموعاً يبكى اليوم عليك.
حتى القاتل والسارق ذاباً فى توبة حزن بين يديك.

●●●●●●

وتفجرت صفحات الصحف والمجلات بالمراثى:
ورأيت جارى فى قطار الليل يبكى وحده ويضيع فى ليل المدينة[٣]
يتمزق الصمت الحدادى الكئيب على انحدار قطارنا
لاندرى غداً ماذا يكون وكيف تشرق شمسه فينا ولست على المدينة.
كنا نفتش عنك فى أنحائها.
متطلعين كأنما فى شرفة سنراك تظهر.
أو من الراديو تصيح بملئ صوتك ساخراً مما ادعاه المدعون.
أو أن انساناً سيخرج هاتفاً فى الليل.. عاد إلى الحياة..
لكن أضواء الصباح تسللت من خلف قاهرة العز ولم تلح للناظرين..
فإذن هو النبأ اليقين..
واناصراه..
ورأيت فى الطرقات قاهرة سوى الأخرى تفجرت المصيبة عن مداها..

---

(٢) مقتطفات من أقوى من الألم: محمد الجيار.
(٣) مقتطفات من: الرحلة ابتدأت: أحمد عبد المعطى حجازى.

خرجت إليك مع الصباح كأنها مادت مرة أخرى تموج بما تخبئ فى حشاها بتواثب الأطفال فوق الأمهات الباكيات.. وتحمل الأجيال أجيالا.. وتتفجر المدينة..

بحر من الحزن المروع.

آه. كم جيل من الجدات تمتلئ السماء بهن يمطرن المدينة بالمراثى وهى تمشى فى فتاها.

هذا حصانك شارد فى الأفق يبكى.. من سيهمزه إلى القدس الشريف..

ومن الذى سيؤمنا فى المسجد الأقصى..

واناصراه..

هذا حصانك شارد فى الأفق يبكى

والمدائن فى حديد الأسر تبكى...

هل مت.. لا(٤)

بل عدت حين تجمع الشعب الكسير وراء نعشك

مصر تعيش..

مصر تعيش.. أنت إذن تعيش

فأنت بعض من ثراها

ويكتب نزار قبانى:

قتلناك ياجبل الكبرياء

وآخر قنديل زيت يضئ لنا فى ليالى الشتاء

وآخر سيف من القادسية

لماذا قبلت المجئ إلينا

فمثلك كان كثيراً علينا

ويكتب الدكتور عبد العزيز كامل:

«لقد كان جمال عبد الناصر يعيش الإسلام فى نفسه.. فى زهده وتواضعه، وفى إعادة الدين إلى بساطته، وإلى تطبيقه فى حياته اليومية على نفسه وعلى الناس، كان متخففاً فى طعامه، طاهراً فى بيته وشرابه وأهله.. كان الإسلام عنده اسعاد الناس».

وكتب عبد الرحمن الشرقاوى:

(إنه الرجل الذى تلخصت فيه أحلام أمة بأسرها. الزعيم الذى ارتبط اسم

(٤) مقتطفات من: الحلم والأغنية: صلاح عبد الصبور.

الوطن باسمه كما لم يرتبط اسم وطن بزعيم من قبل.. المعلم الذى عمَّر الوجدان بالثقافة والقيم الفاضلة. الأب الذى ملأ القلوب الخائفة بالأمن.. الرائد الذى فجَّر من الجوانح عزة الكبرياء.. رجل الدولة الذى فرض على العالم هيبة العرب).

وكتب خالد محمد خالد أن الأجنة تبكيه فى بطون أمهاتها.. وكتب الشيخ شعراوى.. وكتب يوسف ادريس ونجيب محفوظ... و... و... و...

يضيق الحصر بما كُتب..

وأقرأ.. وأقرأ.. وأقرأ...

أطفأت التليفزيون لكن أجهزة الجيران تنقل مراسم استقبال السادات فى اسرائيل.. الآن أبكيك ياجمال عبد الناصر كما لم أبكك يوم موتك.. الآن تموت.. رغم قصائد الشعراء ونواح الملايين تموت.. رغم القسم بأن نسير على خطاك. نقتلك.. نقتلك بما هو أقسى من السم الذى أشيع أنك قد قتلت به.

أدرك الآن وجهاً من وجوه الحزن القومى عليك والتى حار فى تفسيرها العالم.. لم يكن الحزن من أجل فقدان شخصك.. لكن الحزن الأكبر الذى يمتد فى التاريخ ويوغل.. أنك كنت أنت من انتظرناه طويلاً ليثأر لنا ممن أذلونا عبر التاريخ وليبوئنا من الدنيا المكان الذى نستحق.. وحدة عربية من المحيط إلى الخليج.. أمة عربية واحدة.. مجد عسكرى حضارى لاينسحق الفقراء ولا البسطاء فيه.

الآن لا أبكيك وحدك.. بل أبكى فيك انتصار معاوية واستشهاد الحسين وضياع بيت المقدس وآلاف السنين ذاق فيها العرب الذل على أيدى خونة الداخل والخارج.. أبكى فيك مدرسة كل يوم وألف مصنع.. أبكى فيك السد العالى وتأميم قناة السويس ومجانية التعليم.. أبكى فيك مالا أستطيع أن أحصره.. أبكى فيك أحمد عرابى ومحمد عبيد.. أبكى فيك الإسلام الذى كنت تريد أن تقبل عثرة مسلميه.. أبكى فيك مايحدث الآن من خيانة وردة.

أقلُّ من عشرة أعوام مرت على موتك..

أوحشنى صوتك ووجهك.. فهما حرام فى مصر ومعظم العالم العربى. تباع شرائط تسجيل خطبك سراً.. أما فى مصر.. فإننى أبحث عن تلك الوجوه التى بكتك فلا أجد إلا القليل.. من الكتاب أقل القليل من صمد.. أما الباقون فحاولوا قدر جهدهم أن يدمروا تاريخك تدميراً.. كان أنور السادات على رأسهم.. ولقد وعد كيسنجر قبل ذلك أن يقضى على أسطورة جمال عبد

الناصر... وها هو ذا يحاول.

الآن أحمد الله أنك مت.. فقد كان موتك مجيداً فى سبيل أمتك العربية كلها وهى ترنو إليك كأمل فى خلاصها.. وودعتك شعوب العالم العربى كله بل والعالم الثالث كما لم تودع زعيماً من قبل.

الآن أحمد الله أنك مت..

كان يمكن أن تكون الأمور أسوأ بكثير.. المالطية موجودة والخديوى موجود والاسكندرية موجودة والأسطول السادس موجود.. وكان يمكن اذن أن تتكرر مأساة عرابى بحذافيرها وتكون أنت الآن حياً فى سجونهم.

وأرى بعين الخيال ماحدث مع أحمد عرابى يحدث معك ويدخلون زنزانته فى الظلام صارخين:

ـ ياعرابى أما تدرى من نحن؟!

ـ لا..

ـ موسى أغا وثروت أغا وحسن أغا يابن الكلب ياخنزير.. ويبصقوا فى وجهه ثلاث مرات[٥].

وأراك بعين الخيال بعد عشرين عاماً وقد أفرج عنك وأنت شيخ مهدم. تواظب على الصلاة فى مسجد مولانا الإمام الحسين.. وذات يوم وأنت خارج من المسجد يقابلك خالد محمد خالد[٦] فيصرخ فيك:

ـ هل أنت جمال عبد الناصر الخائن؟!

وترد عليه:

ـ يابنى أنا جمال عبد الناصر المصرى.

فيبصق فى وجهك..

فتذهب إلى دارك وتلزمها حتى الموت[٧].

إلا أننى أستقطر عبرة التاريخ المرة.. أن من لعن علياً يلعن جمال عبد الناصر، ومن سب الحسين يسبه، ومن خان أحمد عرابى يخونه..

٥ـ الواقعة حدثت مع أحمد عرابى وكان الأغا هو إبراهيم التتونجى.

٦ـ فوجئت الأجنة التى بكت عبد الناصر فى بطون أمهاتها بنفس الكاتب ـ خالد محمد خالد ـ يكتب رسالة عن لسان جمال عبد الناصر من أعماق الجحيم.

٧ـ الواقعة تاريخياً صحيحة.. وكان الشاب هو اسماعيل لبيب وهو شاب متحمس زيفوا وعيه.. وكان عضواً فى الحزب الوطنى.

آجل ياجمال عبد الناصر..

فمن كانوا يقفون أمامك أقوياء يعارضونك هم الذين يدافعون الآن عنك، والجرذان التى كانت تتوارى أمام هيبتك لم تكن تتورع اليوم أن تفعل بك مافُعل بأحمد عرابى.

ليت سبابهم لك كان يسنده المنطق..

ليتهم سبوك من أجل الديمقراطية حقاً..

وليتهم سبوك من أجل كرامة الإنسان حقاً..

وليتهم سبوك من أجل هزيمة ١٩٦٧..

وليتهم سبوك لأنك عجزت عن توحيد العرب.

كان كل ذلك يمكن أن يكون منطقياً ويستوجب أن ننجح نحن فيما فشلت أنت فيه.

واننى لا أنكر سلبيات خطيرة فى نظام حكمك.. لكننى أضعها فى اطارها الموضوعى. متذكراً قبل كل شئ أنك إن كنت قد قهرت حرية النصف فى المئة فقد رفعت ظلماً تاريخياً رهيباً عن الأغلبية الساحقة من أبناء شعبك.

لن يضيع من ذكرياتى وجه ذلك الفلاح وهو يصرخ فى رمز الباشا القديم:

ـ إنت فاكر نفسك إيه.. كلنا ولاد تسعة.. احنا خلاص بقينا فى عهد جمال عبد الناصر.

ليت هجومهم عليك كان موضوعياً. إذن لأمكن اثراء تجربة الثورة.. ولأمكن الحفاظ عليها من الموت.

هل تتخيل ياجمال عبد الناصر أن صحف أمريكا وبريطانيا وفرنسا أنصفتك أكثر مما أنصفتك صحفنا القومية.. وهل تتخيل أن التليفزيون الأنجليزى يعرض أفلاماً تشيد بك لايجرؤ التليفزيون المصرى على اذاعتها.

لم يكن الهجوم عليك هجوماً على فرد.. فمهما بلغت عظمتك كفرد لم تكن تستحق تكريس كل هذه الأقلام لطعنك لكن الهجوم كان تخديراً لشعب كنت قد أيقظته تمهيداً لاغتياله. كان الهجوم إذن على الشعب لا عليك.. على الأمل والحلم وعلى مجد نستحقه لكننا حرمنا منه. لم يكونوا يطعنونك أنت، بل كانوا يقتلون الأمل فى قلب مصر والعرب والمسلمين فى أنهم يمكن أن يقفوا يوماً أمام العالم فى تحد وكبرياء وكرامة.. كان الهدف أن تكون ليبيا عدوة وسوريا عدوة واسرائيل صديقة.. وكان الهدف أن يعود المصرى (والعربى) فلاحاً (أو بدوياً)

ذليلاً، ويعود الباشا من جديد فى صورة عصرية تحت قبعة أمريكية أو قلنسوة اسرائيلية.

ها هم أولاء السادة يصلبون سبارتاكوس من جديد ويبالغون فى الانتقام كى لا يجرؤ بعد ذلك على تقليده عبد فيحاول استثارة الهمم ونيل الحرية ورفض العبودية. ويرسخون فى الأذهان أن الوطنية والشرف والمبادئ أصبحت قيماً مرادفة للموت والصلب وأنه من الحكمة لكى نعيش أن نتخلى عنها جميعاً لنستمر فى الحياة عبيداً.

كان سبارتاكوس هو جمال عبد الناصر. وكان العبيد الذين وعدهم بالحرية هم نحن لكن ثمة فارق هام هو أن السادة القدامى قاموا بصلب سبارتاكوس وإرهاب أتباعه بأنفسهم، أما السادة الجدد فقد وجدوا عبيداً يلبون رغبتهم فى صلب الزعيم نيابة عنهم. والمذهل حقاً أن بعض المخلصين من أبناء هذه الأمة مثل بعض تيارات الاخوان المسلمين والوفد قد جهلوا أو تجاهلوا هذه الحقيقة... انهم لا يصلبون جمال عبد الناصر وإنما أنفسهم وأمتهم.

كانت الأغلبية تهاجم عن جهل بالحقيقة..

لكن قدراً لا بأس به كان يهاجم عن خيانة وعن تورط..

وكانوا للمأساة يتهمون من يتصدى لهم بأنه يهاجم مصر..

ها هو ذا التاريخ يعيد نفسه..

وها هو ذا الفاجر يزيد يتهم الإمام عليا والإمام الحسين بالخروج على الإسلام.. لكن القلب الدامى بالألم لاينسى قمماً شامخة وقفت وحدها أمام طوفان الخيانة وعلى رأس هذه القمم محمد حسنين هيكل وأحمد حمروش وحسين الشافعى.

* * *

هاهو ذا السادات فى اسرائيل، ليس أسيراً ـ وليته كان ـ وإنما صديقاً.. أما أنت يا جمال عبد الناصر فقد مت اليوم.. وها هو ذا حصانك شارد فى الأفق يبكى من سيهمزه إلى القدس الشريف.

ذهب السادات إلى القدس بدونه وبدوننا.

وكما مات المنفلوطى يوم موت سعد زغلول فلم يجد من يشعر به أحد: ضاع وسط الركام الهائل.. موقف وطنى عظيم لاسماعيل فهمى حين تقدم باستقالته احتجاجاً ورفض محمد رياض تولى الوزارة مكانه..

وشخصت الأبصار إلى قيادات مصر..
هذا هو أوانك يا عز الدين بن عبد السلام..
وهذا هو أوانك يا حسن العدوى..
وهذا هو أوانك يا شيخ شعراوى.
بعد هزيمة عرابى أخذت المحكمة الفاجرة التى شُكّلت كلها من خونة تحاكم أبطال مصر..
وسألت المحكمة الشيخ حسن العدوى:
ـ هل أصدرت حكماً بعزل سمو الخديوى توفيق.. فأجاب، والحراس حوله والطاغوت فى قصره والانجليز فى البلاد:
ـ أنا لم أصدر هذه الفتوى لأن أحداً لم يطلبها منى ومع ذلك لو قدمت لى هيئة المحكمة الآن فتوى بعزل توفيق لما ترددت فى توقيعها.. وليس فى وسع هيئة المحكمة وأعضائها مسلمون أن تنكر أن الخديوى توفيق مستحق للعزل لأنه خرج على الدين وعلى الوطن..
فافعلها الآن ياشيخ شعراوى لتنضم إلى الرعيل العظيم من الفقهاء والمجاهدين.. اعزله من الحكم.. شارك الأزهر وشيوخ الفكر واعزلوه وهو هناك.. سيطيعك الشعب كله فافعلها لوجه الله ولأجل دينك.
لكنه لم يفعلها.
بل ليته سكت.
بل انه أخذ يقارنها بصلح الحديبية.
فآه من القلب المسحوق يامصر[1].
أين الباقون اذن..
أين الكُتّاب..
أين الجيش الذى حارب وانهزم وانتصر واستشهد أبطاله.
أين الشعب.
يا للخزى ويا للعار.

١ـ لم يكتف الشيخ الجليل بذلك فقد بلغ به الأمر أن صرح بأنه سجد لله شكراً بعد هزيمة ١٩٦٧.. ولا تعليق!!. كان الشيخ أيضاً من كبار المؤيدين للتدخل الأمريكى فى أزمة الخليج.. ولعله سجد شاكرا أيضا حين أبيد جيش العراق.

وأنا.

مواطن.. فرد.. وحيد.. ماذا أفعل..؟

أتخيل نفسى فى ساحة مديرية طنطا سنة ١٨٨٣

أتخيل نفسى البطل يوسف أبو رية وقد حكم عليه بالاعدام لاشتراكه فى ثورة عرابى.. تحت المشنقة يسألونه عن رغبته الأخيرة قبل أن يموت.

ويجيب البطل

ـ أريد لمصر الاستقلال.. أى شئ يرضينى وقد قطعتم آمالنا.. لكن اليوم لكم وغداً لنا.

أجل.. اليوم لكم.. وغداً لنا.

يطاردنى احساسى بالخزى والعار، من ملامحى يعرف السائرون فى الشوارع أننى مصرى وأخال عيونهم تخترق ظهرى وأصابع تشير:

ـ هذا هو الخائن.

أخجل من نفسى..

أتجنب السير فى الشوارع.. كيف أسير وأنا أحمل عارى..

أختنق وأحترق..

لكن كثيراً من الزملاء يؤيدون أنور السادات..

وألمح وجهاً آخر للفاجعة.. أننا وصلنا إلى درجة الدمار النفسى التام الذى يغلق أمامنا أبواب المستقبل جميعاً.. إلا أن نبيع الشرف والدين والتاريخ.

ويأتى توفيق البسام صديقى السعودى الذى كنت أحبه.. والألم يعتصره.. ولكنه كالآخرين يؤيد السادات ويهتف بى: ماذا تنتظر.. أن ندخل معهم فى حروب نفنى فيها جميعاً.. علينا أن نحنى قامتنا أمام اعصار الزمان حتى تمر العاصفة. يا توفيق أمامنا ألف سبيل وسبيل آخر.. لكننا بهذه الفاجعة نعود مائة عام إلى الوراء.

الأيام الأخيرة فى السعودية.. يأتى صديقى د. عبد الكريم الخطيب أحد الذين ذبحهم ما فعله السادات.. يحاورنى وهو يحاول اقناعى ألا أعود إلى مصر.. لماذا لاتبقى هنا وتحصل على الجنسية السعودية. سوف تعانى أنت آلام الغربة والوحدة والحنين إلى الوطن. ولكنك ستحمى أبناءك وأحفادك إلى ماشاء الله من أن يعانوا ألماً كذلك الذى تعانيه أنت اليوم.

لا ياعبد الكريم.. لا أستطيع..

هى مصر.. الأمل والألم.. الجرح والبرء..
أخلع روحى ولا أتخلى عن رداء جنسيتها..
وفى أوائل يناير ١٩٧٨.. أعود إلى مصر.

* * *

«سنقصر رجال الدين وتعاليمهم على جانب صغير جداً من الحياة، وسيكون تأثيرهم وبيلاً وسيئاً على الناس حتى أن تعاليمهم سيكون لها أثر مناقض للأثر الذى جرت العادة أن يكون لها»

من بروتوكولات حكماء صهيون

مسرح مجلس الشعب

الشيـخ الشعـراوى!!

المبرة.. ١٩٧٨

شيخ بلا أمل.. مثخن بالجراح واليأس وأعود..

لا أطيق قراءة صحيفة أو سماع مذياع..

كان الدكتور جامع فخوراً بالجهد الكبير الذى بذله فى تطوير المستشفى ونحن نمر عليها، وسألنى عن رأيى فأبديت إعجابى، إلا أننى انتقدت بشدة الاسراف الشديد فى تجهيز المستشفى، حيث لا حظت أنه لايمكن استغلال أكثر من ١٠٪ من كفاءة الأجهزة الموجودة.

وكان الشيخ الشعراوى يزور الدكتور جامع كثيراً..

كان الشيخ شعراوى يمثل قيمة كبرى ارتفعت من مستوى الواقع إلى عالم الرمز الرحب الذى يمثل جيلاً رأى فيه أضواء الحكمة الإلهية المتجسدة فى كلماته.. وفى عام ١٩٧٦ كان هو الذى أم الحجيج ودعا لهم فى عرفات فتبوأ مكانة على رأس العالم الإسلامى كله.. وتكون لدى الناس أمل أنه قد يكون كالمهدى المنتظر، أو مسيح آخر الدنيا الذى يجمع المسلمين بعد أن شرذمهم الزمان فيوحد كلمتهم ويملأ الدنيا عدلاً ونوراً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً.

لكنه يهبط من على عرفات إلى كرسى الوزارة فيجهض أمل وينطفئ بريق.. وتتتابع تصرفاته فإذا هو سياسى قدير بمفهوم السادات لا بمفهوم الدين..

وكنت ما أزال فى السعودية فذهبت إلى مكة وقابلت الشيخ محمد الغزالى.. ذهبت إليه مع صديق لى كان من مريديه: الدكتور عبد الكريم الخطيب..

ـ خبرنى يا شيخنا عن الشيخ الشعراوى، ويتحدث الشيخ الجليل فتقطر كلماته حكمة جليلة:

ـ الشيخ شعراوى عالم لغة وهو مفسر جيد للقرآن إلا أن من حوله يستغلونه لمأربهم وضد مبادئه وإن كان هو لا يشعر بذلك.. ليس كمحمد توفيق عويضة والذى يفعل ذلك بوعى كامل منه وبعلاقات محددة بينه وبين الآخرين[1].....

وانطلق الشيخ الجليل غاضباً هادراً يتحدث عن أحوال الاسلام والمسلمين.

وبعد ذلك حدثت أحداث رهيبة فى مجلس الشعب وكان للشيخ الشعراوى ضلع كبير فيها. وقد يبدو فى الأمر أننى أخرج عن سياق الأحداث لكننى أدخل فى صلبها فدعونى أحكى لكم عن تلك الأيام الرهيبة السوداء من أيام العار الذى عشناه..

حاول النائب عادل عيد طيلة عام كامل أن يقدم استجواباً فى مجلس الشعب للشيخ شعراوى عن انحرافات محمد توفيق عويضة لكن تصرفات رئيس المجلس سيد مرعى كانت تعرقل ذلك من جلسة إلى أخرى.. وفى جلسة ٧٧/١٢/٣٠ حضر الشيخ شعراوى وأبدى استعداده لمناقشة الاستجواب لكن المجلس أجل ذلك إلى جلسة ٧٨/١/٢٢.. وفى ذلك اليوم لم يحضر الشيخ شعراوى ووقف حلمى عبد الآخر يعتذر عنه لأنه سافر إلى السعودية صباح اليوم فى مهمة علمية تستغرق أربعة أسابيع.. ولقد كان الشيخ شعراوى موجوداً بالمجلس فى اليوم السابق وكان يعلم أن الاستجواب بعد ساعات.. ولكنه لم يبلغ أحداً بعزمه على السفر.. وبعد ثلاثة زيام فقط.. ظهرت الحقيقة سافرة ومخزية.. فقد تبين أن الحكومة قد كذبت على مجلس الشعب وأن الشيخ شعراوى لم يسافر.. وإنما استجاب لنصيحة وجهت إليه بالاعتكاف وعدم حضور جلسه مجلس الشعب يوم الاستجواب.. وفى يوم ٧٨/١/٢٥ كان الشيخ شعراوى يظهر فى التليفزيون والصحف مصاحباً أنور السادات وهو يفتتح مقصورة جديدة للسيدة زينب..

أراك بعين الخيال يامولانا الشيخ تصلى وتدعو أمام السيدة زينب..

ثم أراك بما وهبه الله لك تخترق ستائر الزمان فتجول فى غياهبه..حيث ترى بعينى قلبك صاحبة المقام الجليل فى ذلك الموقف الرهيب والجليل.. وهى تمر مع نساء أهل البيت على مكان المعركة الأخيرة.. فترى ضمن ماترى اهل البيت

---

(١) لقد خففت كثيراً من صراحة حديث الشيخ الجليل.. لأسباب كثيرة.. أننى لم أستأذنه فى النشر ومنها أنه ربما يكون قد نسينى ونسى الواقعة.

شهداء فى ساحة الوغى وأتخيلك يامولاى الشيخ تسمع سيدتى وسيدتك وهى تهتف من قلبها المكلوم:

يـــامحمــــــداه يــــامحمــــداه صلى الله عليك وملك السماه
هــــذا حسين بـــالعــــــراه مـــــزمـــــــل بـــالــدمــــــاه
متقطـــــــع الأعضــــــــاء يـــــــامحمـــــــــــــــــــــداه
وبنــــــــاتــــــــــــك ســـبــــــايـــــــــا
وذريتــــــــــــــــــك مقتــــــــــــــــــــلة

وأراك يامولاى الشيخ بعد أن سمعت تبكى.. وأراك تلقى خلف ظهرك عرض الدنيا الزائل.. طالباً وجه الله.. لكن كيف استطعت يامولاى الشيخ أن تقف هذا الموقف الطاهر فى هذا المكان الطاهر وقد تركت كذبة معلقة كذبوها باسمك.. ألم تكن هذه الكذبة منكراً عليك أن تغيرها بيدك وبلسانك وبقلبك؟.. لكنك لم تغيرها..

فدعنى أسألك إذن: لو رجع بك الزمان نيفا وثلاثمائة وألف عام: أمع الحسين كنت تكون أم مع يزيد..

* * *

يامحمداه..
بناتك سبايا وذريتك مقتلة
وأتباعك حتى اليوم أيضاً سبايا.. ويقتلون

* * *

ثم تحددت جلسة ٧٨/٢/٢٨ لنظر الاستجواب.. وفاجأ الشيخ شعراوى المجلس بطلب تأجيل الاستجواب أسبوعين حتى تتمكن النيابة الادارية من انجاز تحقيقاتها مع محمد توفيق عويضة واعترض عادل عيد على ذلك لأن الاستجواب ليس متعلقاً بانحرافات توفيق عويضة بل بمسئولية الشيخ شعراوى السياسية كوزير عن تراخيه فى استخدام سلطاته للتصدى لهذه الانحرافات.. وقف الشيخ شعراوى ليقول أنه يعانى موقفاً نفسياً عنيفاً فهو ممزق بين واجبه كوزير مسئول متضامن مع الوزارة فى مسئولياتها وبين موقفه كانسان يجد

* المضابط تتكلم.. ممارسات نائب معارض فى مجلس الشعب المصرى ١٩٧٦ - ١٩٧٩. عادل عيد.

صادقة ولا يستطيع أن يفعل شيئاً..

مولانا.. أنت تدخل معهم لتعلمهم الحق لا لتتعلم منهم الباطل.

ونجح الشيخ شعراوى فى تأجيل الاستجواب ثلاثة أسابيع.

وفى يوم ١٩٧٨/٣/١٥ أحالت النيابة الإدارية توفيق عويضة إلى المحكمة التأديبية العليا وفى يوم ٣/٢٠ بدأ الاستجواب بالتحدث عن ظاهرة توفيق عويضة وليس عن مجود انحرافاته.. عن الجهات العليا والمسئولين الكبار الذين أضفوا الحماية عليه ومكنوه من هذه التجاوزات دون أن يتعرض لأى مساءلة.. وقوطع النائب عادل عيد بطريقة مستفزة ومستمرة وهدده سيد مرعى رئيس المجلس أن يؤجل الاستجواب.. وقام فؤاد محيى الدين وحامد محمود وحلمى عبد الآخر بدورهم المرسوم.. فإذا تحدث عادل عيد عن واقعة تتناولها تحقيقات النيابة الادارية قيل له أنها بين يدى القضاء فلا ينبغى له أن يسبق حكمه.. وإذا تحدث عن واقعة جديدة لم تتناولها تلك التحقيقات قيل له أنه لاينبغى أن يوجه اتهاماً بغير دليل.. واستمرت المقاطعات حتى خير عادل عيد رئيس المجلس بين أن يحميه ويمكنه من مواصلة الاستجواب أو أن يطوى أوراقه وينصرف وصرخ نائب (أجل نائب!) اسمه محمد فاروق الدربى: أن الاستجواب أصلاً خطأ.. وأيده سيد مرعى فى أن الاستجواب خطأ.. لكنه طلب الاستمرار.

وأخذ عادل عيد يتحدث عن الموظف محمد توفيق عويضة المُرقّى إلى الدرجة الوظيفية الخامسة فى سنة ١٩٦٥ وخلافاً للقانون يصدر قرار جمهورى (أجل قرار جمهورى!) بترقيته فى نفس العام إلى الدرجة الثالثة بمرتب ١٠٠ جنيه شهرياً برغم أن مربوط هذه الدرجة هو ٥٧ جنيهاً. وفى سنة ١٩٧٠ طلب سامى شرف ترقيته إلى الدرجة الثانية فاعترض الوزير لأن القانون لايسمح فصدر قرار جمهورى فى يناير ٧١ بترقيته إلى نائب وزير وأجبر الدكتور الذهبى وزير الأوقاف على أن يفوض سلطاته إلى محمد توفيق عويضة.

وصرخ رئيس المجلس:

هل قلت أجبر؟.. أرجو أن يكون كلامك مؤيدا بالأدلة.

وأجاب عادل عيد:

- لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسوءكم..

وقدم عادل عيد مايفيد ضمنا مسئولية رئاسة الجمهورية عن هذا الاجبار.. ثم تحدث عادل عيد عن أوجه الفساد والانحراف لتوفيق عويضة واستعرض

القوانين التى تجعل من وزير الأوقاف مسئولاً عن هذه الانحرافات التى تحدث فى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية والذى يرأسه توفيق عويضة. وانتقد عادل عيد عدم قيام الشيخ شعراوى بواجبه الوظيفى كوزير فى التصدى لجهاز يتبعه كما انتقد بمرارة طلب الشيخ إلى رئيس مجلس الوزراء «بأن يتبع هذا المجلس جهة أخرى غيره يرى ولاة الأمور أنها أولى بها» وصرخ عادل عيد:

ـ أنا لا أفهم ماهى الجهة التى يتبع لها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية وسيادتك وزير الأوقاف وشئون الأزهر.. أيتبع وزارة الخارجية أم المخابرات العامة مثلاً وما المقصود بولاة الأمور.. من هم هؤلاء.. اننى أعتقد أنك تقاعست عن استخدام سلطاتك التى خولها لك القانون ولقد كنت أنتظر من الشيخ شعراوى أن يكون له موقف يتفق مع موقفه كعالم جليل من علماء المسلمين.. من رأى منكم منكراً فليغيره.. انى لا أرضى منك فى موقعك أن تنكر بقلبك ولسانك.. وإنما كنت أود أن تنكره بيدك.. فإذا تصدى بعد هذا لك متصد لعرقلة قراراتك فقد أبرأت ذمتك إلى الله وإلى الناس.

واستمر عادل عيد فى طرح استجوابه:

ولقد أرسل السيد وزير الأوقاف يشكو محمد توفيق عويضة إلى رئيس الوزراء.. فلماذا أرسل ليستأذنه وهو السلطة المختصة والقانون معه بنص المادة رقم ٦٠ والتى تجيز للوزير المختص ايقاف الموظف عن العمل إذا اقتضت مصلحة التحقيق ذلك.. فلماذا لم توقفه ولم تمنحه أجازة مفتوحة أو تنتدبه للعمل بالوزارة.

ولقد رد رئيس الوزراء على الشيخ شعراوى بأنه وزير مسئول وعليه اتخاذ ما يراه فى حدود سلطات وظيفته بالنسبة لتوفيق عويضة وهو أحد مرؤوسيه.

إن الشيخ شعراوى قد قصر فى أداء الواجبات الدستورية لمنصبه الوزارى، بأن رأى الفساد والانحراف يتفشيان فى جهاز تابع للوزارة.. وأن رئيس هذا الجهاز هو مجرد موظف ادارى يتمرد على سلطان الوزير ويتحدى الدولة فلا يملك السيد الوزير إزاء ذلك كله إلا أن يجأر بالشكوى لله عز وجل ثم للسيد رئيس الوزراء.. وحتى بعد عام كامل من توليه منصب الوزارة. وأغلب الظن أن الشيخ شعراوى ما كان ليتحرك لولا طلبات الاحاطة والاستجواب التى قدمت فى هذا الشأن، واستطرد عادل عيد بعد ذلك مبيناً أوجه العبث بالمال العام والتى مارسها توفيق عويضة.. وطالب بمحاسبة المسئولين الكبار الذين مكّنوه من ذلك لأن

تحقيقات النيابة لن تعيد إلى البلاد الأموال التى أهدرت. وبيّن عادل عيد كيف كان توفيق عويضة يتفاهم مباشرة مع رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية من خلف وزير الأوقاف، وعاتبه لأنه لم يتصد لذلك.. وذكر أن رئيس الجمهورية يرسل توفيق عويضة للخارج فى مأموريات لايعلم الشيخ شعراوى عنها شيئاً، بالرغم من أن القانون ينص على أن سفره لابد أن يتم بموافقته كوزير...

وتحدث عادل عيد أيضاً عن أن توفيق عويضة كان يمنح موظفى الجهاز المركزى للمحاسبات مكافآت مقابل عملهم عنده فى المساء.. وهم الذين يراقبون عمله فى الصباح!! كما أن الجهات الحكومية كلها كانت عاجزة أمامه لنفوذه ولنفوذ من يضفون الحماية عليه. وعندما بدأ عادل عيد يعرض لانحرافات خطيرة لمحمد توفيق عويضة، فقد تصدى له فؤاد محيى الدين مطالباً بألا يذكر اتهاما لم يثبت بتحقيق قضائى، وتناوب البعض مقاطعة النائب المستجوب فصرخ النائب أحمد ناصر:

ـ هذا ارهاب، لماذا ترهبون السيد العضو المستجوب، اننا نريد أن نعرف كيف تسير الأمور فى هذا البلد؟ وأنكم اما أن تأكلوا الاستجواب، واما أن ترهبوا العضو المستجوب. اتركوه يتكلم بحرية.. اتركوه يتكلم.. واسمعوا وافهموا.

رئيس الجلسة: ماهذا الكلام يا أستاذ أحمد ولمن توجهه؟

أحمد ناصر: لماذا ترهبوننا؟

رئيس الجلسة: ليست هذه طريقة عمل.. عضو يصرخ وآخر يضرب بيده على الخشب.

فؤاد محيى الدين: احترم الجلسة يا أستاذ أحمد.

أحمد ناصر: ما هذا الارهاب.

رئيس الجلسة: لايمكن أن نستمر بهذه الطريقة وإذا استمر الزميل أحمد ناصر بهذه الطريقة فسوف أطبق عليه اللائحة. وأخذ الكلمة الدكتور محمود القاضى الذى ناشد فى مرارة رئيس المجلس أن يمكن عادل عيد من مواصلة الحديث دون مقاطعة مقرراً أنه مهماً كانت بلاغته وفصاحته لارتبك الأمر معه وما أمكنه الاسترسال فى الحديث وفند حجج المقاطعية بقوله أنهم يقاطعونه عندما يريد أن يتحدث عن خطأ الشيخ شعراوى كوزير فهو من وجهة نظرهم لم يخطئ فإذا أراد أن يثبت ذلك بذكر الوقائع التى كان الشيخ شعراوى يستطيع التصدى لها ومنع

الانحراف قلتم له إنه ليس من حقه التعرض لقضية أمام النيابة وإذا أراد سرد انحرافات ليست أمام النيابة قلتم له أنه ليس من حقه أن يهاجم أحداً إلا بحكم قضائى.. إذن فكيف يمكن أن يبين أن الوزير مخطئ(٢)..

وتوالى المتحدثون فى محاولة مستمرة لتشتيت أفكار عادل عيد. وأخيراً طلب رئيس المجلس منه أن يواصل. إلا أن الشيخ عاشور محمد نصر قام قائلاً:

- لدى كلمة تتعلق باللائحة.

ورفض رئيس المجلس السماح له بالحديث فهتف مرة أخرى:

- لائحة.. لائحة..

ورفض رئيس المجلس:

فصاح الشيخ عاشور:

- إننى من هذا المكان أطلب أن يحضر السيد رئيس الجمهورية جلسة خاصة ليسمع من ممثلى الشعب المخالفات التى تحدث فى هذا المجلس.

وغضب رئيس المجلس وقال موجهاً حديثه لمسجلى الجلسة:

- لن يثبت هذا الكلام فى المضبطة فلم يسمح للعضو بالكلام. واستنكر الشيخ عاشور كلام رئيس المجلس فقال له الرئيس:

- ماهذا يا شيخ عاشور؟ هل أول نشاط لك فى هذا المجلس منذ عام ونصف تبدأه بهذه الصورة.

وأخيراً.. أخيراً جداً سمح لعادل عيد أن يقول بعض ماعنده من انحرافات صارخة وثراء غير مشروع.. محذراً من أن تتردى الأوضاع فى مواقع أخرى من جهازنا الحكومى بتكرر ظاهرة توفيق عويضة(٣).

واختتم كلمته بقوله: لا أجد ما أختتم به كلمتى هذه إلا أن أقول لكم مقالة رسول الله (ص) «إنما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، فوالذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

---

(٢) اتبعت هذه الطريقة بحذافيرها ازاء الاستجواب الذى قدمه المجلس المحلى لمحافظة الغربية حول انحرافات التأمين الصحى فى جلسة ٨٥/٢/٢٧.

(٣) لم يكن هذا مجرد تحذير وإنما نبوءة تحققت بالكامل بعد ذلك. كانت انحرافات التأمين الصحى على نفس نمط هذه الانحرافات وأفدح. ولم يكن التأمين الصحى فقط بل ظاهرة شملت البلاد كلها.

وجاء دور الشيخ شعراوى ليرد على الاستجواب فكان همه الأول الدفاع عن يزيد بن معاوية ـ بلا طلب للعفو ـ أقصد أنور السادات.

راح فضيلة الشيخ يشيد بأنور السادات ويقدح فى جمال عبد الناصر.. ودوت القاعة بالتصفيق والتهليل للشيخ الجليل الذى كان يمثل فى نظر الكثير نور عقل أمته وضياء ضمير دينها.. وإزاء الاستحسان فاقت حماسة الشيخ كل حد فاندفع يقول:

ـ والذى نفسى بيده لو كان لى من الأمر شئ لحكمت الرجل الذى رفعنا تلك الرفعة وانتشلنا مما كنا فيه إلى قمة من لا يسأل عما يفعل[٤].

وصرخ الشيخ عاشور:

ـ مفيش حد فوق المساءلة.. لنرع الله.

لكن رئيس المجلس أمره بالصمت.

وصاح الشيخ صلاح أبو اسماعيل:

ـ لقد كذبت يارجل.. لقد كفرت.. لقد كدت تكفر فاستغفر الله فهذه الصفات لاتمنح لبشر، إنما اختص بها المولى سبحانه..

ورد الشيخ شعراوى موجهاً حديث للشيخ عاشور:

ـ أنا أعرف بالله منك.

وانتهى الاستجواب بتوجيه الشكر للشيخ الشعراوى.

وفى اليوم التالى كانت بعض النفوس تغلى بالغضب فهل وصل تشجيع الحكومة للفساد إلى هذا المدى.. وإلى هذا الحد تلغى المصالح الضيقة عقول الناس وضمائرهم.

وفى هذا اليوم حدثت حادثة يقصر خيال أى مبدع مسرحى فكاهى عن إخراجها، فقد كانت المناقشة تدور حول سوء حال رغيف الخبز الذى يعانيه الشعب، وفوجئ الأعضاء بوزير التموين يشير إلى بعض الموظفين إشارة خاصة فيدخل أحد العمال إلى قاعة المجلس وهو يحمل عليها أرغفة خبز جيدة الصنع كى يبرهن على كذب من يدعون سوء صناعته.. لكن هذا الوزير وأمثاله لا يريدون وجه الله ولا تصديق الناس وإنما يرجون رضاء أنور السادات.

---

(٤) المرجع هنا ليست الصحف القومية ولا عشرات المذكرات التى نشرت حول الموضوع فقط وإنما مضابط مجلس الشعب.

واستبد الغضب بالشيخ عاشور فقال:
ـ إنى خارج ده مش مجلس شعب.. ده مسرح مجلس شعب.
ورد رئيس مجلس الشعب: امش اطلع برة..
وقرر رئيس المجلس إحالة الشيخ عاشور إلى اللجنة المختصة، كما قرر ألا يحضر الجلسة حتى يتعلم النظام ويحترم المجلس، وهتف الشيخ عاشور:
ـ ليسقط أنور السادات..
وصرخ رئيس المجلس بارتياع:
ـ ماذا تقول؟
وكرر الشيخ عاشور:
ـ ليسقط أنور السادات..
وصرخ رئيس المجلس:
ـ تنعقد اللجنة المختصة فوراً وتقدم تقريرها إلى المجلس للنظر فى عضوية الشيخ عاشور.
وصرخ عضو اسمه سماح صبيح (أؤكد للقارئ الذى قد يشك أنه كان عضواً بهذا المجلس) لابد أن يقوم المجلس الآن بمحاسبة الشيخ عاشور وإلا سأقوم بمحاسبته[٥]*.
وبدأت مباراة ساخنة بين أعضاء كلهم من نوع المسمى سماح صبيح تمجيداً فى أنور السادات وتأليهاً له.. ولماذا لا يؤلهونه خلف شيخهم وامامهم.. وتخلى حزب الوفد عن عضوه فى البداية وتبرأ منه.. وبلغ الأمر حداً لا يتخيل حدوثه فى مجلس شعب فى الدنيا بأسرها عندما اندفع أحد الأعضاء يتهم الشيخ عاشور بأنه رجل دين يسير وراء الغواية مدافعاً عن نساء ساقطات[٦].
وكانت الأصوات العاقلة قليلة على رأسها صوت الدكتور محمد حلمى مراد.
لكن العجلة كانت تدور بقوة خارقة واتخذت الاجراءات لفصل الشيخ عاشور من المجلس.. واكتشف الدكتور حلمى مراد تزويراً فى هذه الاجراءات طرح

(٥) * المقصود بمحاسبته «ضربه».

(٦) لم يقتصر تردى الأمور على ذلك. فمثله سوف يحدث بعد ذلك وأفدح.. وفى عهد طهارة اللسان سيقف وزير صارخاً فى شيخ جليل وعضو بمجلس الشعب تحت قبة البرلمان: «اطلع برة ياسافل يامنحط ياوسخ..» كان هذا هو مجلس الشعب وكان هؤلاء هم الوزراء.. وكنا نحن أبرياء من الجميع.

تفاصيله على المجلس مقرراً أن هذا يعتبر جناية تزوير فى أوراق رسمية وطالب بالتحقيق فى ذلك.

وتحدث حافظ بدوى (أو حافظ الميثاق كما سموه فى العهد الناصرى) ومحمد عبد الشافى وحسين المهدى والدكتور السيد على السيد وعبد الرحيم الشريف وفتحى الوكيل... اندفع كل هؤلاء مهاجمين الدكتور حلمى مراد والشيخ عاشور إلا أن العضو مدكور أبو العز قال غاضباً:

ـ الدكتور حلمى مراد أثار نقاطاً فى منتهى الأهمية تمس هذا المجلس ولا يمكن أن تمر ببساطة.. فإن كان ماقيل صحيحاً فهو مأساة وإن كان خطأ فهو أيضاً مأساة. ولذلك أطالب باجراء تحقيق دقيق لمصلحة هذا المجلس.

إلا أن كلمات حلمى مراد ومدكور أبو العز راحت مع الرياح هباء واستمرت الاجراءات وبدأ الشيخ عاشور يقول كلمته الأخيرة:

وهنا يجب أن أعتذر للقارئ على قطع تسلسل الأحداث لبرهة كى نزيد معرفة بالشيخ عاشور.

كان الشيخ عاشور واحداً من عشرات الآلاف الذين تمتلئ بهم مساجدنا كخطباء. لم يكن بطلاً ولا زعيماً ولا حتى متميزاً عن أقرانه. إلا أنه كان ذو لسان حاد. وقد بدأ الناس يعرفونه فى ديسمبر ١٩٦٨ عندما عقد المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى والذى حضره جمال عبد الناصر. ووقف الشيخ فى المؤتمر قائلاً:

أن هناك فراغاً دينياً ليس منسوباً للطلاب فقط، وإنما منسوب لكم جميعاً وعلى رأسكم السيد جمال عبد الناصر. وفى التطبيق الاشتراكى ترى الذين يتكلمون عن الاشتراكية يأتى المحاضر راكب عربية طولها ٦ متر ولابس خاتم سولتير ويقول فى المحاضرة اربطوا الحجر على بطونكم للجوع.. جوع.. جوع.. الله يخرب بيتك انت خليت فيها جوع وانت مابتجعش ليه.. هو الجوع مكتوب علّى أنا.. هى الاشتراكية علّى أنا وعليك لأ.. ها نحن ياسيادة الرئيس نرى الفساد وقد دخل علينا المساجد.. والله تخش الست المسجد عندنا فى أبو العباس بالمينى جيب ولما تنحنى ينكشف المستور وتظهر العملية كلها... إلخ[7].

---

(٧) كان ذلك النقد الحاد يحدث فيما سمى بعد ذلك زمن الدكتاتورية والقهر. وكان رد جمال عبد الناصر عظيما ومقنعاً ويذكرنى ذلك بموقف السادات الهستيرى ازاء طالب وجه له نقداً خفيفاً، وبموقف السادات المجرح لزعماء المعارضة كإبراهيم شكرى وعمر التلمسانى. ولا أذكر ذلك للمقارنة بين جمال عبد الناصر والسادات فمجرد المقارنة إهانة للتاريخ والعقل والمنطق.

ويومها رفض الاحساس العام لشعب محافظ كالشعب المصرى كلمات الشيخ عاشور..

ومرت الأحوال عادية حتى سنة ١٩٧٦ وفوجئ الشعب المصرى بعشرات الحكايات حول بطولة الشيخ عاشور الذى تصدى لجبروت وفساد عبد الناصر.. كانت حكايات ملفقة كلها هدفها أن ينجح الشيخ عاشور فى الانتخابات لكى يكون ركيزة فى حكم السادات، لكن الشيخ عاشور لم يفهم قواعد اللعبة عندما نجح فلم ينضم إلى حزب مصر، بل انضم إلى حزب الوفد الجديد.. لذلك ينبغى أن يضرب وبقسوة.

بدأ الشيخ عاشور يلقى كلمته الأخيرة..

«لم يسألنى حتى الآن لماذا فعلت مافعلت.. »

«لقد قلت لحافظ بدوى أترضى أن ينام كلبك جائعاً عارياً.. والله لقد نام جيرانى جياعاً عرايا ورأيت ذلك بنفسى».

«ولقد طالبت بحق الشيخ كشك فى الكلام ولم يسمعنى أحد».

«اننى سعيد.. والله لست حزيناً.. ولكننى سعيد لأننى عرفتكم وعرفتمونى ولست باكياً على العضوية.. انكم تقولون أنى قد فقدت الثقة والاعتبار والحمد الله أننى بقيت على دينى وضميرى فهما أغلى شئ فى الوجود عندى.. انهم بدلاً من أن يذهبوا لإغلاق الخمارات قد ذهبوا لإغلاق ميكروفون الشيخ كشك.. (مقاطعة مستمرة.. تتكرر طوال الحديث).

ويصرخ الشيخ عاشور: «لقد جعلتمونى مجرماً وهذا حرام عليكم فاسمعوا دفاعى» «ان رئيس الجمهورية ينادى بنبذ الأحقاد فكيف أنبذ الحقد عندما أرى هناك من يدفع ١٠٠٠٠٠ جنيه يدفعها خلو رجل وهناك من لايجد ١٠٠ مليم يتعشى بها أليس هذا هو مجتمعنا. اننا نواب الشعب يجب أن نعالج هذه الموضوعات.

إن الفقراء يعاملون فى المستشفيات دون ضمير ولقد حدثتكم قبل ذلك عن الرجل الذى جاء من محافظة المنوفية بخطاب إلى معهد القلب فى امبابة، وقد وصل هذا الرجل إلى المعهد متأخراً ولم تكن معه نقود فقيل له اذهب إلى مستشفى امبابة، وفى المستشفى قيل له أن الخطاب موجه إلى معهد القلب وليس إلى المستشفى. وفى الصباح وجد هذا الرجل ميتاً أمام باب المعهد.

«ولقد تكلمت عن مشكلة المواصلات وقلت أن ادارة النقل العام تعاملنا كحيوانات».

«وتحدثت عن مشكلة الاسكان وقلت أن الناس ينامون فى الشوارع وحتى الذين تتعرض منازلهم للهدم يوقّعون على تعهد بمسئوليتهم عن حياتهم باعتبار أن ذلك أفضل من الطرد فى الشارع لأنهم يتعرضون لهتك أعراضهم. حرام عليكم. حكموا ضمائركم، فهناك يوم سوف يسألكم الله فيه.. هناك عصابات متحكمة يجب أن نوقفها عند حدها[٨]».

« لقد مُنعت من الكلام وأنا رجل ضعيف ولست فى قوتكم.. ولكن الله أكبر من كل شئ».

«ولقد غضبت من فضيلة الشيخ شعراوى على الرغم من أنه وزيرى، ولكن الله عندى أهم من كل شئ.. غضبت منه أن وقف هنا وجعل من أنور السادات إلها مع الله..».

وهنا وقف الشيخ شعراوى يدافع عن نفسه.. لكنه لم يعتذر عما قاله.. مقرراً أن ما قاله لايحمل المعانى التى فهمها منتقدوه الذين لا يفهمون أسرار اللغة العربية وقال:

ـ لا يمكن لمثلى وأنتم تعرفون من هو.. ان يزل هذه الزلة أمام الله سبحانه وتعالى.. وقد قصدت أنه لايسأل عما يفعل فى الأمور التى يرى فيها مصلحة لايجب أن يعلنها للناس لأن ذلك قد يفسد الهدف منها.. وإن كان السيد العضو عاشور محمد نصر قد فهم منى غير ذلك فأستغفر الله مما فهم.. أستغفر الله مما فهم.. أستغفر الله مما فهم..».

وأضاف الشيخ شعراوى:

ـ «إننى أحب أن تفرقوا بين رأى يقال هنا بحرية وبين حكم يصدر بتهور.. فكلمة ليسقط هل هى رأى أم حكم[٩] انها حكم ونتيجة.. فهل أنتم مكلفون

---

(٨) بهذه الجملة القصيرة لخص الشيخ البسيط مأساة مصر كلها. لكن من يحاسب من بعد أن رفع الشيخ شعراوى المسئول الأول إلى مصاف من لا يسأل عما يفعل.

(٩) كانت الأغلبية الموافقة دائما فى ملجس الشعب قد وقعت فى مأزق خطير عندما بين حلمى مراد وآخرين أن كل دساتير العالم تعطى الحصانة لرأى العضو داخل البرلمان، وذكرت أمثلة عديدة على ذلك، وكاد المجلس يتراجع عن فصل الشيخ عاشور.. لكن الشيخ شعراوى استعمل مهاراته اللغوية كى ينقذ المجلس من المأزق، فقد شرح أن ما قاله الشيخ عاشور ليس رأياً تنطبق عليه الحصانة الدستورية وإنما حكم لا حق له فيه ولا حصانة له، ولم يكن هذا رأياً للشيخ شعراوى وإنما حكم منه. ولم يكن من حقه ولا من حق الحقيقة عليه أن يصدره.

بأن تحكموا على الناس أم بأن تروا رأيكم..».

ورد الشيخ عاشور قائلاً:

ـ «إن الذى حدث فى ذلك اليوم قد أثر فىّ لدرجة أننى لم أنم ليلتها ومن الجائز أن أكون رجلاً جاهلاً لم يتيسر لى فهم كلام الشيخ محمد متولى الشعراوى.»

«اننى لا أسمح لنفسى أبداً أن أسمع أن السادات لا يسأل عما يفعل... لأن السادات من الناس وسيد الناس سيسأل عما فعل.. والسادات ليس أفضل من الرسول محمد بن عبد الله.. إن الله هو وحده الذى لا يسأل عما يفعل..

وواصل الشيخ عاشور حديثه فانتقد الفساد المستشرى فى المجتمع. وأن القانون يطبق على الفقراء فقط أما ذوو السلطان فلا قانون عليهم وضرب مثلاً بواقعة تتعلق بالعضو الدكتور السيد على السيد الذى هتف فيه:

ـ انتظر يا شيخ عاشور.

الشيخ عاشور: ـ قل طظ يا شيخ عاشور.. لقد قلتموها قبل ذلك.

الدكتور السيد على السيد: ـ إنى أتركها لك كى تقولها أنت.

وغرق المجلس فى ضحك عميق..

وواصل الشيخ عاشور حديثه فتساءل عن قواعد المعاشات الاستثنائية.. إن على شفيق مات فى لندن فوجدوا فى بيته مليون جنيه «فكّة» فكم يبلغ رصيده فى البنك.. إنه لم يكن وزيراً، بل كان مديراً لمكتب عبد الحكيم عامر.. إذن فما مقدار الذى يوجد لدى الوزير.. مليون جنيه فكّة وبرغم هذا يمنح معاشاً استثنائياً.. هذا أمر لايمكن قبوله، اننا نحصل على اشتراكات مجانية ونركب الدرجة الأولى المكيفة بينما يتسطح المجندون القطارات.

وهذه هى العوامل التى أدت إلى انفعالى وآخرها تمثيلية الطابونة والعيش.. وكان ذلك مهزلة فى مجلس يجب أن يحترم.. ولذلك عندما قلت هذا مسرح كان يجب أن تلتمسوا لى العذر. اننى لا أقول ذلك لكى لاتسقط عضويتى.. إنى ماشى طبيعى.. كان لابد أن يصل صوتى وليكن مايكون.. وهذا هو الذى كان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..».

وبعد الحديث الدامى للشيخ عاشور تحدث الكثيرون.. وتبارى الجمع فى اظهار الولاء لأنور السادات وفى رغبتهم سفك دماء الشيخ..

وتحدث حلمى مراد كعقل للجيل وأستاذ جليل ذهب ليشارك قمما شامخة

تصوغ تاريخ مصر القادم.. فإذا به يجد نفسه وباللذهول مرغماً أن يلقى محاضرة يتناول فيها بديهيات استقر عليها غيرنا منذ مئات الأعوام.. صعب أن تشرح نظرية صعبة كنظرية النسبية حتى لعلماء.. لكن الأصعب أن تحاول اقناع كبار أن الأرض كروية وأن حاصل ١+١=٢.. ماذا تفعل إن لم يقتنع من أمامك.. هل أصرخ مثل أحمد ناصر: اسمعوا وافهموا.. حتى لو أطاعوه فلا فائدة.. بالنسبة لهم أن يكون ١+١=٢ زيداً ولن تكون الأرض كروية، وبرغم هذا فقد أخذ حلمى مراد يحاول أن يرد المجلس عن قرار خطير وهو اسقاط العضوية عن الشيخ عاشور، ولقد كان حديث الدكتور حلمى مراد استمراراً لنهج فكره وعظمته التي لم تتبدل مع الزمان، ولم تتغير. وتحدث أيضاً عبد الفتاح حسن ومحمود القاضى الذى قرر بأن المجلس لم يقرر اسقاط العضوية عن أعضائه الذين ضبطوا يحاولون تهريب بضائع من جمرك بور سعيد فكيف يسقط العضوية عن الشيخ عاشور. كما تحدث خالد محيى الدين وممتاز نصار فعارضوا جميعاً اسقاط العضوية.. لكن أصواتهم ضاعت هباء فى ذلك الخضم الهائل من أصوات أخرى كان من بينها صوت نوال عامر[١٠].

وأخذت الأصوات على اسقاط عضوية الشيخ عاشور.. ووافق ٢٧٩ عضواً على اسقاطه ولم يوافق ١٦ عضواً وانسحب أعضاء حزب الوفد الجديد.

وانتشرت شائعة قد تكون حقيقة وقد تكون مجرد شائعة كاذبة.. وهى إن صدقت وإن كذبت كارثة.. فقد قال البعض أن مادفع الشيخ عاشور ليهتف بسقوط أنور السادات لم يكن بسبب انفعاله ضد رئيس المجلس أو الشيخ شعراوى فقط، فقد كان يمكن لهذا أن ينتهى بتصريحه أنه مسرح لا مجلس شعب وبانصرافه.. لكنه بينما يهم بالانصراف قام أحد أعضاء مجلس الشعب عن الحزب الحاكم بفعل فاضح معه داخل المجلس فكان ذلك السبب المباشر فى انفلات أعصابه وهتافه بسقوط أنور السادات.

وإن صدقت الشائعة فهى كارثة تدل إلى أى حد بلغ الانهيار.. وإن كذبت فليس هناك إلا احتمالان: أولهما أن الحزب الحاكم أطلقها لإهانة الشيخ عاشور والتنكيل به والنيل منه كرامته.. وثانيهما أن أحزاب المعارضة أطلقت تلك

(١٠) نائبة الانفتاح التى ستستصدر من مجلس الشعب بعد أعوام قانوناً يفيدها كما يفيد الدكتور محمود جامع. ولقد نجحت مع الآخرين فى اسقاط عضوية الشيخ عاشور بينما لم تنجح الدولة بقضها وقضيضها بعد ذلك فى اسقاط عضوية نواب المخدرات أو المتهمين بتهم جنائية.

الشائعة تشهيراً بالحكومة.. وأى من الاحتمالين كارثة.. ذلك أن فلسفة الشائعة تتلخص فى أنها شئ غريب لكنه قابل للتصديق بسبب شواهد سبقته أو أنها تقدم للواقع تفسيراً أكثر منطقية من التفسيرات المعلنة.. وبهذا تكتسب الشائعة أهميتها كعنصر موضوعى قد يفوق بيانات السلطة فى دقته وتعبيره عن حقيقة الواقع البشع.

وكان هذا هو مجلس الشعب الذى يشرع لمصر ويقنن لها.. ولعل هذه الأحداث تكفى كمجرد نموذج لما كانت الأحداث تسير فى مصر عليه. ولقد كنت حريصاً على أن أنقل للقارئ هذه الصورة كى أكشف عن بعض جذور الانهيار والفساد.. لم يكن محمد توفيق عويضة فقط.. وإنما كانوا آلافاً وآلافاً، كل منهم يمثل ساداتاً صغيراً.. ولم يكن الشيخ عاشور فقط وإنما كانوا آلافاً وآلافاً من البسطاء الذين أرادوا كلمة حق بسيطة ونظيفة، لكن العجلة الدوارة لمجتمع يسيطر عليه الفساد سحقتهم. وبعدد هذه الآلاف والآلاف قصص حدثت فى مصر على أعتاب القرن الواحد والعشرين فساد هائل.

أبمثل هذا يرجى صلاح لمصر.. أبمثله نأمل فى مستقبل أقل سوءً..

لكن يبقى تساؤل جوهرى: إذا بلغت القيم هذا الحضيض وإذا فسدت الضمائر وخربت الذمم وتعطل العقل وغاب الضمير.. ماهو دور إنسان مثلى.. ماذا يستطيع أن يفعل.. يندكُّ الجبل فهل أستطيع أن أقيمه؟

لا أملك إلا أن أردد خلف سيد وسيد شباب أهل الجنة الامام الحسين بعد أن ظهر له من أهل الكوفة ماظهر:

«كل ما حُمّ نازل.. عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أئمتنا».

أجل يا سيدى ويا مولاى..

«كل ما حُمّ نازل. عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أئمتنا».

أمارس عملى كجراح ثم أخصائى أشعة بمستشفى المبرة.

تستفزنى أجهزة بمئات الآلاف من الجنيهات معطلة وثمة جهاز لتحليل أصوات القلب (كارديوبان) وهو جهاز أبحاث قد يفيد فى مستشفى جامعى لكنه لم يستعمل قط فى مستشفى المبرة. أما جهاز التنفس الصناعى والذى كانت تنقصه وحدة الانذار وهى وحدة هامة جداً فهى تصدر رنيناً مزعجاً إذا ما نقصت كمية الهواء التى يضخها الجهاز فى رئتى المريض العاجز عن التنفس والذى توصل قصبته الهوائية على هذا الجهاز بصورة محكمة لاتسمح بتسرب

الهواء كما يصدر رنين جهاز الانذار فى حالة حدوث خلل من أى نوع كانقطاع التيار الكهربائى مثلاً ففى مثل هذه الحالة يختنق المريض لعدم وصول الهواء إلى رئتيه. فيصدر الجهاز رنينه.. العالى ويكون العلاج فى مثل تلك الحالة فك توصيلة الجهاز فوراً وترك المريض يتنفس من الهواء العادى وإن كان قادراً على ذلك أو توصيل جهاز صناعى يدوى إن كان المريض غير قادر على التنفس وقد سألت العاملين بغرفة الانعاش إن كان هذا الجهاز قد عمل قبل ذلك فأخبرونى أنهم استعملوه مرة واحدة مع مريض كانت حالته خطيرة.. وانقطع التيار الكهربائى.. ومات المريض مختنقاً.

ولقد حاولت حصر الأجهزة التى استوردت ولم تستعمل قط أو استعملت لشهور قليلة ثم توقفت عن العمل لعدم وجود قطع غيار فتجاوز ثمنها ثلاثة ملايين جنيه. وفى تقرير الجهاز المركزى للمحاسبات ذكر على لسان إدارة التموين الطبى المسئولة عن استيراد هذه الأجهزة أن ثمن الأجهزة الراكدة التى استوردت خلال عام واحد يتجاوز مائة ألف جنيه.. وكان الرقم الحقيقى أكثر من ذلك بكثير. لكن مندوب الجهاز المركزى للمحاسبات كان يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى بور سعيد فى فندق الهوليداى ان فى ضيافة المسئولين عن التأمين الصحى.

نفس ما كان يحدث مع محمد توفيق عويضة..

وأتساءل: فى بلد تقصمه الديون عندما يكون المهدر فى مستشفى اقليمى صغير مبلغ ثلاثة ملايين جنيه فكم يبلغ المهدر على مستوى المحافظة.. وكم يبلغ المهدر على مستوى الجمهورية.

لكن الانفتاح كان يأكل كالسرطان فى جسد الأمة وعادت توكيلات الشركات الأجنبية، وقنن الاختلاس فتحولت الرشوة إلى عمولة.. ولم تعد العمولة عاراً.

ماكان يحدث فى المبرة كان يحدث على مستوى الدولة كلها.. لكن الأرقام كانت أكبر حتى كونت مليارات الديون فى النهاية.

ولم يكن ما يجرى مجرد أحداث معزولة وإنما كان السم يسرى فى جسد المجتمع كله.. ولم يبق عضو لم يتأثر بالفساد.. وحتى فى الأماكن التى لا يوجد بها مفسدون فقد كانت عجلة المجتمع الدوارة بالفساد كفيلة بافسادهم أو بعزلهم كى يتولى بدلا منهم مفسدون.

إن حديث الشيخ عاشور فى مجلس الشعب والذى أراد به أن يلخص معاناة

الناس فى مصر كلها يصلح للتعبير عن معاناتهم فى كل مكان بها. كان مرتب العامل فى المتوسط عشرين جنيهاً وكان متوسط مرتب الممرضة بالحوافز والمكافآت ثلاثين جنيهاً ولم يتحرك هذا المرتب منذ عشر سنوات إلا فى أضيق الحدود، بينما ارتفع كيلو اللحم من ٣٥ قرشاً سنة ١٩٧٠ إلى ٣٥٠ قرشاً (ثم ثمانية جنيهات بعد ذلك).. وتضاعف سعر البيضة ١٥ مرة.

أما مشكلة المواصلات فلم تتغير عما كانت عليه من سوء.. لكن مشكلة السكن كانت قد انفجرت بشكل رهيب بحيث أنها أصبحت وصمة عار فى جبين جيلنا وتخلى الشعب المصرى عن تقديسه للموت المتوارث عبر آلاف السنين فاقتحم المقابر كى يسكن فيها. وأباحت الضرورات المحظورات فتخلى الناس عن صفة أخرى طالما كانت لديهم مقدسة: وهى السلوك المحافظ فى العلاقات الاجتماعية، وضاعت فيهم قيم وانتهكت أعراض. ولم يكن يمكن أن تمر كل هذه الظواهر بمعزل عن العمل كقيمة.. فإن القيمة الأساسية للعمل أنه يوفر بعائده حياة كريمة.. ولقد كان الأمر كذلك فى بداية السبعينات. كان المؤهل المتوسط يوفر لصاحبه ١٥ جنيهاً شهرياً كافية لإيجار مسكن ولنفقات حياة متواضعة لكنها مستورة.. حد الكفاف مع الكرامة.. الآن لا كفاف ولا كرامة.. وتجاوز الأمر حدود الفقراء كى يمسك بتلابيب الطبقة المتوسطة بل وسحقهم سحقاً. إن الملايين من ذوى الشهادات الجامعية يحصلون على مرتب حوالى أربعين جنيهاً شهرياً بينما قفز إيجار الشقة إلى خمسين أو مائة جنيه ووصل خلو الرجل إلى عشرات الآلاف من الجنيهات[١١]. وانعدمت إمكانية الحياة أمام أجيال بأكملها. وصرخت ممرضة ذات مرة لم يعد أمامنا إلا الإعارة أو الدعارة.. وكانت تلخص أزمة مجتمع.. وكان هذا خللاً جسيماً فى العقد الاجتماعى فكيف تتوقع من الناس أن يتصرفوا بمقتضى المنطق إذا وضعتهم فى ظروف لا منطقية.. كيف يستطيع المواطن العادى بداية من العامل والفلاح حتى خريج الجامعة أن يعيش بدخله.. وهل يمكن أن تصمد القيم أمام ظروف ساحقة مجنونة كتلك.. بل هل يمكن أن يكون صمود القيم منطقياً.. إن الله نفسه أباح لعباده فى ظروف خاصة أكل الميتة. وزاد الطين بلة تلك الطائفة من السفهاء التى برزت فجأة فى المجتمع

(١١) فى عهد حسنى مبارك انتهت تقريباً مشكلة خلو الرجل فلم يعد هناك مساكن للإيجار أصلاً بعد أن أصبح معظمها للتمليك.

كمليونيرات، حدد البعض عددهم بما يزيد عن ربع مليون مليونير.. ولم تكن السلطة بقادرة حتى بكل فقهائها أن تقنع الناس أن الأغنياء الجدد ينطبق عليهم قول الله أنه يرزق من يشاء بغير حساب.. وإنما كان الناس يرون أن هؤلاء الأغنياء ينبغى أن يخضعوا لحد السرقة بل الحرابة.

وتوطدت العلاقات بين الحكم وهؤلاء الأغنياء الجدد بصورة مريبة.. كانت متشعبة فى البلاد كلها ويكفى رمزاً عليها علاقة أنور السادات وجيهان السادات برشاد عثمان.. وعلى رأس كل جهاز كان يوجد سادات آخر ورشاد آخر.. وضحايا.. ولم تعد العلاقة بين الأغنياء والسلطة تثر مجرد الريبة، بل استقر اليقين فى ضمير الناس أن السلطة تبيعهم وبثمن.

لم يكن العامل أو الممرضة فى مستشفى المبرة يفكر بكل هذه التفاصيل بالطبع، لكن ظلالها الدامية قد استقرت فى عقول الناس دونما حاجة لاستقراء علم الاقتصاد والتاريخ والاجتماع والقانون الجنائى.. لم يكونوا بحاجة إلى كل ذلك كى يفهموا الشمس ونورها. وكان رد الفعل الطبيعى هو التمرد.. كانوا قد تعودوا عبر دهور أن وظيفة الحكومة ثروة. كان الانسلاخ عن هذه العادة يحتاج إلى قرار بعد أن أصبح المرتب لايكفى لمجرد الحياة فى أحط صورها.. وكان الضياع لمثل هذا العامل أن يفصل من عمله.. الآن أصبح الضياع ألا يفصل.. وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد: أن يصبح أقصى عقاب تستطيع أن تلحقه بمرؤوسك شيئاً مرغوباً عنده.. عند هذه النقطة لابد أن يحدث الانهيار.. وهو ما حدث فى مستشفى المبرة.. وهو أيضاً ماحدث فى مصر.

لم تكن كل هذه المعاناه من نصيب العمال والممرضات فقط.. بل لقد سحقت الموظفين وشباب الأطباء وقادتهم إلى ذات المشاعر الساخطة المتمردة وليس ضد رئيس بذاته وإنما ضد ذلك الخلل الرهيب فى العقد الاجتماعى الذى جعل عملهم لا يوفر لهم الحياة والكرامة وكانت أقصى أمانى الجميع هى العمل بالخارج فإن لم يتيسر فالعمل الحر فى القطاع الخاص.

كنت أحاول أن أجد العزاء عن حالة الاحباط القومى المروع التى أعيشها ويعيشها جيلى ومثلما فعل صلاح عيسى كنت أفعل. كنت أراجع تاريخ بلادى أبحث فيه عن العزاء، وهرباً مثله مما وصفه بأنه حالة أشبه بحنون الاكتئاب أو الانتحار العقلى (عدت إلى تاريخ بلادى فى تلك الأيام الحزينة «بعد يونيو ١٩٦٧» أقرؤه بحب كما لم أقرأ طول عمرى. تجولت فى العذاب المصرى العظيم

عبر عصور ضارية فى القدم. وأحببت شعبى كما لم أحببه فى أى وقت. أطل فىّ وجهه المبتسم رغم عذابه الجليل والطويل فهدهد القلب المعانى وخفف بعض عذاب الروح، وأنبت شجيرة فى صحراء الآمال المحترقة.. سقاها بتاريخه الفذ والعظيم)(١٢).

كان عملى فى الجراحة يضيف العناء الخاص إلى العناء العام. فحياة جراح يتابع مرضاه بإحساسه فى حد ذاته ألم مخيف. أن ترى دائماً أناساً يمكن أن يدهمهم الموت فى أى لحظة. ترمقك عيونهم الذابلة آملة فى النجاة وفى الحياة.. وفضلاً عن هذا الألم فلم يكن عملى كجراح يترك لى الوقت الذى أريده لأجد فى طيات الكتب والفن عزائى.

كان لابد أن يحدث انفجار أو هروب فى اتجاه ما حتى لو كان نوعاً من التدمير الداخلى ربما نوع من الاحساس أن الوطن قد خسر الكثير وعلينا جميعاً أن نحس بفداحة الخسارة مثله.

وبقرار عبثى مفاجئ قررت التوقف عن عملى كجراح وترك الدراسة للدكتوراة فيها مهدراً سبعة أعوام من عمرى.

وفى أكتوبر ١٩٧٨ بدأت فى التحضير لدراسة ماجستير الأشعة.

كنت قد خبرت التعليم الجامعى لمدة سبع سنوات فى جامعة القاهرة وعرفنا نماذج شامخة من أساتذة الجامعات. ولم يكونوا قمماً فى الطب فقط وإنما فى الآداب والفنون والثقافة.

وكانت مفاجأة لى أن أرى مدى تدهور أحوال الجامعة حيث لمستها فى تجربتى الشخصية من معاناة بلا مبرر وقمع للطموح العلمى واذلال لطالب العلم أثناء دراسة الماجستير أو الدكتوراه.. ولم يكن الاذلال بقصد تحسين المستوى العلمى.. وإنما كان بغرض الاذلال فقط.. كان شيئاً مروعاً.. فالآباء يأكلون أبناءهم ولقد ترتب على ذلك تراجع المستوى العلمى كقيمة تحدد مستوى خريجى الدراسات العليا والتى يعين الأوائل فيها أعضاء فى هيئة تدريس الجامعة.. وكان هؤلاء الأوائل فى أغلب الأحوال أقارب لأساتذة آخرين أو لمراكز جديدة من مراكز السلطة. ولم تعد هذه المراكز مقصورة على السلطة العليا بالقاهرة.. وإنما كان أى ضابط مخابرات أو موظف بمكتب المحافظ أو أحد الأغنياء الجدد مركز

(١٢) مقدمة العمل الفذ لصلاح عيسى: الثورة العرابية.

قوة يثلم شرف التعليم الجامعى من أجله.

كان المرض الذى يدفع بالمجتمع للانهيار قد أصاب الجامعة أيضاً فانهارت قلعة حصينة طالما حافظت على التوازن الفكرى للمجتمع، وكانت بالنسبة له حكماً شريفاً ومقياساً صادقاً. لكن هذه الجامعة التى رفضت أن تمنح فاروق الأول ملك مصر شهادة دكتوراه فخرية قد منحتها بعد ذلك عشرات المرات لمن هم أسوأ منه. ولقد كان ذلك رغم فظاعته منطقياً مع مايحدث فى المجتمع ككل. لقد فقدت القيمة من أعلى. ولم يكن منتظراً من واحد كالسادات أن يختار وزراء أو رؤساء جامعات عظماء. لقد قفز الانتهازيون ليصبحوا رؤساء جامعات. واختار رؤساء الجامعات عمداء كليات على شاكلتهم فاختاروا رؤساء أقسام يريحونهم ووصل العطب إلى الجذور. ولم تكن الجامعة جسداً ميتاً، بل شهدت اختلاجات عنيفة ترتب عليها تبر كل من يقول لا بمنتهى القسوة والعنف.. فتبارى الباقون فى تقديم شرف الجامعة قرباناً على مذابح السلطة. وفقدت الجامعة مصداقيتها كهيئة مستقلة ومحايدة. ولم تعد قلعة من قلاع الفكر والحكمة.

ولأن السمكة تفسد من رأسها.. ولأن للفساد ثمناً فقد استمر تدهور الأمور بصورة مخيفة. كان رئيس الجامعة أو عميد الكلية الذى يزور مستنداً لصالح السلطة لايذهب إلى السجن وإنما كرسى الوزارة ومجلس الشعب.. ولم يكن العميد المزور بقادر على أن يواجه أستاذاً مرتشياً. بل ويفضله عن أستاذ عظيم. لأن أستاذاً عظيماً سيكون شاهداً حياً على حقارة الباقين.. أما عندما يكون الجميع ملوثين فلا أحد يخجل من أحد.. بل ولقد كان من المستحسن دائماً أن تكون التعيينات فى المناصب الكبيرة يشوبها خطأ ادارى كعنصر ضغط مستمر فإما أن يطيع وإما أن يطاح به. وانتشرت الرشوة والعمولات فى أعمال مالية ضخمة فى انشاء وتجهيز الجامعات. ولك يقتصر الأمر على ذلك، بل لقد امتدت الرشوة إلى الامتحانات.. ومن لامولى له من رجال السلطة فالمال مولاه.. ولقد شهدت بعينى رأسى نماذج عديدة تراوحت فيها رشوة الطالب للأستاذ من عدة مئات إلى عدة ألوف من الجنيهات وسألت أحد الأصدقاء من أساتذة الجامعة هل يمكن أن يحدث هذا.. فأجابنى أنه منتشر جداً وأنه لم يعد يقتصر على الطلبة فقط.. فعدد كبير من أساتذة كلية الطب يقوم بعلاج المرضى فى المستشفيات الجامعية الحكومية المجانية بعد الحصول على الثمن، وهذا الثمن على أى حال يعتبر رشوة.. كما أن تجارة المذكرات فى الكليات الأخرى كانت عملاً تجارياً

مربحاً ومخزياً.

وكان أمراً فاجعاً لم تقتصر الفواجع فيه على وجه واحد، بل كان لها ألف وجه ووجه، فالجسد يأكل نفسه.. ولم يعد هناك للأشياء منطق تسير عليه.. وبعد أن كان الأساتذة القدامى عمالقة فكر وعلم يربون أجيالاً تبنى الجديد على أساس قوى من خبرة القديم فقد أصبح الأساتذة الجدد والذين وصلوا إلى مناصبهم بوسائل عديدة ليس منها فى معظم الأحوال مستواهم العلمى عاجزين عن تقديم شئ لتلاميذهم من ناحية.. أما الناحية الأخرى فهى مخزية ومقززة لأن نتائجها لن تقتصر على هذا الجيل وحده، فهى أن هؤلاء الأساتذة يضنون بخبرتهم على تلاميذهم حتى لاينافسهم هؤلاء التلاميذ بعد ذلك فى العيادات الخاصة أو فى المناصب.. لم يكن ذلك مطروحاً على الاطلاق فى الماضى. أما الآن.. والأستاذ تالتلميذ جاهل فإنه يحتفظ لنفسه بالقليل الذى يعرفه...

وليست هذه الوقائع أحداثاً شاذة تمثل استثناء للقاعدة وإنما تمثل القاعدة نفسها ودونها استثناء. ولست أعرفها وحدى، بل يعرفها الجميع ويتسترون عليها كما تتستر الأسر الراقية على العلاقات الشائنة بين زوج وعشيقة أو زوجة وعشيق. الجميع يعرف ولا يستنكر حدوث الفعل نفسه لكنهم يستنكرون بتعال واشمئزاز الحديث عن الفعل أو الفضيحة معتبرين من يتصدى لذلك جلفاً لم يتعلم أصول الآداب والايتيكيت اللائقة بالمجتمع الراقى. وفى هذا الجو المسموم تحولت العلاقة بين الطالب والأستاذ (وأنا هنا أقصد طلبة الدراسات العليا على وجه الخصوص) إلى علاقة اذلال من الأستاذ وكراهية واحتقار وتربص من الطالب.. وامتلأت الجامعات بصراعات صغيرة مخجلة لكنها كانت ابناً شرعياً لعلاقة مريضة..

وذات يوم قابلت الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب رئيس قسم الأشعة السابق بالقصر العينى ورئيس جمعية الأشعة المصرية وواجهته بهذه المأساة: أن الشهادات الجامعية تباع وليس بمجرد الدروس الخصوصية بل بالرشوة الصريحة. وزد الرجل بمرارة: اننى اصدقك لكن كيف نستطيع اثبات ذلك، لن يعترف الراشى ولا المرتشى. وسألته عن السبيل الشريف للرقى العلمى فأجابنى بالسفر إلى الخارج. وبرغم أن اجابته ذكرتنى بكلمة مارى انطوانيت للجياع الذين لايجدون الخبز: (ولماذا لا تأكلون البسكوت) إلا أنها كشفت أمامى عجز التكنوقراط والخبراء مهما كانت عظمتهم وخبرتهم عن حل مشاكل غير منطقية.. وكان

طبيعياً أن هذا الأستاذ الكبير يبدى عجزاً كاملاً عن حل مشكلة الرشوة بين الطالب والأستاذ.

ولقد لمست فى أثناء دراسة الماجستير أبعاد المشكلة التى طحنتنى شخصياً. فلقد كنت دائما غير قابل للاذلال.. ومدركاً أن ثمة أشياء فى الانسان ليس لها ثمن لأنها أصلاً غير معروضة للبيع.. ولقد ترتب على ذلك أننى قضيت السنة الأولى للماجستير متجولاً بين أربع جامعات. فلقد كان خلف انتقالى القهرى من كل جامعة إلى الأخرى قصة يطاردنى فيها سادات آخر.. واستقر بى المقام فى جامعة المنصورة.. وصبيحة امتحان السنة الأولى للماجستير أيقظتنى زوجتى فى الصباح للذهاب للامتحان فحمدت الله أنها أيقظتنى من حلم مخيف.. فقد كنت جالساً فى لجنة الامتحان ففوجئت برئيس قسم الأشعة فى جامعة المنصورة ورئيس قسم الأشعة بجامعة طنطا وهما يجذبان منى ورقة الإجابة ويحاولان طردى من لجنة الامتحان.. وسط ذهولى فوجئت بسيدى أحمد البدوى يشير إلىّ بيمناه أن أستمر فى الإجابة.. وعندما ذهبت إلى لجنة الامتحان صدقت الرؤيا وأطعت سيدى أحمد البدوى.. وجاء مسجل الكلية ومراقب اللجنة يجذبان منى ورقة الإجابة لأن رئيس قسم الأشعة فى كلية طب طنطا كتب إلى زميله فى المنصورة أن أوراقى مزورة.. وأصررت على الاستمرار فى الامتحان مقرراً أن التزوير جريمة تتصرف فيها النيابة بعد ثبوتها وليس مجرد شبهة.. وكانت قصة طويلة مريرة ثبت فيها كذب الأستاذ وصدقى.. فأغلقوا الموضوع حتى لايمس زميلهم بسوء ووفقنى الله برغم ماصدفته وحصلت على ماجستير الأشعة.



سعد إدريس حلاوة

وفى تلك الفترة كان السادات يكمل صفقته لبيع شرفنا القومى فى كامب ديفيد..

لم يعد فى القلب مكان لنار ألم جديد تلفحه..

ولم يعد بالعين مزيد من الدموع تسفحه..

وزير الخارجية(١) يستقبل فى أثناء المفاوضات احتجاجاً، لكن الصفقة تستمر.. وأقول لنفسى لقد متنا فعلاً، فما يضر الشاة سلخها بعد ذبحها. فلقد أكمل هذا الرجل القضاء على تاريخنا عبر مائة عام. كان جمال عبد الناصر صورة محسنة من محمد على، أما أنور السادات فهو صورة طبق الأصل من الخديوى توفيق. لكنه لم يكن مطمئناً أن الشعب مات بعد فاستصدر فى استفتاء مخز قانوناً بسجن من يرفض اتفاقية كامب ديفيد.

الآن.. ١٩٨٦. أشعر بأنه كان عاراً علىَّ وعلى من يفكر مثلى أن يستسلم.. وكان أمامنا أحد خيارين كى نهرب من هذا العار.. كان يجب أن نتصدى.. وإما أن نُسجن بهذا القانون أو أن نلغى كامب ديفيد.. لكن القانون مازال سارياً ولعل الخيار مازال مطروحاً على السلطة: اما أن تسجننا واما أن تلغيها....

وكأنما لم تمت الشاة بالذبح فسلخوها حية..

وكان علينا أن نعانى العار ذاته مع تنفيذ بنود اتفاقية كامب ديفيد وبعيداً

---

(١) محمد إبراهيم كامل، هو الذى استقال. الذى لم يستقل، الذى استمر وواصل ليفعل ماهو أكثر، ماهو أفدح، رشح بعد ذلك سكرتيرا للأمم المتحدة وقد فاز.

عن الدراسات الاستراتيجية والمنهج العلمى لتحليل أثار تلك الاتفاقية فقد كانت على المستوى القومى عملية اغتيال ثم تمثيل بمشاعر الناس.

آه من هذا الداهية...

فى البداية خط جمال عبد الناصر وانحنائه أمام صورته. كما ينحنى العابد أمام معبوده. ثم حرب أكتوبر ٧٣ والنصر المجهض الذى حرم الموت جمال عبد الناصر منه، ثم الانتقال من طور البداوة الهمجية إلى طور الحضارة والرقى.. ثم الانتقال من الانغلاق إلى الانفتاح، ومن الدكتاتورية إلى الديمقراطية.. ومن عبادة الفرد إلى عبادة الله.. ما أعظم الكلمات لكن ما أبشع المضمون.. وفى كل مرحلة يجد مجموعة تطبل له وتصفق. إما عن جهل وإما عن خسة.. وكانت هذه المجموعة تفصل له القوانين وتجرى الاستفتاءات التى كانت نتيجتها دائما ٩٩٪... ثم تغيير لائحة طلبة الجامعات لقمعهم.. ثم محاولة بيع القطاع العام.. ثم اطلاقه بالونات اختبار من نوع طرح اشتراك مصر فى حلف الأطلنطى ورهن قناة السويس.. ثم إلغاء الرقابة الإدارية عندما كادت أن تمسك اللصوص من أهله.. بل الإعلان عن ذلك كما لو كان قد حقق انتصاراً ساحقاً ضد أعدائه.. بل لقد تم الاستيلاء على كل أوراقها وحرقها فى مهرجان طرب فيه اللصوص والكلاب.

كيف احتملنا..

لكن كل ذلك لم يكن آخر المصائب ولا أفدحها..

فقد كان ذلك الداهية بارعاً فى تلويث كل شريف، وفى اخفاء نواياه الفاجرة أو تخدير الشعب عنها.. وفى زيارة القدس كان يدرك فداحة ما يفعل فقدم ثمناً هو نفسه يعرف قيمته لدى معارضيه.. انه إذا لم تنجح مبادرته خلال شهر واحد فسوف يستقيل.. كانت الزيارة كارثة.. لكن الثمن كان مغرياً.. وفشلت الزيارة ولم يستقل.. كان فقط يخدرنا.. واستعمل لعبة التخدير مرة أخرى حين سأله أحد الصحفيين إن كان سيتبادل العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل فأجابه أن ذلك لن يحدث فى جيلنا الذى تغرقه المرارة والعداوة والدماء.. وانه يمكن أن يحدث فى أجيال قادمة..

لتطمئنى يامصر إذن فبقية العار مازالت بعيدة..

لكن عاماً واحداً لم يمر فيكمل السادات عار مصر..

وفى يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير سنة ١٩٨٠ كان السفير الاسرائيلى يقدم أوراق

اعتماده وكل السفراء العرب يغادرون مصر..

وامصراه، واعرباه، وإسلاماه...

بناتك سبايا يامحمد..

ورجالك أيضاً..

لكننا كنا كالسبى التى اغتصبت أول مرة بعد مقاومة مهزومة.. فماذا تجدى المقاومة مرات أخرى.. ضاع الشرف وانتهك العرض وجبن الرجال. فأى جدوى لأى شئ بعد ذلك.. ابكى يا مصر أو اضحكى.. انذبحى أو ارقصى.. ماحدث حدث.. وما يحدث أغرب من أى خيال.. وأبشع من أى كابوس.. وهو غريب وشاذ ورهيب حتى لانكاد نصدق أنه واقع، وبرغم ذلك فإنه الحقيقة.. يجلل العار الرؤوس.. لكن الصمت يسحب عباءته على الناس كالموت.. فتحى رضوان وإبراهيم شكرى وحلمى مراد يرفعون شعار مليون علم فلسطينى مقابل علم واحد لاسرائيل.. كأنما يتركونه رسالة باكية للأجيال القادمة أن كل الرجال لم يكونوا سبايا ولا خصياناً.

واحد..

واحد فقط من شعب مصر هو الذى فعل ما كان يجب أن يفعل الناس جميعاً بعضاً منه، اسمه سعد إدريس حلاوة..

فلاح مصرى.. لم يفعلها وزير ولا قائد ولا كاتب ولا ثائر ولا أحد ينتمى إلى أحزاب المعارضة، فقط سعد إدريس حلاوة..

فلاح مصرى.. نمته أرض مصر الحقيقية الطاهرة.. كان يريد أن يسمع العالم صوته.. احتجز مجموعة من الفلاحين فى مبنى الجمعية الزراعية بقريته.. وكان معه ميكرفون ومدفع.. وطلب بطرد السفير الاسرائيلى فى نفس اللحظات التى كان يقدم فيها أوراق اعتماده. وأخذ يتحدث عن تاريخ مصر ومجدها ويبكى جمال عبد الناصر من جديد.. وفى بضع ساعات كان ٣٠٠٠ من جنود الأمن المركزى بقيادة النبوى اسماعيل وحسن أبو باشا يحاصرون المكان.. وتتخذ اجراءات مهينة ضد أمه العجوز وعائلته فيتوسلون إليه فى ميكرفون آخر أن يستسلم.. فيصرخ فيهم.. لاتبكى يا أمى.. أنا منذ بدأت أعلم أنى شهيد فاحفرى قبرى.. لكنه فى ذات الوقت يطمئن الرهائن أنه لن يمسهم بسوء.. وفى الفجر تبدأ قوات الأمن المركزى بإطلاق رصاص كثيف حتى يسقط جزء من الجدار والنافذة ويسقط سعد إدريس حلاوة وهو ينزف بعد أن أنهكه الضعف.. فيقوم

الرهائن ويطلبون منهم إلقاء مدفع سعد فيلقونه.. ويقتحم العشرات الغرفة كجرذان جائعة متوحشة قذرة وضيعة فتنهال على سعد إدريس حلاوة بالأحذية ومؤخرات البنادق حتى يموت.. لكنه قبل أن يموت يكتب على الجدران بدمائه: (اطردوا السفير الاسرائيلى من القاهرة.. ولتحى مصر حرة.. ولتحى مصر عربية).

ويحفظ التحقيق فى العملية نفسها لموت الفاعل لكنه يبدأ فى جريمة قتل سعد إدريس حلاوة نفسه، حيث أقر الشهود أن قوات الأمن المركزى هى التى قتلته بأوامر عليا، لكن التحقيق يحفظ بعد ذلك. فمن هو القاتل الخسيس الجبان البلبوص الذى أمر بقتله وهو عاجز وينزف.

ويعترف بعضهم بعد ذلك أن قتله كان أمراً لا رد فيه خوفاً من أن يكرر فعلته آخرون وليكون عبرة.

وفى اليوم التالى تنشر صحف تتبع اعلاماً يدعى السفلة أنه اعلامنا القومى أن فلاحاً مجنوناً احتل الجمعية الزراعية واحتفظ برهائن مطالباً بمزيد من التقاوى وعلف الحيوانات من الجمعية.. ويأتى فى نهاية الخبر أن المجنون طالب أيضاً بابعاد السفير الاسرائيلى.

من المجنون ومن العاقل..

من الخائن ومن الفدائى..

بعد ستة أعوام فى ٢٦ فبراير ١٩٨٦ كان ١٧ ألف جندى أمن مركزى.. إخوة من قتلوا سعد إدريس حلاوة يخربون ويعضون أيدى سادتهم...

ولست أحاول أن أوجد علاقة بين تشابه التاريخ وتاريخ اعتماد أوراق السفير الاسرائيلى.

فأنا أدرك أن التاريخ لايكرر نفسه بسذاجة.. لكننى فى ذات الوقت أدرك أن العدل والقصاص والانتقام الالهى حق.. وأنه كما يحيق بالأفراد يحيق بالأمم ونظم الحكم.

وبرغم الرفض الشعبى المتحضر لما حدث إلا أن النظام لم يقدر ذلك. كما لم يقدر أيضاً ذلك الضغط الرهيب الذى فجّر جنود الأمن المركزى (والذى قد يفجر الأمة كلها ذات يوم).. لقد جردهم النظام من إنسانيتهم ومعنوياتهم كى يقمع بهم معارضيه دون أن يفكروا إذا كان مايفعلونه خطأ أو صواباً.. الآن ينقلب الوحش (الذى كان إنساناً) على مرؤوسه.. ووقف الجندى البسيط الذى يرتجف

عادة أمام مجرد شاويش.. وقف أمام وزير الداخلية نفسه يهدده بجذع شجرة وهو يصرخ فيه (إمش يابن الـ...). كان وزير الداخلية هو أحمد رشدى والذى اكتسب شعبية هائلة لمجرد احساس الشعب أن السلطة غاضبة عليه.

وبعد ذلك بأعوام سيطلق مجهولون الرصاص على اللواء حسن أبو باشا، الذى كان أحد قادة عملية سعد إدريس حلاوة، وساعتها تنطلق الحكومة وكتبتها فى هلع لإدانة الإرهاب، متناسين فى جهل فادح أن من يزرع الحنظل لن يحصد قمحاً.. وأن من قتل يُقتل ولو بعد حين.. كانت تلك حقيقة واضحة.. وكان الجميع يعرفون أن تصرفات الحكومة إرهاب تولد عنه ارهاب مضاد.. لكن الأغبياء والجهلة وضعوا رؤوسهم فى الرمال كالنعام متخيلين أنهم إذا لم يكتبوا تلك الحقيقة فلن يعرفها الناس.

لن ننساك يا سعد إدريس حلاوة.. لن تنساك مصر وحتى اليوم ـ وربما حتى مئات الأعوام القادمة ـ سوف نظل نقول معك ونزف:

«اطردوا السفير الاسرائيلى من القاهرة.. ولتحى مصر حرة ولتحى مصر عربية».

سنقولها..

لكننا أقل نبلاً وأكثر جبناً من أن نموت مثلك.

وسقطت صروح شواهق عندما باركت بعض رموز جيلنا التي كانت شامخة تصرفات الرئيس المؤمن. وأنه ليعز علّى أن أذكر بعضاً منها، خاصة أنهم راجعوا أنفسهم بعد ذلك واستغفروا وتابوا فتاب الله عليهم وسامحهم التاريخ.

لكن الذين لم يتوبوا بعد يمثلون غصة فى ضميرنا القومى وجرحاً لا يندمل...

وفى أحد الأحاديث الصحفية أخذ نجيب محفوظ يدافع عن السلام والرخاء وعن كامب ديفيد.

حتى أنت يا نجيب محفوظ..

حتى أنت..

لقد تبوأت فى الأدب العربى عرشاً لم يتبوأه أحد قبلك.. وكنت سيد الرواية بلا منازع.. وحملت خلاصة مصر فى قلبك وعقلك وضميرك، فكان الناس فى كتبك أكثر حياة من الواقع، وكانت حروف كلماتك أعضاء تتحرك وأفواهاً تضحك وعيوناً تدمع وقلوباً تنزف وأرواحاً تسحق فأعطتك مصر ما لم تعطه لغيرك..

الآن تجلس وتعدد أوجه المعاناة فى مصر وقصور الخدمات وطفح المجارى.. ويسألك السائل أمن أجل طفح المجارى توافق على كامب ديفيد وتنطقها واضحة جلية: أجل.. كنا نتمزق معك فى كلماتك.. الآن تمزقنا كلماتك. لا أتخيل أن إنساناً عظيماً هائلا مثلك يفتقد الرؤية ويسطح الأمور هكذا.. ان الافتراضية خاطئة من أساسها فإن طريق اسرائيل ليس هو طريق السلام ولا طريق الرخاء.. ولقد أثبتت الأيام بعد ذلك صدق حدسناً.. فلم يتحقق سلام ولم يات رخاء وإنما كانت انتكاسة لا يعلم مداها إلا الله. لكن حتى لو لم تكن الأيام قد أثبتت صدق حدسنا.. حتى لو كنا قد غرقنا فى بحار من المال والثروة فهل يبرر هذا أن نهدم الأساس الروحى لكيان وجودنا المتوارث فينا عبر آلاف السنين.. وهل يبرر أن ننسى مابثته فينا آيات القرآن وأحاديث النبى (ص) وحكايات التاريخ وروواياتك..

هل يبرر هذا ذلك.. وحتى إذا برره.. فماذا تنتظر من الإنسان الذى خرب كيانه المعنوى وروحه.. ماذا تنتظر من الخراب إلا أن يلد خراباً...

تمتد كتبك أمامى يانجيب محفوظ.. فى ركن خاص من مكتبتى.. أكثر الأركان معزة وأشدها إيلاماً.. أتخيل الركن يسقط بالكتب فجأة ويتفتح كتاب «بين القصرين» على صفحاته الأخيرة فإذا بالسيد أحمد عبد الجواد يخرج من بين الصفحات مهيباً فى جبته وعمامته وعصاه.. اننى أكاد أسمع وجيب قلبه المسحوق بالألم وهو متوجه إلى زوجته أمينة كى ينعى لها ابنها (فهمى) الذى استشهد فى مظاهرات ١٩١٩.. لكن ألمه الساحق لم يمنعه من إلقاء نظرة خاطفة وهو يهدر غاضباً بصوت رهيب لك:

ـ برغم حزنى فإن موت فهمى أهون عندى مما تقول.

ويدلف السيد أحمد عبد الجواد عائداً إلى صفحات الكتاب فأفاجأ بعمر الحمزاوى يخرج من الشحاذ صارخاً:

ـ لقد جن كما جننت.. كان جنونى عظيماً.. لكن جنونه مأساة..

ويعود مسرعاً فيخرج محجوب عبد الدايم من القاهرة ٣٠ وهو يقهقه ساخراً:

ـ هأنتذا مثلى.. تبيع شرفك وتقاليدك وتاريخك ومجدك.. فلم فضحتنى إذن.. وإن كنت قد حكمت على أن أفقد المال والشرف معاً فلم تتوقع أن تفوز أنت.. أنت أسوأ منى.. ففضيحتى لم يعانها أحد غيرى، أما فضيحتك فسوف

تعانيها أجيال بعدك ووطن بأسره..

وفجأة برز كمال أحمد عبد الجواد على مقهى ريش وهو يردد بصوت خافت من أعماق روح مهزومة:

ـ كنت تدعى أننى أنت.. انى أتبرأ منك.

وأغلقت المجلة..

وعادت كتب نجيب محفوظ إلى ركنها الذى لم يعد عزيزاً كما كان.

واننى هنا أتحدث عن نجيب محفوظ كقيمة شامخة يعز على أن تضيع.. إنه كالأهرام وقلعة الكباش والسد العالى.. رمز عال من رموز مصر.. والرمز دائما لايملك من نفسه قدر ما يملك الناس فيه.. من أجل ذلك فقد كانت طعنته دامية فى أحشاء مصر.

أما الآخرون من أصحاب الفكر والقلم.. تلك الحثالة البشرية التى استولت على مقادير مصر فى عهد السادات فأصبحت تشكل الكتلة الأساسية من كتاب الصحف ورؤساء تحريرها.. تلك الحثالة البشرية لاتستحق من أحد أن يواجهها.. فهم كالكلاب النابحة وهم مرتزقة سفلة لايمثلون فكراً ولا قيمة.. وهم مستعدون لأن يغيروا جلودهم مرات بلا كرامة ولا شرف ولا صدق ولا ضمير.. إلا أننى هنا أتساءل تساؤلاً خطيراً: لنفترض أن قوة معادية لمصر ولتاريخ مصر ولدين مصر قد استطاعت التسلل إلى مراكز السلطة ومصادرها.. هل ستجد تلك القوة المعادية أفضل من هؤلاء لتعينهم فى الأماكن التى عينوا بها.. فى أماكن تمكنهم من صياغة المعرفة والفكر والعقل والضمير، ولقد تولت تلك الحثالة البشرية هذه المناصب بالفعل.. وتولوا بالفعل صياغة عقول أبناء مصر.. وخربوها...

لذلك لم يكن غريباً أن تجد الأغلبية تؤيد السادات وتعجب برأى نجيب محفوظ ومن على شاكلته.

إلا أن هذه الأغلبية كانت بين المتكلمين والمنافقين.. أما الغالبية الصامتة فقد كان لها رأى آخر.

❋ ❋ ❋

«إن المشكلة الرئيسية لنا هى كيف نضعف عقول شعوبهم بالانتقاد، وكيف نفقدها قوة الإدراك وكيف نسحر عقول العامة بالكلام الأجوف»

من بروتوكولات حكماء صهيون

مذبحة سبتمبر

هلك الفاجر

لايعطى الزيف إلا زيفاً.. ولا يثمر الكذب إلا كذباً.. ولا يلد الشر إلا شراً.. وتنمو تلك الـ[illegible]ـات الفاسدة كالسرطان فتنهش كل قيمة نبيلة وصحيحة. ولقد أعاد أنور السادات إلى مؤسسة الحكم فى مصر ليس مجرد السياسة الميكيافيلية فقط، وإنما جودسائس قصور الملوك فى أوروبا فى عصور الظلمات أو صيغة نظام المماليك فى حكم مصر. كان يمثل الحقبة الأخيرة فى إمبراطورية الثورة التى ماتت فى ريعان شبابها..

وكان كآخر خلفاء العباسيين أو آخر ملوك الأندلس.

لم يكن السادات مخلصاً لشئ قط.. ولقد افتقد شيئاً جوهرياً هو ما يجعل الإنسان إنساناً.. الصدق. لم يخلص ولم يصدق..

فى البداية خط عبد الناصر.. واستعان بالناصريين كى يضرب اليسار.. ثم بالأمريكان كى يضرب الروس.. ثم بالجماعات الدينية كى يضرب الناصريين، وعندما بدأ نمو الجماعات الدينية يتهدده بدأ يتهمهم بتغذية الفتنة الطائفية محاولاً أن يقاومهم بالتيار المسيحى.. تصرفات غير مترابطة حمقاء تعطى فى النهاية محصلة تذهل أى منطق.. ونادى محمود أبو وافية بأن السادات هو الزعيم المؤمن أمير المؤمنين سادس الخلفاء الراشدين.. فخسئا..

وفى أحد اجتماعات مجلس الشعب أتى وقت الصلاة فنادوا بها فإذا بالخليفة غير الرشيد ينفعل غاضباً مفتياً فتوى ما أنزل الله بها من سلطان أنهم يعملون وأن العمل صلاة ويرفض القيام للصلاة.. ويرضخ أعضاء مجلس الشعب المؤمنين الذين يحملون المسابح فى أيديهم ومال المسلمين المنهوب فى أرصدتهم..

ومرة أخرى ذهب ليؤم الصلاة فى الكاتدرائية مترسماً خطا عمر بن الخطاب

عندما صلى فى المسجد الأقصى فأعاد إلى أذهان الناس تلك القصة التى درسوها وهم أطفال عن الضفدعة التى بهرها منظر الفيل فأخذت تشرب الماء حتى تنتفخ وتصبح فى حجمه.. وظلت تعب الماء حتى انفجرت.

وفى الوقت الذى كان اللصوص المحيطون بالسادات يرتعون فى آلاف الملايين التى نهبوها من قوت الشعب.. كان الشعب فى غالبيته يعانى أزمة اقتصادية تسحق إنسانية الإنسان فيه بتحويله إلى قطيع يائس عاجز يبذل قصارى جهده حتى آخر رمق لمجرد أن يعيش كالحيوان..

ومع هذا التناقض خرج السادات بفكرة مجمع الأديان فى سيناء.. أن يبنى معبداً وكنيسة ومسجداً كرمز للأديان الثلاثة وأوصى السادات أن يدفن هناك. كان المبنى يتكلف حوالى ٢٠٠ مليون جنيه.. وكان لايرضى مسلماً ولا مسيحياً ولا يهودياً، وكان مستفزاً للشعور الدينى والاقتصادى، ولست أدرى حتى الآن ماذا كان خلف تلك الفكرة عند السادات.. هل كان نوعاً من الخلل العقلى أوهمه أنه نبى جديد.. كان قد ادعى قبل ذلك أن زيارة القدس كانت وحياً نزل من السماء عليه وهو يطير فى سماء تركيا فوق جبال آرات التى هبط عليها سيدنا آدم.. وثبت بعد ذلك أن هذا الوحى لم ينزل عليه فى آرات وإنما نزل فى الرباط، حيث كان قد دبر لقاءات بين حسن التهامى وموشى ديان، الذى استقر فى الوجدان العربى منذ هزيمة ١٩٦٧ رمزاً دامياً كالشيطان ذاته.. الكذب فاجر كالكفر.. فأى شئ رهيب يقبع خلف فكرة مجمع الأديان.. أخشى أن يدعونا هذا الرجل غداً إلى ترك الإسلام والانتماء إلى دين جديد كالبهائية مثلاً.. وهى الديانة التى تحاول مزج الأديان السماوية الثلاثة.. أى الهى.. أى شئ ساق هذا الرجل إلينا.. إنه لم يترك شيئاً نقياً إلا لوثه.. لم يترك فى وجداننا بقعة دون أن يطعنها.. فأى قدررهيب قدره الله علينا فأرسل إلينا هذا الحجاج الجديد كى يقصف الكعبة بالمنجنيق فيقصف كل كعبة ولا يدع حراماً...

وذات يوم وهو يمارس لعبة الديمقراطية اجتمع بشباب الجامعة فواجهه أحدهم أنه نفى الشرفاء إلى خارج مصر وترك اللصوص والأفاقين حوله.. وانفجر فيه أنور السادات فى هياج وحشى..

لشد ما حاول أن يكون له مهابة جمال عبد الناصر لكن الناس لم يكونوا يحترمونه. كان لعبد الناصر أعداؤه لكنهم لم يهاجموه فى أمانته أو وطنيته أو عرضه. كان شامخاً حتى بالنسبة لأعدائه.. أما مع السادات فالأمر يختلف..

فمن له بأن يمحو ذكر عبد الناصر من التاريخ. وتصل به الحماقة أن يشكل لجنة بقرار جمهورى لإعادة كتابة التاريخ. وتأتى ذكرى جمال عبد الناصر فلا يحتفل بها بل وتولم جيهان السادات فى نفس ليلة الذكرى حفلاً صاخباً لمطرب يهودى تحت سفح الهرم متحدية تاريخاً يمتد آلاف السنين بين الملك مينا وجمال عبد الناصر. وكانت زوجة أمير المؤمنين تراقص اليهودى كما قَبَّلت قبل ذلك سفنتى كارتر.. وفى حفلاتها الصاخبة كانت تذبح المشاعر والدين والوطنية[1].

وكان الشيخ شعراوى يفسر سورة البقرة.

لكن شيوخ أجلاء كالشيخ كشك والشيخ المحلاوى والشيخ حافظ سلامة رفعوا لواء الاستشهاد منددين بفجور السلطة وخروجها على الإسلام.

وكان موسى صبرى كبوللى الملك فاروق. وكان فتحى رضوان شيخاً مهيباً يحترق كما يحترق وجدان الشعب المصرى والعربى.. كنا نشم رائحة لحمه المشوى فى مقالاته فى صحيفة الشعب.. وتفجرت قلاع العقل والحكمة بالغضب فكتب حلمى مراد مقالاً تاريخياً عن الوضع الدستورى لحرم الرئيس منوهاً بالتصرفات المشبوهة لجيهان السادات والتى كانت قد تجاوزت كل حد مقبول وغير مقبول فى استغلال السلطة. وعندما واجه أحد الصحفيين الأمريكيين السادات بذلك أجاب بوقاحة:

وماذا فى ذلك لقد كانت «مسز» خديجة زوجة النبى تمارس التجارة مثلها.

كان كل شئ فى مصر ينحدر وينهار وعقمت مجالات ليس لها اتصال مباشر بالسياسة كالفن.. ماتت أم كلثوم فاستولى على عرشها أحمد عدوية.. وربما كان هذا مثلاً يلخص الفرق بين مصر الستينيات ومصر السادات.

وفى الثقافة أقصى جيل العمالقة الذى لايستطيع مسايرة عصر التفاهة وأصبح رمز الثقافة أحدم عدوية آخر هو ثروت أباظة، الذى كتب ذات يوم مقالة طويلة فى الأهرام يدافع فيها عن عميد إحدى كليات جامعة طنطا الذى كانت صحيفة الأهالى تنشر العديد من انحرافاته، وكعادته استعمل أسلوباً غير متحضر فى الهجوم على الأهالى والشيوعيين الكفرة.

وفى يوم النشر كان رئيس جامعة طنطا يوقف العميد عن العمل وحوله

---

(١) بعد موت السادات ذهبت هى وأبنائها إلى حيث تجد الأمان فى وطنها الحقيقى فى أمريكا. وحيث هاجمها إبراهيم سعدة ـ ربيب السادات ـ فى سلوكها.

للتحقيق فى مخالفات فادحة.. وأثبت مجلس التأديب بعد ذلك صدق الأهالى.. وعُزل العميد من منصبه، لكن ثروت أباظة لم يعتذر لقرائه.

وكان موسى صبرى أحمد عدوية آخر. بل وربما كان أحمد عدوية يمثل جيله وطبقته، بينما كان موسى صبرى عدواً لجيله ولطبقته.. وشاركت مختلف وسائل السلطة المرئية والخفية فى تدمير وجدان الشعب وثقافته وروحه المعنوية. ولكى لا تسقط ورقة التوت عن عورة قبيحة كان يسمح أحياناً بمسرحيات جادة وكتب رفيعة المستوى لكنها كانت تُحاصر إعلامياً بحيث تدور فى حلقة ضيقة بين المثقفين الذين لايحتاجونها أصلاً لأنهم يعرفون مصمونها ويحسونه، بينما يحال بينها وبين عامة الناس حتى لاتوقظ وعيهم وصميرهم.

وصودرت أقلام عديدة لأنها تتناول الظلم المادى والمعنوى ولو بصورة غير مباشرة كانت السلطة تعرف عورتها وتحس بالمصمون فتمنعه مهما كانت الصياغة الفنية. ولما كانت الأفكار الجادة تصادر لم يبق فى معظم الأحيان إلا توليفة مقززة من دخان المخدرات الأزرق وأجساد العاهرات العاريات.

وبلغت المأساة ذروتها ذات يوم عندما اشترك وزير الدفاع ووزير الداخلية فى ذبح فيلم برئ تناول التعذيب السياسى فقطعوا منه مشاهد عديدة كان أهمها نهايته، ففى نبوءة عبقرية لمخرجه ومؤلفه اكتشف جندى الأمن المركزى الذى كان يشارك فى تعذيب السياسيين أنه مجرم وليس بطلاً.. وأن رؤساءه سفاحين أشرار قتلة.. بينما من يقتلهم هم الأبطال والشهداء.. وعندما يكتشف الجندى ذلك لايتمالك نفسه فيطلق رصاص مدفعه الرشاش على الجميع فتختلط دماء الشهداء بأشلاء الجلادين...

ولم تمر أعوام قليلة حتى كان عشرات من جنود الأمن المركزى يفتحون نيرانهم على الجلادين والضحايا.. وبرغم اختلاف التفاصيل إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة النبوءة.

ولم تقتصر مأساة اغتيال وجدان الشعب على وسائل الاعلام والفن فقط، بل تعدتها إلى تغيير مناهج المدارس فى التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية لتدمر عقول الناشئين تدميراً.. وكانت الدولة تقوم بصورة هزلية بتقليد رواية جورج أورويل (١٩٨٤) حيث يكون الواقع هو ما تريده الدولة أن يعرف وليس مايحدث فعلاً وتوارت ثورة ٢٣ يوليو أمام ردة ١٥ مايو.. واختفت من التاريخ نماذج التضامن العربى ومعاركه الكبرى أمام السلام المحكوم عليه قطعاً بالموت،

لأنه استسلام، بل وشطبت من كتب المدارس آيات القرآن التى تظهر حقيقة بنى اسرائيل.

أما بالنسبة لنساء الفن فقد تنحت الشامخات كسميحة أيوب ومحسنة توفيق وسهير المرشدى إلى نوع آخر من بغايا السلطة فأصبح جواز المرور إلى الفن عشق مسئول. وذات يوم طارت طائرة على حساب الشعب المطحون لتحضر راقصة من الاسكندرية كى يستمتع بها الصديق العزيز كيسنجر. وفى عهد سادس الخلفاء الراشدين ازدهر شارع البغاء الشهير بشارع الهرم، كما لم يزدهر قط. تسلسلت خلاياه السرطانية إلى الشقق المفروشة فى المدينة وانتشرت تجارة الرقيق الأبيض وتحكم القوادون لينضموا إلى طبقة الأغنياء الجدد صانعى القرار ومشاركى السلطة. وفى مجال الاقتصاد فقد استولى عليه اللصوص وانتشرت مشروعات ضخمة هائلة تتكلف آلاف الملايين من الجنيهات، لكنها كانت فى معظم الأحوال عمليات نصب ونهب واستنزاف لموارد الشعب المطحون.

وكتب حلمى مراد عن عمولة قدرها خمسة ملايين دولار حصل عليها رئيس الوزراء مصطفى خليل فهاج وماج لشرفه المثلوم وهدد أنه سيقدم بلاغاً للنائب العام للتحقيق معه، لكن السلطة كانت كلها تتكاتف لتستر ابتلاءها.

وكانوا يغترفون اقتصاد مصر ويحولونه إلى الخارج حتى وصلت ديونها إلى ٤٥ مليار دولار.. وهو نفس الرقم الذى نشرت صحف أمريكية أنه حسابات سرية هربت للخارج، هذا غير مانهب ولم يهرب[٢].

وعندما بدأت جهات كثيرة فى الشعب تتململ ازاء حجم الفساد والنهب اضطر نائب لرئيس الوزراء أن يقسم بروح أمه أن الاقتصاد المصري بخير.. إلى هذا الحد وصل انهيار السلطة وتورطها الغبى فى تبرير ما وصلت إليه الأحوال من سوء.. وكانوا أغبياء فى محاولات طمس الحقيقة وكانوا أشد غباء عندما ظنوا أن هذه المحاولات قد تجدى. ولقد نجحوا فقط فى اخفاء التفاصيل، أما المغزى العام فقد كان شديد الوضوح...

أجل.. لم نكن نعرف تفاصيل الخيانات.. لكننا كنا نعلم أننا نخان.

وكرد ساخر على محاولات السلطة ستر الحقيقة انتشرت نكتة تقول أن

---

(٢) أورد محمد حسنين هيكل هذا الرقم.. لكن رئيس وزراء سابق صرح فيما بعد بأن المبلغ يصل إلى ١٢٠ مليار دولار.

مواطناً فاض به الكيل فوقف فى وسط الشارع يهتف بسقوط أسوأ حكومة فى العالم.. وقبض عليه رجال المباحث وأخذوا يعذبونه فصرخ أنه يقصد حكُومة الأرجنتين لا حكومة مصر. فصرخوا فيه وهم يواصلون تعذيبه:

ـ أنت تسخر منا أيها الكذاب.. فهل توجد فى العالم حكومة أسوأ من حكومة مصر.

وهاجرت طيور كثيرة.. كان الجو خانقاً وساماً. مفكرون وفنانون وكتّاب وصحفيون وأناس عديدون لم يحتملوا فغادروا مصر.. وحمل الصحفيون فى الخارج لواء معارضة لاتهدأ، مهاجمين بشراسة ذلك الانهيار الرهيب فى مصر.. ولقد استطاعوا أن ينالوا من السادات فعلاً بكشفه وتعريته، لذلك كان حقده عليهم عظيماً.. وتفتق ذهنه وذهن الأفاقين حوله عن مقولة أن هؤلاء الصحفيين فى الخارج يهاجمون أمهم مصر وأنهم خونة.. كان منطقاً فاجعاً تزعمه ثروت أباظة وموسى صبرى وتبعهما المئات من الصحفيين والكتّاب الذين كانت مواهبهم تظهر بقرارات من السلطة. ولقد كان هؤلاء المهاجرون رمزاً من رموز قليلة، ان العفن لم يتخلل بعد نخاع مصر. برغم أن بعضهم تحت وطأة العبث واليأس قد انحرف. وظل بعض المفكرين فى الداخل يرفعون لواء المعارضة...

وصرخ شيخ الجيل الجليل فتحى رضوان أن مصر لم تعان من المهانة والضعة فى تاريخها كله مثلما تعانيه الآن، وكان محمد حسنين هيكل هو الآخر صوتاً هائلاً يسمعه العالم، ولم يتورط أحمد بهجت فى تأييد العهر السياسى، وكان كل آن وآخر يسرب للناس بين سطوره أن قلبه يدمى مع قلوبهم.. وأنه معهم. وحملت صحيفة الشعب والأهالى لواء معارضة يكاد لهيب أوارها يحرقنا ولو لم تمسسنا نار.

وأخذ طوفان المرارة يصب فى وجدان الناس فالعرب ـ طبقاً لخطب رئيس الجمهورية ـ رعاع، واسرائيل متحضرة، وجيش مصر يرابط على الحدود الغربية ليضرب ليبيا، ومعمر القذافى مجنون، وحافظ الأسد كافر، لكن كارتر مؤمن وكذلك كسينجر وبيجين أصدقاء السادات الأعزاء. لم يعد له من العرب إلا النميرى وقابوس، كان النميرى أميراً آخر للمؤمنين أثبتت الأيام بعد ذلك أنه لص فاجر وخائن بعد أن لفظه شعبه.. ولم يعد له من زعماء المسلمين إلا شاه إيران الذى لفظه شعبه كما لفظه سادته، فلم يجد الخائن مكاناً فى الدنيا يأوى إليه إلا أنور السادات.. وكانت الجماعات الدينية ترى فى الامام الخمينى الإنتفاضة

الأولى لتجديد الإسلام بعد وضع خاطئ استمر منذ استشهاد الحسين حيث تولى الحكم ملوك وأباطرة وجبابرة ولصوص وخونة.. لأنهم كانوا يرون فى الخمينى كل ذلك الأمل فإنهم لم يغفروا للسادات موقفه مع الشاه.. وزاد الطين بلة تورط السادات فى فضيحة مشينة، وهى استراكه مع أمريكا فى محاولة فك أسر الرهائن الأمريكيين الذين اعتقلتهم الثورة الإيرانية، وأقلعت الطائرات الأمريكية الضخمة من مطار فى صعيد مصر إلى إيران ولم يحارب الخمينى ولا رجاله. وإنما قامت عاصفة هوجاء تحطمت على أثرها أربع طائرات من السبعة المكلفة بالمهمة. وذكرت هذه العاصفة المؤمنين بالريح العاتية التى هزمت الأحزاب في غزوة الخندق.. وكما انسحب الأحزاب انسحبت باقى الطائرات الأمريكية. وكانت هزيمة مروعة لأمريكا وفضيحة مخزية للسادات، حاول أن يخفيها بعض الوقت لكنها انتشرت كما تنتشر روائح الجيفة.

ولقد بدأ السادات فى تلك الفترة كمنبوذ تطارده لعنة أبدية. كان القدر يحاربه والزمن والناس.. بل تعدته اللعنة إلى من يتصل به.. ولأنه لم يفهم التاريخ ولا المنطق كان رجل الرهانات الخاسرة.. راهن على نيكسون فسقط سقطة لم يسقطها رئيس أمريكى قبله.. ثم راهن على فورد فنجح كارتر.. وعندما راهن على كارتر أسقطه شعبه، وما حدث مع أمريكا حدث فى أماكن أخرى عديدة، منها فرنسا وبريطانيا. وكانت لعنته تصيب كل من يمنحه بركته ورضاه.. وعندما ركّز بركته على شاه إيران طرده شعبه فى ثورة تعد بالرغم من كل شئ الثورة الثالثة فى العصر الحديث بعد الثورة الفرنسية والثورة الروسية.. ومن بين دياجير الظلام المدلهم كان يبزغ شعاع السخرية من الشعب المصرى.. دعوه يصادق اسرائيل إذن لعل لعنته تحيق بهم.

وكان السادات تطبيقاً جيداً للمثل الإنجليزى أن الكلب الصغير ينبح عالياً. كان قد فقد زمام الأمور شاعراً باحتقار شعبه واستهانة العالم. وأصدقاؤه الجدد لم ينصفوه وأصدقاؤه القدامى نبذوه.. وكم كان مخزياً ومحزناً أن تجمد عضوية مصر فى المؤتمر الإسلامى ومؤتمر عدم الانحياز.. وكان عاراً لم تشهده مصر من قبل.. وكانت مذلة مهينة.. لا أحد معك. لاشعبك، ولا العرب، ولا المسلمون، ولا دول عدم الانحياز، ولا دول الكتلة الشرقية.. بعت نفسك لأمريكا واسرائيل لكنهم أخذوك ولم يدفعوا الثمن.. بل أن الصحافة الغربية نفسها تقول أنك أصبحت كالشاه عبئاً على أمريكا.. وأنهم بعد أن استنفدوا أغراضهم منك آن لهم

أن يلفظوك.. لقد كانت قيمة مصر هى قيمة تأثيرها.. فلما قضيت أنت على تأثيرها لم يعد لها ولا لك قيمة.. كانت الصفعات تنهال عليه من بيجين ومن صحافة الغرب، ولم يكن مسموحاً له إلا أن يدير خده الآخر كى يتلقى صفعة أخرى.. إن كل مابنيته ينهار.. ديمقراطيتك ذات الأنياب صارت مسخة كشفها العالم.. سلامك أصبح عربدة اسرائيلية فى لبنان والعراق وعجزاً فى مصر، ورخاؤك أصبح غلاء يسحق الناس.. أنت محاصر. خاب كل شئ وفشل كل شئ.. وهؤلاء الرعاع حولك شامتون بك.. وتتناولك رؤوسهم بالطعن والتجريح والمزيد من كشفك.. لم يعد يسترك شئ وبانت سوأتك.. لامفر إذن من ضربة قاصمة تعيد لهذا القطيع صوابه.. واستغل حادثة كانت قد حدثت وانتهت منذ خمسة شهور فى الزاوية الحمراء اصطدم فيها بعض المسلمين ببعض المسيحيين.. كان عائداً من أمريكا مخذولاً، ولعل وحى الشيطان نزل عليه هناك فوقف يوم ٣سبتمبر ١٩٨١ ليأمر باعتقال ألف وخمسمائة يمثلون أعظم أبناء مصر وأشرفهم.. فتحى رضوان واليسار والوفد والمسلمون والناصريون والمسيحيون وكل من قال لا.. هؤلاء الذين كذبوه وكشفوه.. الآن ينتقم.. وتصدر قراراته أيضاً بإغلاق صحف المعارضة كلها.. وانطلقت كلابه المسعورة.. تلك الحثالة البشرية التى وضعها حوله تزين فعلته.. بل إن واحداً منهم سمى قرارات سبتمبر ثورة.. وأخذت تلك الكلاب المسعورة تهاجم المعتقلين وهم فى سجون السادات لاحول لهم ولا قوة...

ها هم أولئك يامصر يمزقونك قطعة قطعة..

ويلقون بأعز من فيك فى سجونهم..

يا أباءنا ويا إخواننا..

يا أحبابنا..

نفديكم بأرواحنا.. لكن ماذا فى أيدينا أن نفعله ونحن الشعب العاجز المقهور، أى قدر هائل من الألم أصبح دينا لكم علينا.. وأى بحر هائل من الدموع يقدر أن يحرك الدم الذى تجمد فى عزوقنا كى يغسل خطايانا..

خطيئتنا التى بدأت منذ سمحنا لمثل هذا الرجل أن يكون رئيسنا..

إنه لم يكتف بكلابه التى أطلقها عليكم.. هاهو ذا نفسه يقف.. الشيخ المحلاوى فى السجن كالكلب وفتحى رضوان يخرف..

أى كم من الاعتذار يكفى كى يغسل وقاحته.. يارموز جيلنا العظيمة

الشامخة كنتم آباءنا الآن وأنتم مقيدون بالسلاسل فى سجونكم.. الآن نشيخ فجأة فنصبح نحن الآباء والأمهات وتصبحون أنتم أبناءنا. سويداء قلبنا وفلذة كبدنا.. أطفالنا الأبرياء الذين تفترسهم الوحوش الضارية ونحن لانستطيع أن نمد لهم يد العون.. وهنا هوذا النخاس يستولى عليكم فلا نستطيع نحن العبيد والجوارى إلا أن نتألم وأن نبكى فى صمت أذهله الحزن.

أتخيل المعتقلين جميعاً وعلى رأسهم فتحى رضوان أبى وأب كل مصرى.. فى شيخوخته الجليلة.. بوجهه الحبيب الطيب ويديه المرتجفتين تحت وطأة السنين.. سامحنى يا أبى. أعترف بذنبى.. كان علينا إما أن نكون فداءكم أو أن نكون معكم. أشهد أمام الله أنك بالذات أديت الأمانة.. كذلك من معك.. وأنك كنت شهيداً للطاغوت وأنك حاولت وحاولت وحاولت أن تشعل الضريم فى رماد خبا أواره.. كنت أنت الشيخ أكثرنا شباباً. وحملت داخل قلبك الكبير روح مصر العظيمة.. خبأتها من الطاغوت بين ضلوعك.. سربتها إلينا فسرت فينا.. ناراً تحرق لكنها تضئ.. الآن ماذا سيحدث لكم هناك.. أصبح الكفر دينا وأصبح الاجرام علماً، واننى كطبيب أعلم أنهم خلال شهور قليلة يستطيعون القضاء عليكم بمنع الدواء أو سوء التغذية أو بمجهود لايتناسب مع السن والصحة.

ويقف السادات وقد تهاوت كل معايير المنطق يؤكد أنه بقرارات سبتمبر يرسخ ديمقراطية أعظم من ديمقراطية بريطانيا.. لكن صحفياً أجنبياً يواجهه بسؤال يدفعه إلى الجنون لأنه حقيقة.. يسأله هل استأذنت أمريكا قبل قرارات الاعتقال. ويندفع السادات فى جنون.. لولا الديمقراطية لأطلقت عليك الرصاص.

لقد جن الرجل فعلاً..

ولو استمر عاماً آخر فسوف يدفع بنا إلى الجنون أو الموت..

وأذهب إلى أبى ملتاعاً مرتاعاً..

لماذا أخطأت التقدير هذه المرة يا أبى..

من أول العام وأنت تؤكد أن هذا العام سوف يشهد نهاية السادات، فقد بلغت الأمور غايتها.

لقد كنت أثق دائماً فى نبوءاتك يا أبى.. كنت دائماً تصيب.. فقد كنت تبنى تحليلاتك على تراث طويل من الثقافة والخبرة والعقل والحكمة.. وحتى لوخذلتك وسائل المعرفة البشرية كنت تعرف الغيب بكشف الصوفى. حتى كشف الصوفى أيضاً يضيع أيها الولى الصالح.. كل شئ يضيع.. لقد قلت لى أن هذا العام

سيشهد نهايته.. وها هوذا يشهد نهايتنا نحن.. نهاية أعظم من فينا وأشجع من فينا وأنبل من فينا.. ولو انتهى هؤلاء سنصبح غثاء كغثاء السيل..

أواجه أبى بالسؤال تلو السؤال كطفل يظن فى أبيه القدرة المطلقة.. ويشيح أبى بوجهه المحتقن ويعرض عنى وهو يهتف: ليس لها من دون الله كاشفة.. ليس لها من دون الله كاشفة..

ويتعذب معى صديقى عبد الله أبو حسين وكان أيضاً يترقب كل دقيقة الاعتقال، فقد اعتقل قبل ذلك.. لن أستطيع ياعبد الله أن أمكث فى هذا البلد.. سوف أذهب إلى بلد آخر.. حتى لو عانيت نفس المذلة والقهر فليس تحت سماء وطنى ولا فوق أرضه، لم أعد أستطيع أن يجمعنى والسادات بلد واحد.. ألا وقد عقم جيلنا أن يعطى من يوقفه عند حده فليكن اعرافنا بالهزيمة هجرة..

وذات صباح كنت أقرأ كتاباً مهرباً لمحمد حسنين هيكل، كان يحكى فيه عن مبادرة السادات وزيارة القدس.. يوم الزيارة كان محمد حسنين هيكل يجلس على شاطئ البحر بجواره المذياع يتابع الزيارة وعندما يسمع أن طائرات سلاح الجو الاسرائيلى تنطلق لتصاحب السادات ينفجر مجهشاً بالبكاء.. أغلق الكتاب بعنف وأنا أحبس دموعاً ساخنة.. لن أكمل الكتاب. لن أستطيع.. ولن أمكث فى مصر.. سوف أهاجر.

ويمر الصباح فى غيبوبة الأحزان الدامية ويدخل علىّ فى العيادة زميل متسائلاً:

ـ هل شاهدت العرض العسكرى فى التليفزيون؟

ـ اننى أقاطع كل شئ يذكرنى بأنور السادات.

ـ لقد سمعت أصوات إطلاق الرصاص انتهى بعدها العرض..

ـ لعلها أصوات الطائرات وهى تخترق حاجز الصوت.

ـ بل يقولون أن السادات قد جرح.

كأنما أنتقل من عالم إلى عالم آخر.. فجأة تنتفض داخلى الأشياء التي ماتت لتحيا من جديد.. أصرخ فيه:

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول أننى سمعت أن السادات قد جرح.

أترك عيادتى على الفور متجهاً لمنزلى..

جسدى كله يرتجف بالحمى..

وتحت الأطية أدير ثلاثة أجهزة للراديو كل جهاز منها على محطة.. وتذيع اذاعة لندن: «يبدو أن السادات قد جرح جرحاً طفيفاً فى يده أثناء العرض».

يارب. لو نجا هذا الرجل هذه المرة فسوف يستدير نحوناً كالوحش الجريح.. سوف يقضى على البقية الباقية التى لم يقض عليها بعد..

يارب. ياجبار يامنتقم ياقهار يامذل..

وفى الساعة ٤,٤٥ مساء أذاعت إذاعة مونت كارلو أنه أصبح من المؤكد أن الرئيس السادات قد وافاه الأجل.

سبحانك

....

....

عندما مات يزيد تنادى المسلمون فى أرجاء المعمورة هلك الفاجر.

هلك الفاجر

لم يكن امتنانى لله قط كما كان ذلك اليوم.

وأنطلق بسيارتى إلى أبى أقبل وجهه ويديه ونبوءته.

وفى أيام قلائل رد الشعب المصرى على إذلال السادات له طوال عمره.. لقد استحكمت فحكمت فجرت.. واستؤمنت فخنت.. واستهنت فهنت.. الآن لانذرف دمعة، بل تطفو البسمات وتنطلق الضحكات.. نتركك لأهلك يشيعونك (نيكسون، كارتر، بيجين، وكيسنجر).. وليس الشيخ المحلاوى هو المرمى كالكلب.

وفى هذه الأيام القليلة أظهر الشعب المصرى حقيقته التى تخفى على كل الطغاة.. أنه يتعامل معهم تعامل المطلق مع النسبى.. ومهما طال عمر الطاغية فعمره ازاء عمر الشعوب لحظة خاطفة.. وفى اللحظة التى يظن الطاغية فيها أنه استولى على مقاليد الأمور إذا بالشعب يلفظه كما يلفظ الجسد الصديد.. انه يدعهم يفعلون مايريدون لكنه يعزل نفسه عنهم.. ويدعهم يتخيلون أنهم حاصروه فإذا هو المحاصِر لا المحاصَر.. من أجل هذا أيها الشعب بقيت آلاف السنين وكنت مقبرة لكل طاغية وكنت قاضياً على الجميع.. واحتفظت فى وجدانك بأبطالك. صلاح الدين الأيوبى ومحمد على ومصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس وجمال عبد الناصر، كما حكمت بالاعدام على أعدائك.. المماليك والشراكسة والأغوات وخنفس بيك والخديوى توفيق وأنور

السادات.

يامصر.
يا أمنا العظيمة الرائعة..
اغفرى لى أننى كدت أفقد الأمل والثقة فيك..
ظننتك قد عقمت لكَنك أبداً ولُود.

❋ ❋ ❋


خريف الرعب

لم يكن خريف سنة ١٩٨١ خريفاً للغضب فقط كما أسماه محمد حسنين هيكل، وإنما امتزجت فيه مشاعر الغضب والذهول والغيظ ونفاذ الصبر بأقصى درجات الرعب.

كان من تم القبض عليهم طبقاً للبيانات الرسمية ألفاً وخمسمائة، وأشيع أنهم عشرة آلاف، لكن كل من اعتقل قبل ذلك كان يتوقع أن يعتقل كما كان كل من يكره السادات يترقب طرقات المبحث كل دقيقة، فقد كان هناك قانون بسجن من يحتقر النظام.. وأعتقد أنه قانون فريد فى العالم.. وأن النظام عندما أصدره قد تجاوز مبررات الكرامة التى تمنع اصدراه ازاء شعوره بخطورة ظاهرة الاحتقار العام التى واجهه بها الشعب.

كانت وحدات الأمن المركزى ترابط فى كل الشوارع الرئيسية. وكان يمكن فى أى لحظة أن توقف السيارات وتفتش. لكن الرعب الذى اكتنف الناس كان أقسى وأعظم من أن يدفعهم إلى الانطواء والسلبية.. إنما كان مثل رعب إنسان واجهه فى الخلاء وحش هائج فاستفز فيه أقصى درجات التحفز ومنحه قوة لا تتوافر له حال انعدام الخطر.. وعندما يجد إنسان نفسه فى مثل هذا الوضع فإن الخطر يكون أعظم من أن يتجاهله.. بل يكون عليه لا مواجهته فقط.. وإنما أن يختار أحد خيارين: إما أن يَقتل وإمّا أن يُقتل، وهو بالطبيعة والغريزة مدفوع لأن يقتل الوحش.

لذلك قد يكون خالد الإسلامبولى هو الذى نال شرف التنفيذ.. لكن ذلك لاينفى أنه كان هناك عشرات الآلاف من خالد الإسلامبولى.. بل إننى لا أتجاوز الواقع عندما أقرر أن كل وطنى مهتم بقضية وطنه قد قتل السادات داخل نفسه

قبل أن يموت.. وأنه تخيل نفسه ولو فى حلم يقظة البطل القومى الذى يخلص البلاد من شذوذه وشروره وخطره.. ولعل خير دليل على ذلك الدكتور أسامة الباز.. وهو مصرى عظيم يشهد بعظمته الحزب الحاكم قبل أحزاب المعارضة.. وهو ليس معارضاً سافلاً ولا شيوعياً ملحداً ولا يمينياً رجعياً ولا من جماعات التكفير والهجرة ولا من لابسى قميص عبد الناصر ولا من بلابيص النبوى إسماعيل ولا مثقفى السادات الأرازل.. بل كان من أفراد النظام الحاكم.. وبرغم ذلك كله لم يتمالك نفسه ذات يوم فيهتف ازاء حماقة السادات: «هذا الرجل مجنون.. لابد وقفه بأى طريقة».. وأن أى طريقة هذه تشمل ضمن ماتشمل القتل.

وأن الفريق محمد فوزى لو استطاع أن يكون خالد الاسلامبولى لكانه..

والفريق سعد الدين الشاذلى، وهو مثل عظيم للمؤسسة العسكرية المصرية الصارمة، لو استطاع لكان.. كما أن الدموع التى سفحها قائد كبير مثل الفريق عبد الغنى الجمسى عندما أرغمه السادات على التخلى عن شرفه العسكرى وسحب الجيش المصرى من سيناء هى دموع العجز عن المواجهة.. لأن المواجهة كانت تعنى الثورة والثورة كانت تعنى اعدام السادات.

من حكمة الله أن سياط الجلادين لاتقتصر على تعذيب الشهداء فقط برغم أنها قد تقتل أجسادهم.. إلا أنها فى ذات الوقت تقتل أرواح معذبيهم فتتركهم مسوخاً شائهة.. وازاء الجهد المضنى الذى بذلته الشرطة كان لابد أن يسقط الكثير منهم ضحايا للإعياء والأزمات القلبية، وكان أحدهم هو اللواء سيد الدينارى مدير أمن الغربية، وكان مشهوداً له بالتدين ودماثة الخلق.

وأثناء مرورى اليومى على المرضى كنت أجالسه وكان صوفياً من دراويش السيد أحمد البدوى وكان هذا مجالاً للحديث لاينفد.. وذات يوم وجدتنى أواجهه:

ـ كيف تكون بهذا النقاء الدينى ثم تشارك الطاغوت فى سحق أشرف أبناء مصر وأكثرهم نبلاً وعظمة وتضحية.. هل أنت سعيد بتلك القصة التى يتندر بها ضباطك عن ذلك المعتقل الذى ذهبوا ليقبضوا عليه فأدركوه وقد حلق نصف لحيته وأمسكوه قبل أن يكمل حلاقة النصف الآخر.. اللحية التى أوصى بها الرسول ﴿ﷺ﴾ أصبحت وثيقة إدانة.

وأجاب اللواء وهو يدفع الاتهام:

ـ أنا مجرد موظف أنفذ الأوامر.. وطاعة أولى الأمر من الدين. ويعلم الله كم حاولت أن يتم القبض على المعتقلين بلا تعذيب ولا إهانة.. إن دورنا يقتصر على الإمساك بهم وترحيلهم إلى القاهرة لتسليمهم.

ووجدتنى أصرخ فيه:

ـ تسلمهم إلى جلاديهم.. وأنت تقبض عليهم هنا ألاتعرف ماذا سيحدث لهم هناك.. التعذيب الهمجى الوحشى الحيوانى المجرم.

هل تعرف طريقة النازى وطريقة الأقسام الخاصة فى المخابرات حيث يرتكبون الأعمال الاجرامية المروعة.. إن العمل يقسم إلى حلقات منفصلة، كل قسم منها قائم بذاته يكلف به أفراد معينون.. وكل حلقة قد تكون فى ذاتها لاتشكل جريمة أو ما يعذب ضمير مرتكبيها.. لكن تلك الحلقة تؤدى إلى حلقة ثانية وثالثة ورابعة، وفى الحلقة الأخيرة تكون الجريمة.. والتى لم تكن لتتم لولا تواصل الحلقات كلها.. أليسوا جميعاً مجرمين؟!

وهتف اللواء فى ارتياع من بدأ يدرك أن الاتهام يمسك بخناقه:

ـ اننى أنفذ الأوامر فى حدود القانون..

واستمر صراخى فيه:

ـ ترى لو كلفتك الحكومة بنقل مال أنت تعرف أنه مسروق أكنت تنقله.

وأجاب:

ـ مادمت أعلم أنه مسروق فحرام علّى نقله.

ـ وحرية هؤلاء الشهداء أليست مسروقة.. إننى أناشدك الله.. وأنت على سرير المرض.. لاتدرى هل يحين أجلك بعد لحظة فتكون بين يدى الله الجبار المنتقم.. هؤلاء الذين يقبضون عليهم أهم جناة مجرمون كما يصور الطاغوت لنا ولكم.. إننى أتخيلك أمام الله فى اليوم العظيم يوم لاسادات يحميك.. وأتخيلك تحمل أوزار كل هؤلاء الذين اعتقلتهم ويحملون حسناتك.. ياسيادة اللواء.. أنت وضعت وظيفتك قبل دينك.. ولقد قسمت الدنيا قسمين فأعطيت فى نهارك ما لقيصر لقيصر وقمت الليل تعطى ما لله لله.. لكن الله يغفر كل شئ إلا أن يشرك به.

وتوقفت فجأة عن الكلام.. فقد كان اللواء سيد الدينارى ينتحب فى نفثات دامية تتمزق لها جنبات روحه.. وأدركت أننى خنت أمانتى كطبيب بأن عرضته لهذا الانفعال بينما يمر بفترة النقاهة بعد الأزمة القلبية.. وخشيت أن يموت فلا

يغفرها لى ضميرى قط.. وأخذت أواسيه وأخفف عنه وألوم نفسى.. لكن من أين لى أن أدرى أن خلف وظيفة الجلاد تلك النفس الصافية الحساسة.

ومنّ الله عليه بالشفاء..

كما منّ عليه بأن أحالوه للتقاعد كى يتفرغ للعبادة.. عسى الله أن يغفر له.

فى يوم ٥ سبتمبر ١٩٨١ علمت أن الدكتور أحمد الزواوى قد غادر مصر فور بداية حملة الاعتقالات خشية أن يعتقل.. كان الدكتور أحمد الزواوى أخصائياً لجراحة المخ والأعصاب بمستشفى المبرة، ويبدو أنه كان ينتظر هذا اليوم فرفض دائماً أن يعين كموظف حكومى وأصر أن يكون عمله فى مستشفى المبرة بنظام العقد كى يحتفظ بجواز سفر يتيح له السفر فى أى وقت دون إذن الجهات الحكومية.

كان الدكتور أحمد الزواوى من قيادات الاخوان المسلمين الذين أعتقلوا سنة ١٩٥٤ وأفرج عنه سنة ١٩٥٦ ليذهب إلى ألمانيا الغربية ويمكث بها عشرين عاماً، كان الدكتور محمود جامع يعرفه فى البداية لكنه نسى هذه المعرفة طيلة حكم عبد الناصر، وفى بداية حكم السادات عندما أخذ النظام يسترضى الطيور المهاجرة كان الدكتور محمود جامع أحد أدوات النظام فى ذلك وامتد نشاطه إلى أوروبا والدول العربية.. أخذ يوثق علاقاته بالكثير، منهم الدكتور أحمد الزواوى حيث زاره أكثر من مرة كما وسط لديه العديد من الأصدقاء كى يعود لمصر مناشداً إياه أن يكون مجهوده وعلمه لوطنه وللمسلمين ومبشراً بنظام إسلامى مؤمن فى مصر.. وواعداً بأنه سيجهز له فى مستشفى المبرة بطنطا قسماً للأمراض العصبية على أحدث مستوى عالمى.

ولقد استجاب الدكتور أحمد الزواوى فى النهاية.

كلما تذكرت الدكتور أحمد الزواوى انداحت إلى مخيلتى ذكرى سيدنا ومولانا أبو بكر الصديق.. ذلك الذى فضل المسلمين جميعاً ليس بصوم ولا بصلاة وإنما بشئ وقر فى قلبه، وكنت أحس أن الدكتور أحمد الزواوى تلميذ نجيب فى مدرسة المعلم الصديق. نقاء فى المشاعر ودماثة فى الخلق ورقة فى الجسد أضنته خشية الله وقوة شكيمة فى الحق وصلابة فى الإيمان وترفع عن فضول القول. وكان لايتحدث إلا إذا سئل فإذا سئل أوجز.. لكنه عندما كان يرى فى سؤال سائله انحرافاً عن جادة الدين كان ينطلق هادراً كالطوفان بعلم يكاد أن

يكون بلا نهاية. ولقد قدم لى نموذجاً رائعاً للمسلم الحقيقى وكان إضافة كبرى لفكر الاخوان المسلمين. وبرغم عمق جذور التأثير الإسلامى على وجدانى فقد كنت أنظر للاخوان المسلمين على أنهم أتباع معاوية بن أبى سفيان.. فكشف لى أن بعض أفكارى عنهم كانت مشوشة ومشوهة، ولم يكشف لى ذلك بحديث أو جدل وإنما بنمط فى الحياة والعمل.

وعندما علم الدكتور محمود جامع بسفر الدكتور الزواوى انفجر فى غضب هائل.. وكنت مذهولاً.. فقد كنت أظنه سيسعد بنجاته.

وكان هذا الموقف علامة استفهام خطيرة ورهيبة.. فلم أستطع برغم كل محاولاتى أن أجد تفسيراً لها يبرئ الدكتور جامع.. ولم تتقصر التساؤلات على الموقف فقط، بل تعدته إلى نقاط كثيرة تمر علّى مرّ الكرام.. ماهو سر العلاقة الوطيدة التى تربط "دكتور جامع بمباحث أمن الدولة والمخابرات العامة.. لقد كان صديقهم دائما وكان كثيراً مايسهر فى مكاتبهم أو يسهرون فى مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل.. وكان وسيطاً دائماً فى المفاوضات بين الجماعات الدينية فى الجامعة ومباحث أمن الدولة.. وكنا ننظر إلى ذلك كفضل عظيم منه أنه يعمل لصالح الجماعات الدينية، فهل كان يعمل لمصلحتها فعلاً؟ ثم كيف استطاع الدكتور جامع أن يعرف أسرار المعتقلين طوال الأعوام الماضية بكل تفاصيلها وبكل أقوالهم فى التحقيقات فى مختلف السجون؟ وكان يواجههم بها أحياناً فينفجر الجميع ضاحكين ذاهلين من قوة اتصالاته واتساع معرفته.

وينبثق السؤال داخلى كالنزيف.. كيف تصادف أن كل من يعرفهم الدكتور محمود من الاخوان المسلمين قد اعتقلوا سنوات وسنوات، بينما لم يعتقل هو قط؟

وكان الدكتور جامع يحقق كل يوم مجداً، وكان قد عين عضواً بمجلس الشورى، كما حصل على شهادة بأنه مواطن فخرى بالولايات المتحدة الأمريكية، وكان نجماً لامعاً فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون.

❋ ❋ ❋

«إننا اليوم أصحاب التشريع، المستلطون على الحكم،
المقررون للعقوبات، إننا نقضى بإعدام من نشاء..
ونعفوا عمن نشاء».

من بروتوكولات حكماء صهيون

خالد الإسلامبولى

فى ذلك الوقت لم أكن ولم يكن معظم المصريين ينتظرون الكثير من حسنى مبارك.. لقد تعرضنا وتعرضت مصر لخطر ساحق ماحق دام أحد عشر عاماً يلاحقنا ثم انتهى.

كنا منهكين متعبين سعداء.. مانريده الآن أن نرتاح قليلاً.. فلشد ما كان الطريق وعراً والآلام هائلة. كمسافر فى الصحراء ضل طريقه وكاد الجهد أن يقتله والعطش، حتى أيقن بالموت فإذا به يجد نفسه أمام واحة.. رشفة ماء ساعة نوم.. نوم لايغلق فيه عينيه فقط، بل يغلق عقله أيضاً فلا يفكر ولا يتذكر ولشد ما هو فى حاجة إلى صدر حنون يتلقفه فى أحضانه يسمع شكايته ويجفف دمعه ويداوى جرحه ويهدهد ألمه ويخفف عذابه.. لكن الأمل لم يسرف بهذا التائه إلى هذا الحد.. فلنكتف إذن برشفة ماء وساعة نوم.

لكنا لانستطيع إلا أن نذكر وأن نتذكر.. فكيف ننسى أن قوة عيوننا وفلذات أكبادنا وسويداء قلوبنا وينابيع نور عقولنا مايزالون أسرى فى سجون الجبابرة وأن ابن زياد مازال صاحب الشرطة.

لم يئن أوان الثأر والانتقام لكننا نريد آباءنا..

وفجأة ينطلق البشير فى أنحاء مصر:

حسنى مبارك يفرج عن كبار المعتقلين ويستقبلهم فى القصر الجمهورى.. فهل آن للتائه الجريح أن يجد صدره الحنون.. وهل آن للشعب أن يجد بطله..

وكان من بين ما أطلق سراحهم فى ذلك اليوم المشهود الأستاذ إبراهيم يونس الصحفى بأخبار اليوم والعضو البارز بحزب العمل. وبعد مقابلة الرئيس وأثناء ذهابه إلى بلدته فى البحيرة وقعت حادثة لسيارته فأتى جريحاً إلى مستشفى

المبرة.. كانت اصاباته سطحية.. وذهبت إليه.. اننا جميعاً مدينون لكم.. ولشد ما تعذبنا من أجلكم وأن العلاقة بين كاتب صادق وبين قرائه كأى علاقة حية بين طرفين يكون العطاء فيها قدر الأخذ.. والكاتب الكبير لا يصبح كبيراً بقرار جمهورى ولا بيان من وزير الداخلية أو مباحث أمن الدولة أو إدارة المخابرات ولاحتى بعلاقاته الطبقية مع الأغنياء أو اللصوص.. وإنما يصبح كبيراً بحجم مايمثله بصدق من قطاعات مجتمعه ونجاحه فى التأثير فيها.. ولقد حاولت السلطة أن تحدد مقاسات الكتّاب بقرارات عليا.. لكن السلطة لم تنجح فى تخريج كتّاب بل كتبة، فانصرف الشعب عنهم كما ينصرف عن أى شئ مزيف.. كانت بأيديهم الأبواق الضخمة والبنط العريض لكن ذلك كله لم يخلق من واحد منهم كاتباً.. بل كانوا ككتبة المحاكم يكتبون مايملى عليهم.. وكانوا سذجاً كأسيادهم عندما ظنوا أن مثل هذه العلاقة السرية سوف تخفى على الشعب.. بل كانت شديدة الوضوح أمامه واستعمل الشعب طريقته الأزلية العبقرية فى معاملتهم.. فلقد وضع بينه وبينهم حجاباً فمنع عنهم نبضات قلبه ونفثات روحه كما امتنع عن التأثر بهم.. تركهم في حجمهم تماماً.. أبواقاً ضخمة.. موظفين على درجة وظيفية.. ويوم يترك أحدهم الوظيفة بحكم السن أو الشيخوخة أو ركلة سيد فقد كان الشعب يحكم عليهم بالموت وهم أحياء.. يعزلهم كالمرض الخبيث وكالوباء..

وفى نفس الوقت حفظ الشعب دائما من حفظه.. وكانت القيمه الحقيقية للكتّاب فى وجدان الشعب لا فى سجلات السلطة.. ولم ينس الشعب كتابه الصادقين، بل وضعهم عبر التاريخ شواهد حية على عظمته وعظمتهم وحقارة الآخرين.. ولم ينس الشعب عبد الله النديم ولا الشيخ على عبد الرازق ولا طه حسين ولا العقاد ولازكى مبارك ولا محمد حسنين هيكل ولانعمات أحمد فؤاد ولا أحمد بهاء الدين ولا يوسف إدريس.. ولا عبد الرحمن الشرقاوى ولا أحمد حمروش ولا صلاح عيسى، وعشرات وعشرات غيرهم.. لكنه ألقى بالمئات فى مزبلة التاريخ أحياء وموتى.

أخذت أحدث إبراهيم يونس بكل ذلك وتوطدت علاقتى به حتى بدأت أحدثه عن خالد الإسلامبولى.. ذلك البطل المصرى العظيم الذى أنقذ أمة وغيَّر تاريخاً فى عملية عبقرية لم يشهد لها التاريخ عبر كل أجياله مثيلاً.

إن مصر مدينة له بالخلاص، كما أن حريتكم اليوم بعضاً يسيراً مما فعله..

لقد كانت مصر وخلفهما الأمة العربية والإسلامية كمركبة تهوى من قمة جبل فكان هو البطل الذى كبح مقودها وأوقف انهيارها.. ولعله الأصغر سناً لكنه الأكبر شأناًوالأعلى همة والأكثر بطولة والأمضى عزماً والأعظم تضحية.. فلا تنكروه كما أنكر أهل الكوفة الحسين.. وتمضى السنون حتى ندرك قيمته فنشق الجيوب ونلطم الخدود أن ضيعناه.. لو أن حسنى مبارك يسمع صوتى لذهبت إليه.. لكنكم أنتم تستطيعون لقاءه وتستطيعون أن تنقلوا له مشاعر الناس نحو خالد الإسلامبولى ورفاقه.. وأن سكوتكم ليس سكوت الرضا وإنما سكوت القهر والحزن.. ولم يكن سكوت أهل العراق على قتل الحسين سكوت الرضا.. وإنما فجر يزيد وسيف الحجاج كانا للرقاب بالمرصاد.. الآن يرى الناس ألف يزيد وألف حجاج فما ظنك بهم.. لكنّهم يأملون بحسنى مبارك خيراً فليس من جماعة يزيد، وإن الذى قاد الطيران المصرى فى حرب أكتوبر باذلاً حياته عن رضا كى يهدى أمته فرحة نصر لابد أن يسمع وجيب القلوب ويعلم إلام تهفو النفوس.. إننا نعلم أنه منا.. وأن قلبه معنا.. لكننا نرجو الله ألا يكون سيفه علينا.. اسألوه عن شعوره والسادات يبيع نصرنا ونصره.. اسألوه عن شعوره والسادات يسحب الجيش من سيناء.. اسألوه عن شعوره والسادات يضيع أمة ويذهب إلى اسرائيل.. اسألوه عن شعوره وهو يلقى مناحم بيجين وموشى ديان لقاء الأحبة.. اسألوه عن شعوره وهو يسمع السادات يكذب فيلوث شرف الأمة وشرف أبطالها. اسألوه عن شعوره وهو يرى بعض آل السادات لصوصاً ينهبون مصر.. اسألوه عن شعوره وهو يرى حسين الشافعى.. ذلك البطل العظيم الذى كان نائباً لرئيس الجمهورية قبله والذى كان رافضاً لما يفعله السادات فمنعه تماماً من ابداء رأيه حتى اضطر وهو نائب لرئيس الجمهورية أن يذهب للمساجد يستنهض الهمم لإنقاذ مصر.. اسألوه عن رأيه فيما حاق بمصر من خراب بعد أن تحولت ثرواتها إلى جيوب اللصوص والجوارى.. اسألوه عن هضبة الأهرام وصفقة الأتوبيسات وصفقة الحديد ونفق أحمد حمدى ومشروع الصالحية.. اسألوه عن الانفتاح والانذباح.. اسألوه عما نشرته الصحف الأمريكية من أن السادات كان جاسوساً للمخابرات الأمريكية منذ أوائل الستينيات وأنه كان يتلقى مرتباً شهرياً منها.. اسألوه عن دور السادات المشبوه فى حرب ٦٧ وفى موت جمال عبد الناصر.. اسألوه لو لم يكن السادات رئيساً لمصر.. ولو أن المخابرات الأمريكية نصبت رئيساً غيره فماذا كان يمكن أن يفعل أكثر.. أسألوه عن الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى ودول عدم

الانحياز.. اسألوه عن جيهان السادات تقبل كارتر ويقبلها بيجين وبناتها يراقصن خوليوس احتفالاً بذكرى جمال عبد الناصر.. اسألوه عن شعوره والسادات يفكر فى رهن قناة السويس والانضمام إلى حلف الأطلنطى.. اسألوه عن شعوره ازاء الاستفتاءات المزيفة.. اسألوه عن شعوره ازاء الخطب النابية تجرح أعظم رجال مصر.. اسألوه عن شعوره والسادات يصفق طرباً لاسرائيل وهى تغزو جنوب لبنان وتذبح الفلسطينيين.. اسألوه عن سكان القبور فإن أنكرهم فعن سكان القصور.. اسألوه عن مصر تذبح.. اسألوه عمن يسبى أمه ويبيعها لمغتصبيها، وهى التى غذت آله صغاراً فرضعوا حراماً حتى إذا بَلغوا فطاماً طاب لهم الحرام مقاماً[1].. اسألوه عن سليمان الحلبى.. ألو كان قاضيه.. أكان قد قتله..

أسألوه عمن يَقتل أو يُقتل دفاعاً عن وطنه وعن عرضه، فما باله بمن قُتل دفاعاً عن الوطن والدين والتاريخ.. اسألوه عما أعلمه وتعلمونه.. وعما تعلمونه ولا أعلمه.. وعما يعلمه ولا تعلمونه.. اسألوه واسألوه واسألوه حتى يظهر الحق فيدمغ الباطل فإذا هو زاهق.. قولوا له أن التاريخ عبر آلاف الأعوام القادمة يرنو إليه وإلينا هل سنكون فى مستوى الحدث فنحتفظ بخالد الإسلامبولى بطلاً عظيماً، أم أننا سنعطيه للتاريخ شهيداً فى الجنة وشاهداً على أن أجيالنا قضت بالباطل وأمرت بالمنكر وقضت للظالم وأنكرت الحق. قولوا له أن قلب مصر كلها كان مع قلب أمه وهى ترى صورته فى الصحف أمام منصة العرض مضرجاً بدمائه فتهتف مرتاعة: «هذا هو ابنى وقد قتلوه».. أخبروه أن قلب مصر نفسها قد اختنق معها بالبكاء.. ثم التزم الصمت الحدادى الجليل مع أبيه وهو ينظر وينتظر.. أخبروه أن خالد الإسلامبولى قطعة من قلب مصر.. وكفى مصر جروحاً فلا تطعنوها مرة أخرى. أخبروه أنه إن قتل خالد الإسلامبولى فسوف يكون دمه فى عنقه يوم القيامة.

كان إبراهيم يونس يسمع وهو من الانفعال فى غاية وأكد لى أنه ومجموعة كبيرة من رجال مصر سيذهبون إلى حسنى مبارك لأجل ذلك.

وقطع الحديث دخول إبراهيم شكرى ومعه الدكتور محمود جامع فى حفاوته منوهاً أنه قريبه.

وبدأت محاكمة خالد الإسلامبولى ورفاقه..

---

(١) من مرافعة المستشار حسنى عبد الحميد فى قضية عصمت الساداتى.

وأوجس قلبى خيفة عندما قررت المحكمة أن تكون الجلسات سرية. فقد كان واضحاً أنهم يخفون عار السادات عنا وأنهم يتجنبون إلهاب مشاعر الجماهير الصامتة المترقبة. وكانت اسرائيل أيضاً مترقبة وأمريكا والعالم كله ينظر. وحاول المحامون لكن ماذا يفعل المنطق ازاء قلوب كالحجارة أو هى أشد قسوة.. وترامت أخبار هنا وهناك عن اشتراط اسرائيل لإعدام خالد الإسلامبولى ورفاقه قبل يوم ٢٥ أبريل موعد اتمام انسحابها من سيناء.

وصدر الحكم بالإعدام..

وساورنا أمل حزين بائس أن الطيار القديم والمحارب البطل سوف يفاجئ الدنيا كما فاجأها يوم ٦ أكتوبر فيخفف الحكم.

لكن حكم الإعدام رمياً بالرصاص نفذ فعلاً قبل يوم ٢٥ أبريل ١٩٨٣ وكان الرصاص الذى أطلق على خالد الإسلامبولى يصل إلينا فيشوى جلودنا ويمزق لحمنا ويحطم عظامنا.. وكان يوماً أسود آخر من أيام مصر السوداء.. وأدرك الناس أن الفجر لم يلح وأن الخلاص بعيد..

ووجدتنى أردد مع أمل دنقل:

لاتحلموا بعالم سعيد

فخلف كل قيصر قيصر جديد.

وخلف كل ثائر يموت.. أحزان بلا حدود.. ودمعة سدى.



عزبة التأمين الصحى
بين آلاف العـزب

مات السادات يوم مات.

بل مات قبل أن يموت.. ولم يؤجل إعلان موته سوى حراب حراسه.

ولم نكن نتوقع أن تنتهى المأساة بموته..

كان قد قامر بمستقبل وطنه وأمته.. وضيّعه.

ولم نكن نحتاج إلى موظف يشغل الدرجة الوظيفية لرئيس الجمهورية، بل كنا نحتاج زعيماً للأمة.

وصرح حسنى مبارك كثيراً أنه ليس جمال عبد الناصر وليس أنور السادات، وكنا نصدقه على الفور أنه ليس جمال عبد الناصر.. وكان يكفينا أن لايكون أنور السادات.. لكن الأيام الحبلى بحزن لايولد ولا يموت كانت تنذرنا كل حين وآخر أن السادات لم يمت.

ولكم تمنيت فى أعماقى أن يفعل حسنى مبارك مثلما فعل معاوية الثانى حين استُخلف بعد يزيد فرفض الخلافة مقراً بأن بنى أمية اغتصبوا الحق من أهله.. وليسوا له بأهل....

وتخيلت أنه سيقدم لأمته يداً تذكره بها أبد الدهر بأن ينهى الحكم العسكرى لمصر ليتولاها مدنيون يكون الحوار معهم بالكلمات والأفكار لا بالرصاص والسياط.

كان ماضى حسنى مبارك كبطل فى حرب أكتوبر يؤهله لذلك.

وكان التزامه الصمت طيلة حكم السادات يغرينا بتخيل أنه يرفض مثلنا.. وكانت الآفاق المظلمة للمستقبل لوسارت الأمور كما كانت تسير حافزاً له أن يبتدع طريقاً آخر.. فلم يكن مجرد موت السادات كافياً لأن تعود الأمور المقلوبة

إلى وضعها الصحيح. وبرغم فداحة الخسائر القومية والوطنية والسياسية والاقتصادية التى حاقت بنا فى عهده إلا أن ماهو أفدح منها جميعاً: أنه قضى على وجدان الأمة وروحها المعنوية وأخلاقياتها.. كان ما حدث لمصر فى عهده يشبه مايمكن أن يحدث لها بانهيار السد العالى.. غرقت الأشجار الراسخة وعطبت الثمار وبارت الأرض.. ولم يعد للمياه مصدر.. انهيار كامل شامل قضى على ماكان فى الماضى وعلى مايمكن أن يجئ فى المستقبل أيضاً.

فكيف يستطيع حسنى مبارك أن يقود بنا السفينة وسط هذا الطوفان المهلك إن لم يغير المسار.

لكن ماظننته منطقياً لم يؤيده الواقع.. وراحت السفينة تخوض فى بحور الظلمات إلى مصير لايعلمه إلا الله.

وكان مايحدث فى المجتمع انعكاساً لما يحدث فى القمة.. وكانت الغيلان والأفاعى التى ولدت فى عهد السادات قد اشتد عودها وازداد نهشها فى لحم الأمة.

كان الصراع الدائر فى الشارع المصرى فى عهد حسنى مبارك صراعاً ضارياً بين أبطال يحاولون وقف الانهيار تمهيداً لاستعادة مجدنا القومى ومجرمين يحاولون بيع ما لم يبع بعد.. كان كل شئ عندهم معروضاً للبيع.. بالجملة وبالقطعة.. الوطن وأجزاؤه من شركات ومؤسسات وقطاعات مختلفة.

وكان هم الوطن همّى، وحزنه حزنى، ومأساته مأساتى.. ولم أكتف كبطلى صمويل بيكيت بانتظار جودو، بل رحت أبحث عنه عندما وضعتنى الظروف أمام نموذج للفساد الذى يستشرى فى جسد الأمة.

وفى ظل كل هذه الأحداث بدأ صراعى فى الهيئة العامة للتأمين الصحى ملخصاً بشاعة ماكان يحدث للوطن.

ذات يوم فاجأنى الدكتور محمود جامع بأنه يريد أن يعيننى مديراً للمستشفى فقاومت بعنف.. كنت أخشى فى داخلى أن أكتشف عند إدارة المستشفى انحرافاً لن أستطع الصمت عنه.. كانت شخصية الدكتور جامع كرجل متدين وعضو سابق بالاخوان المسلمين تنفى عنه الشبهة.. لكننى كنت أتوجس من أقاربه العديدين الذين يتولون جميع المناصب الهامة.. كما أن علاقته بالسادات كانت علامة استفهام لم أستطع الإجابة عنها.

وبرغم كل اعتراضاتى فقد صدر القرار قبيل مصرع السادات.



كان قاسياً على الدكتور محمود جامع أن أعبر عن فرحتى بذهاب السادات فى مستشفى المبرة، وكانت أعظم وأعمق فرحة فى حياتى متجاوزة أفراح الحياة الخاصة والعامة.. كانت حلماً شخصياً وتحقق.. ولم يكن استياء الدكتور جامع بسبب حبه للسادات فقد بدأ هو نفسه يهاجمه يوم مات.. لكنه كان يدرك أنه هو الآخر سادات وأننى ضد السادات الفكرة والسلوك لا الشخص.

وبرغم بغضى للسادات فإن مشاعرى لم تحتمل أن أشاهد شريط فيديو أحضره لى صديق عن تفاصيل مصرعه.. أو لعلى خشيت أن يشوب رفضى له أى نوع من العطف عليه.

وإننى هنا أستأذن القارئ كى أقطع تسلسل الأحداث لأوضح نقاطاً هامة.. أن قضية الدكتور جامع فى الثمانينيات تكاد تكون صورة طبق الأصل من قضية محمد توفيق عويضة فى السبعينيات.. نفس السقوط ونفس التستر.. ولعل القارئ يذكر صرخة عادل عيد فى مجلس الشعب سنة ١٩٧٨ محذراً من تردى الأوضاع فى مواقع أخرى من جهازنا الحكومى بتكرر ظاهرة توفيق عويضة.. كما أننى أنبه القارئ أننى لن أذكر التفاصيل التى حدثت فى مستشفى المبرة لأنها بنفسها كانت تحدث فى مصر كلها.. وإننى أعيد هنا ماذكرته فى البداية أن الأمور شديدة الترابط وأن الكل هو مجموع الأجزاء.. وأن تخريب مستشفى المبرة هو نفس التخريب الذى حدث لمصر.. وأريد أن أقول للقارئ أن أبشع الجرائم قد ارتكبت تحت غطاء من أعظم الشعارات.. ولقد كان مذهلاً لى أن يخفى البعض تحت عمامة الدين أقنعة لصوص.

كان الدكتور جامع أحد الأعضاء الأقوياء فيما اصطلح على تسميتهم بمجموعة السادات والذين لايتورعون ـ كسيدهم ـ من أن «يطربقوها على دماغ الكل»[(١)].

ولعله يكون مناسباً هنا أن أستشهد بصحيفة الجارديان الإنجليزية.. مؤكداً للقارئ أن انجلترا ليست من دول الرفض وأن الصحيفة لاتتلقى أوامرها من موسكو. حيث تقول الصحيفة أن مافيا السادات تدفع بمصر للكارثة وأنها ترد بضراوة على أى تحرش بامتيازاتها.. وبالنسبة لتلك المافيا فإن تطبيق قوانين الرأسمالية الأمريكية عليهم يبدو لهم شبيهاً بتطبيق الشيوعية فى أمريكا..

---

(١) كلمة أنور السادات فى ١٥ مايو.

وذكرت الصحيفة أن حسنى مبارك يميل للانقضاض على هذه المافيا.

انتهى حديث الجارديان..

ولقد كانت أكثر صدقاً فى تصوير الحقيقة وفهمها من أكداس الورق المطبوع بالزيف والكذب فى مصر.

ولقد حاولت هذه المافيا إلغاء أجهزة الرقابة فى مصر قبل ذلك.. ونجحت... ولسوف تحاول بعد ذلك إلغاء النيابة الإدارية أيضاً بعد أن مثّل رئيسها رفعت خفاجى عنصراً شديد الخطورة عليهم، فهو لا يهاب ولا يعاب. بل أن هذه العصابة ستحاول فيما أظن أن تسبق انقضاض حسنى مبارك عليها بأن تنقض هى عليه.. إن الأمور تزداد حدة ووضوحاً.. ويتأكد الاستقطاب كل يوم.. فتصبح هذه العصابة ممثلة للشيطان وأبى جهل ويصبح الشعب هو المهاجرين والأنصار. وقد نختلف مع حسنى مبارك كثيراً إلا أنه منا.. وربما نجح فى تأجيل الصدام لكنه آت لاريب فيه.. إلا أن كل تأجيل هو خطر كبير على حسنى مبارك وعلينا.

أريد أن أؤكد للقارئ أننى لا أقصد انحرافات التأمين الصحى كوقائع معزولة وإنما كنسيج عضوى متصل بكيان غول الفساد الهائل فى مصر.. وأن قارئ هذا الكتاب يمكنه أن يرفع اسم مسئولى التأمين الصحى ليضع مكانهم اسم رئيس مؤسسته أو محافظ مدينته.. بل ويمكنه أن يستبدل الاسم بأسماء وزراء ونواب لرئيس الوزراء ورؤساء وزراء.. كما يمكنه أن يضع مكانه أعضاء كثيرين فى مجلس الشعب والشورى.. ولقد كانت الصدفة فقط هى التى جعلت التأمين الصحى مثلاً على هؤلاء.

ومرة أخرى فأنا لا أقدم قضية فساد وإنما كيف تعالج الأجهزة المسئولة قضية فساد.

أقدم مثلاً على طرق نهب مصر..

وأقدم نموذجاً يفسر تضخم ديونها الهائلة..

وأقدم مثلاً يفسر إهدار امكاناتها..

وأقدم صورة عن موقف الأجهزة الرسمية من كل هذا..

وأقدم مثلاً على تورط الصحف فى تمجيد الباطل وتسفيه الحق..

وأقدم مثلاً على ما أصاب المجتمع حتى أصبح الفساد فيه عادة لاتثير ما كانت تثير من اشمئزاز..

أقدم لكم صورة واحدة فهل تغنيكم عن مئات الآلوف..

ولقد حرصت أن أقدم لكم هذه الصورة فى اطارها الطبيعى فى خضم حالة الإحباط القومى والفشل والهبوط العقلى الذى تعانيه أمتنا.. فما يحدث وثيق الصلة ـ مثل ابن غير شرعى ـ لهزيمة ٦٧ وزيارة القدس وكامب ديفيد.

❁ ❁ ❁

لو استعرت تشبيهاً من فن المسرح لكانت واقعة مناقصة شراء أجهزة الأشعة للتأمين الصحى هى بمثابة لحظة التنوير فى المسرحية.

وفوجئت بأعضاء اللجنة يتعرضون لضغوط شديدة لاختيار الأغلى، بل وفوجئت أيضاً بتقرير مزور مقدم باسمى إلى الإدارة المالية كى يحصلوا على موافقتها بشراء الأغلى.

تفاصيل الضغط يمكن لأى قارئ أن يدركها لأنها تحدث له شخصياً أو يسمعها ممن يثق فيهم، لذلك لاداعى لسردها تفصيلاً وإن كانت صفحات الصحف ممتلئة بها(٢).

تجمعت الخيوط أخيراً عندما طلبت أعضاء إدارة الشئون المالية للاجتماع بهم لتفسير ماكان ينقل إلىّ وإليهم من بيانات كاذبة بغرض التأثير على القرار.

وكان مذهلاً لى أن أرى عمق الفساد الذى أطفو عليه. كما كان مهيناً لكرامتى أن أكتشف أننى وضعت كممدوح سالم والشيخ شعراوى لخداع الناس وامتصاص الغضب بوضع واجهة يثق الآخرون أنها نظيفة لكنها تخفى خلفها العفن.

وكان مذهلاً أيضاً أن أرى تورط رئاسة الهيئة والفرع.. والذين يحجون ويعتمرون كل عام..

ولما كنت ميالاً دائماً لأن ألتمس للآخرين سبعين عذراً فإن لم أجد فالعيب فىّ، فقد أخذت بمنهج الشك فى تفسير مايحدث.. فربما كان بعض صغار الموظفين خلف كل هذا الفساد.. ولكى يكون موقفهم قوياً فإنهم يستعملون أسماء الرؤساء.

لكن الأحداث الرهيبة والفاجعة التى حدثت للدكتور محمد سليم والمواطن عزت السمسار كانت تلقى ضوءاً كاشفاً كى تواجهنى الحقيقة مفزعة.. أن

---

(٢) نشرت الصحف أكثر من ستين موضوعاً عن انحرافات التأمين الصحى.

السادات كلما قطع له رأس نبت مكانه رأسان.

ولقد شهدت يوم ١٥ مارس ١٩٨٢ طرفاً يسيراً من هذه الحادثة المذهلة التى لم تجتمع لدى تفاصيلها إلا بعد ذلك بوقت طويل. حيث عرفت جزءاً منها من الدكتور محمود جامع نفسه.. وجزءاً آخر من بعض من شاركوه.. وجزءاً ثالثاً من الدكتور صبرى زكى وزير الصحة وقتها إلا أن الصورة لم تكتمل أمامى إلا بعد أكثر من عام عندما قابلت الدكتور محمد سليم والمواطن عزت السمسار فقصّا علىّ بأنفسهما ماحدث لهما.. ولعله من المناسب أن أذكر الواقعة كما فهمتها أخيراً بصورتها الكاملة وليس كما اكتشفتها جزءا جزءا..

بدأت هذه الواقعة فى فبراير ٨٢ عندما استطاع البعض الحصول على نموذج أجازة مرضية مختومة ومعتمدة من عيادة طلعت حرب بالمحلة الكبرى ودوّنوا بها أن اسم المريض هو الدكتور صبرى زكى وزير الصحة، وأن الطبيب المعالج هو الدكتور محمود جامع وان تشخيص المرض هو تسيب مالى وانهيار أخلاقى.. كما منحوا وزير الصحة أجازة مرضية لمدة ثلاثين يوماً.. ثم استعانوا بخطاط من المحلة الكبرى ليكتب لهم شكوى عن انحرافات التأمين الصحى وصوروا من الشكوى والاجازة عشرات الصور التى أرسلوها إلى عشرات المسئولين من بينهم وزير الصحة ورئيس الوزراء ورئيس الجمهورية.. واستشاط وزير الصحة غضباً فعلق كتابة على الشكوى: «يبدو أن العمل فى فرع وسط الدلتا أصبح تهريجاً» وحوّل الشكوى إلى رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة للتأمين الصحى الذى حوّلها بدوره إلى الدكتور محمود جامع.. وهنا كانت العلاقة الوطيدة بين الدكتور جامع وأجهزة المباحث أثرها، فقد فكّر بطريقتهم وتصرف أيضاً.. واستطاع بطريقة بالغة الذكاء أن يعرف أن كاتب الشكوى مواطن من المحلية الكبرى اسمه عزت السمسار.. وتم استدعاؤه من المحلة الكبرى إلى مكتب الدكتور جامع فى طنطا، حيث استمر استجوابه لمدة أربعة أيام بعد أن أفهموه أن القائمين باستجوابه عميداً بالمخابرات العامة وعقيداً بمباحث أمن الدولة ومساعد أمن.. وأنهم يقومون بالتحقيق معه بناء على توصية جهات عليا باعتبار عضوية الدكتور جامع فى مجلس الشورى وصداقته للسادات.. كانوا يسجلون أقواله.. كما كانوا يواجهونه بتسجيلات سجلوها لآخرين يتهمونه.. كانت التحقيقات تستمر من المساء حتى قبيل الفجر.. وكان القائمون بها أصدقاء الدكتور جامع وأقاربه وليسوا رجال أمن.. واستمر عزت السمسار صامداً لمدة ثلاثة أيام رغم الضرب المبرح.. وفى

اليوم الرابع هددوه بخطف ابنه أو باعتقاله، فانهار واعترف بأنه كتب الشكوى بالاشتراك مع الدكتور محمد سليم وتحت التهديد رضخ لهم فوضعوا جهاز تسجيل صغير فى طيات ملابسه وذهب إلى الدكتور محمد سليم فى منزله واستدرجه فى الحديث حتى يستعيد ما كتباه فى الشكوى.. وكان بالخارج سيارتان تنتظران.. احداهما حملت جهاز التسجيل والأخرى حملت الدكتور محمد سليم بالرغم منه من المحلة الكبرى إلى طنطا.. حيث ووجه فى حضور الدكتورجامع ومنتحلى شخصيات رجال الأمن ـ بالتسجيل الصوتى.. وضرب بقسوة حتى الفجر.. ثم أرغموه على كتابة إقرار بأنه هو كاتب الشكوى وأنها كيدية والمعلومات الواردة بها غير صحيحة وأنه كتبها بسبب الحقد[٣]. كان محمد سليم فى غاية الرعب وهو يرى كل ذلك يحدث فى وجود من ظنهم رجال أمن. واستطاع أن يضيف إلى توقيعه على الإقرار ـ خلسة ـ التوقيت.. وكان الخامسة والنصف صباحاً عسى أن يكون ذلك دليلاً على ماحدث له.

وتوجه إلى والد زوجته وهو قاض فأخذه إلى رئيس النيابة العامة الذى نصحهما بعدم تقديم بلاغ لاجدوى منه واقترح عليهما اللجوء إلى مباحث أمن الدولة.. وكان كل مافعلته مباحث أمن الدولة أن تعهدت له بأن تتوسط له لدى الدكتور جامع كى لايستمر فى إيذائه. ولم يكتف الدكتور جامع بذلك، بل أجرى تحقيقاً إدارياً مع الدكتور محمد سليم انتهى بنقله خارج التأمين الصحى وخصم خمسة عشر يوماً من راتبه.. وكان الذهول مستبداً بى.. هل يمكن أن يحدث هذا كله.. ومن الدكتور محمود جامع.. الحاج المعتمر كل عام.. وأحد كبار الاخوان المسلمين والسياسى الشهير، الذى لاتكف الاذاعة والتليفزيون والصحافة عن الإشادة به.. وقلت لنفسى أن هذا الرجل كالسادات تماماً.. وأن مايفعله هو في مارس هو نفس مافعله السادات فى سبتمبر.. كنت حائراً كيف أتصرف.. لو أبلغت أنا النيابة أو البوليس أو المحافظ فكلهم أصدقاؤه وسيخبرونه بالتليفون قبل أى محاولة لضبطه.. فضلاً عن أنه عضو مجلس الشورى ويتمتع بالحصانة.

وفى الأيام التالية عرفت أجزاء أخرى مما حدث فى مكتب الدكتور جامع لمحمد سليم وعزت السمسار.. وكان يدرك اعتراضى وامتعاضى فاستدعانى محاولاً اقناعى.. وأطلعنى على اعتراف محمد سليم بأنه هو الذى كتب الشكاوى

---

(٣) نفس تعبيرات السادات.

وأنها كيدية وغير صحيحة.. وفى نهاية الاعتراف لاحظت أن الدكتور محمد سليم قد كتب تحت توقيعه: الخامسة والنصف صباحاً.. وأن الشئون القانونية تجرى الآن تحقيقاً مع محمد سليم.. وقلت للدكتور محمود جامع أن هذه الورقة تدينه هو.. فأى اعتراف هذا الذى يتم الحصول عليه فى الخامسة والنصف صباحاً.

وازاء الحملة الصحفية التى أثارتها القضية بدأت النيابة التحيق لكنها عجزت عن الحصول على أى مستند أو دليل بعد أن تُركت الفرصة شهوراً طويلة للعديد ممن شاركوه للسفر إلى الخارج ووصل الأمر أن أحد الأطباء الذين شهدوا بالحقيقة أمام النيابة فصل من عمله فى الأسبوع التالى برغم استغاثاته بالنيابة العامة والنيابة الإدارية.

وذهب الصحفيان محمد السايس ومصرى البرديسى من صحيفة الأحرار وواجها الدكتور جامع بما نشر، فحاول معهما الترغيب والترهيب: وبالترغيب وعدهما بأنه سيصرف لقريب أحدهما مبلغ ستة آلاف جنيه من التأمين الصحى، وهى مصاريف علاج فى إحدى المستشفيات الاستثمارية. وبالترهيب أخبرهما أنه صديق شخصى لمصطفى كامل مراد.. لكن الصحفيين الشريفين نشرا القصة كما حدثت:

(توجهت الأحرار(٤) إلى الدكتور جامع.. وواجهته بما نسب إليه فقال أنه حتى الآن لم يذهب إلى النيابة، أو لايعلم شئ عن الذى نشر من ضبطه واحضاره.. وأضاف د. جامع قائلاً أننى لم أقم بخطف الدكتور محمد سليم أو المواطن عزت السمسار كما يدعون ولكنهم حضروا إلى المستشفى برغبتهم دون أى ضغوط من أحد، وكل ما فى الموضوع أننى كنت مكلفاً أن أعرف مصدر هذه الشكاوى وسر الأجازة المرضية التى منحت للمسئول الكبير لأنها عمل غير مشروع أن يقوم كمسارى أتوبيس بمنح أجازة مرضية ٣٠ يوماً لمسئول كبير فى الوزارة.

وأضاف: التقيت مع عزت السمسار.. وقلت له «أننى أريد أن أتعرف عليك ونكون أصدقاء وحضر إلى المستشفى وتناولنا الغداء مع بعض وتكرر حضوره إلى المستشفى أكثر من مرة واعترف بكامل ارادته ورغبته ثم واجهته مع

---

(٤) الأحرار العدد رقم ٣٧٣ ص٣.

الدكتور محمد سليم وحدثت مشادة بينهما اعترف كل منهما على الآخر».

وعندما سألت الدكتور جامع إذا كانت هذه الحقيقة فلماذا التزم بالصمت برغم كل مانشر عن هذه القضية؟ فأجاب الدكتور جامع: أن التزامه بالصمت ورا ء أسرار لو أفصح عنها فسوف تؤدى إلى خراب بيوت(٥) .. وسألت الدكتور جامع بتردد أنك كنت تتمتع بسلطة شديدة فى نقل أى دكتور أو موظف فى منطقة وسط الدلتا وغيرها فأجاب د. جامع أنهم يتهموننى بذلك لأننى كنت قريب للرئيس الراحل أنور السادات.. وهذا ليس ذنبى أن أنور السادات كان صديقى.. وكل مايثار هو حقد على شخصى).

وكشفت لى وقائع الدكتور محمد سليم حقيقة ما يحدث فتحول الشك إلى يقين.

إن الأجهزة التى اشتريت بملايين الجنيهات دون أن تستعمل قد تم شراؤها بنفس الطريقة التى يريدنى المسئولون الآن أن أبرم بها مناقصة أجهزة الأشعة.

كان غضبى عظيماً.. وكان جرحى أعظم عندما أتى منهم من يعرض علّى بشكل غير مباشر نصيبى فى الرشوة أو العمولة.

ولم يكن جرحى من أجل كرامتى فقط. بل أدركت جزءاً مما يحدث فى القمة وكيف يُورط أبرياء كان يمكن أن يخدموا الوطن ليتحولوا من شرفاء إلى لصوص عندما يُخيرهُم الشيطان بين أن يكونوا لصوصاً أو يفقدوا كل شئ.

وتحولت مناقصة أجهزة الأشعة ليس إلى قضية شرف، بل إلى اختبار عملى للدين والوطنية والشرف والثقافة.

ولم يكن يكفى أن أقول لا بقلبى ولا بلسانى فقلتها بيدى وبقوة.. وتمت الاجراءات الصحيحة(٦).

وبدأت على الفور ابحث قضية الأجهزة التى اشتريت فعلاً ولا تستعمل..

---

(٥) لم يلتزم الصمت. وإنما أبلغ وزير الصحة والجهات الأمنية أنه اتخذ هذا الموقف لأسباب لا أخلاقية تتعلق بعلاقات مشينة وكان كذباً لكنها كانت نفس الطريقة التى يتبعها نظام السادات لتشويه معارضيه.

(٦) بعد استقالتى وبرغم وصول أجهزة الأشعة التى وافقت عليها وتشغيلها قامت هيئة التأمين الصحى باستيراد الأجهزة التى رفضتها وبمواصفات أسوأ ولم تستعمل الأجهزة لأعوام لعدم مطابقتها للمواصفات واحتياجها إلى تعديلات تربو قيمتها على ٨٠ ألف جنيه.. وقد ورد هذا فى تقرير الرقابة الإدارية الذى أهدر.

ووضعوا أمامى العراقيل فتقدمت باستقالة مسببة إلى وزير الصحة لكن أحداً لم يستجب.

■□■□■

ربيع ١٩٨٢.. رياح الخماسين.. طلقات الرصاص ودوى المدافع والطائرات فى لبنان.. بحر الدم المهراق بين العراق وإيران..

أرواح الشهداء بلا ثمن..

الكرامة مسفوحة..

الحقيقة تقبع خلف جبال الظلمات.. فمن أين لنا ببطل من أبطال ألف ليلة وليلة تحمله الجن على أجنحتها كى يمسك أهداب اليقين..

من هو العدو.. كانت الإجابات قبل ذلك فى كل العصور واضحة.. الآن يجرم القانون من يقول أن اسرائيل عدوة.. من نعادى الآن ومن نحارب.. اسرائيل ومن معها فى الخارج.. أم أصدقاءها فى الداخل.. أم أولئك اللصوص الذين انتهزوا حقبة الانحطاط القومى الذى نعيشه فأخذوا يعيثون فى البلاد فساداً.

وأنـــــا..

ماهو موقفى ازاء ذلك كله.. كنت قد رسمت لحياتى أن أعيشها فى بطون الكتب، مستلهما عبرة التاريخ ومتذوقاً رحيق فنونه.. الآن أهبط من أبراج الخيال التى اصطنعتها لنفسى إلى شوارع الواقع..

وكان ينبغى علىّ اتخاذ قرار..

هل أجعل من الفساد فى التأمين الصحى قضيتى..

وماذا يعنى ذلك بالنسبة للقضايا التى أهتم بها..؟ كانت قضيتى قبل ٦٧ هى قضية الوجود والعدم والحياة والموت والتاريخ والفلسفة والفن وجدوى كل هذا.. وكنت أحاول أن أحمل العقل البشرى بما لم يخلق له.. كمن يحاول أن يطير بسيارة أو أن يصل إلى القمر بطائرة.. فكلاهما لا محالة هالك..

وأتت هزيمة ٦٧ فأسقطتنى أرضاً، كما تسقط قذيفة الصياد طيراً.. وتحولت قضيتى من المطلق إلى النسبى.. من الخيال إلى الواقع.. وأصبحت قضيتى هى قضية الوطن، وأتى السادات فباع القضية وباع الوطن.. فما هى قضيتى إذن..؟

وبعد السادات أتى حسنى مبارك فأملنا فيه خيراً وشبهه محمد حسنين هيكل بالطيار الذى يجرب آلات طائرته تمهيداً لأن ينطلق.. لكن الزمن يمر ولا ينطلق.. فيا لها من مأساة أن أتخلى عن هذا كله وأن أظل عبر حياتى أحاصر

وأحاصر فأنسحب وأنسحب وتتقلص الأرض تحت قدمىّ فلا يعود لى من قضية إلا أن أحارب فساد التأمين الصحى.. ثم ماذا.. حتى لو انتصرت.. فلن أقضى إلا على سادات واحد من مائة ألف سادات..

إن الواقع مر ولا أمل..

ولأعترف نيابة عن جيل كامل بالهزيمة وأنسحب.

❋ ❋ ❋

استشهاد الحسين

سقـوط عرفات

كان عام ١٩٨٢ عاماً بلا أعياد

وكما يفيض النيل كل عام فقد فاضت أحزان الأمة كحمض حارق يكوى جروحاً لم تندمل ولن تندمل.

وصبيحة عيد الفطر فى ذلك العام كان آلاف المسلمين يحتفلون باليوم الجليل بعد أن أدوا فريضة الصيام فى رمضان رافعين صيامهم إلى الله فهو له وهو يجزى به.. وبرغم أن المسجد الأقصى أسير فقد كانوا يحتفلون بالصلاة والدعاء.. وفجأة انطلقت ١٨٠ رصاصة غادرة لتردى ثلاثة وتصيب مائة وخمسين مصل بإصابات خطيرة..

كان الجندى الاسرائيلى آلان جودمان يقف على قبة الصخرة يصلى المصلين نيرانه.. وأتت الشرطة العسكرية الاسرائيلية مسرعة فحمت الجندى الصهيونى من غضب جارف للمسلمين.. وفى سبيل حمايته أطلقت النار هى الأخرى على الجماهير الغاضبة الثائرة فسقط مزيد من الجرحى.

كان المسجد الأسير يبكى.. وكانت قلوب المسلمين تبكى، وكان التاريخ يبكى، وكانت الملائكة تنعى إلى الله فجر بعض بنى الإنسان.. أما زعماء العرب فقد كانوا كأمراء الأندلس.. فماذا يفعلون وقد تحالف كل منهم مع عدوه نكاية فى أخيه وتوطيداً لأركان ملكه.. ولو أن عربياً قد فعلها فى بلد عربى آخر لتحركت جيوش وقامت حروب وسالت دماء الآلاف دفاعاً عن الشرف والعقيدة.

الشرف كل لايتجزأ. أما حكامنا فلهم شرفان: شرف يبيعونه وشرف آخر يتباهون به على صفحات الصحف وعلى شاشات التليفزيون.

وشجب العرب وغضب العرب وحزن العرب ولطمت اسرائيل خدود العرب ثم

لاشيء.. فاللهم نشهدك أننا نؤمن بك ونقر بعدلك.. وأننا نعلم أن ما يصيبنا من نوائب فمن أنفسنا بعد أن ولينا علينا شرارنا ورجمنا خيارنا.. لكننا لم نولهم نحن يارب.. بل ولاهم علينا عدونا وعدوك..

وتمر الأيام وحكامنا صامتون.. إنهم يتبعون المثل العربى القديم ان الصمت من ذهب.. فقط أحدثوا تطويراً صغيراً على المثل كى يناسب تطور حضارتهم.. كان السكوت من ذهب. الآن أصبح ثمن السكوت ذهب. وعندما نشرت صحيفة أمريكية كبرى أن الساكت الأكبر أنور السادات كان يتقاضى دخلاً ثابتاً من المخابرات الأمريكية لم يجرؤ أحد أن يكسر حوائط حكمة الذهب.

وتمر الأيام فيأتى ٥ يونيو سنة ١٩٨٢ بالألم الفاجع.. كتل المرارة العلقمية التى لاتغسلها دموع ولا يمحوها زمن..

ففى عشية مثل ذلك اليوم فى عام ٦٧ بات العرب على حلم أنهم سيستيقظون فى اليوم التالى وهم يطرقون أبواب تل أبيب، فاذا بتل أبيب لاتطرق أبوابهم فقط، بل تحطمها تحطيماً.... ضاعت بشائر النصر التى كانت سترفع المسلمين لألف عام.. وأتت وطأة الهزيمة الساحقة، لكننا صبرنا على البلاء يارب وتمسكنا بإرادة القتال، وتجمع العرب كما لم يتجمعوا فى تاريخهم الحديث حتى كدنا أن ننتصر فى عام ٧٣ فأبلينا بلاء حنى العالم هامته أمامه احتراماً.. حتى أطلق علينا القوة السادسة.. وكدنا نشرف مرة أخرى على عالم من النصر بعد دهور من الهزائم، لكن السادات يقرر أن يبيع شرفه العربى بلا ثمن وأن يستعمل بدلاً منه شرفاً أمريكياً وآخر اسرائيلياً فيزور القدس ويتصالح مع اسرائيل.. ويبارك المملوك الكبير مماليكه الصغارويؤيده أغواته.. وتنسحق قلوبنا تحت وطأة الذهول والأسى.. وتنهش كلمات أمل دنقل فينا كما كان السرطان ينهش جسده..

«لا تصالح.. ولو منحوك الذهب..».

«ترى حين أفقأ عينيك ثم أثبت جوهرتين مكانهما.. هل ترى..».

«هى أشياء لاتشترى..».

لكن السادات باع مالايباع. فدخلنا فى عصر الهيمنة الاسرائيلية، وجاء يوم ٥ يونيو ١٩٨٢.. واجتررنا مرارة الذكريات، لكن القلب المنكوء يتمزق فى صبيحة ٦ يونيو عندما تبدأ اسرائيل فى اجتياح لبنان.. ويتلقى حكماء العرب الخونة تأكيدات أمريكية بأن العملية كلها تقتصر على أربعين كيلو متراً تؤمّن

بها اسرائيل حدودها.. وكانت المقاومة الفلسطينية كجذوة الضريم الباقية فى نار الجسد العربى الميت.. وكانت بالتأكيد أشد خطورة على عروش حكامنا من خطورة اسرائيل التى يحكمها الصديق العزيز بيجين.. لكن اسرائيل لاتكتفى حتى تحاصر بيروت.. أوّل عاصمة عربية تحاصرها اسرائيل.. البقية آتية يا أنور بيجين ويا مناحم السادات وياموشى صبرى ويامصطفى بيريز وياشامير خليل وياعثمان أحمد ديان.. وحوصرت كبرى مدائن العرب من داخلها فلم لا يحاصرون بيروت.. وتقاوم المقاومة الفلسطينية واللبنانية مقاومة تعيد للأذهان نضال المسلمين الأوائل.. لكن حاكماً عربياً واحداً لايتحرك.. وتسحق صور وصيدا وقلعة الشقيف سحقاً يثير العالم كله.. لكن أحداً فى شوارع مصر لم يتحرك.. أما باقى البلاد العربية فقد اكتفت بمظاهرات الشجب والنواح.. وتضع اسرائيل نفسها لحجم المجزرة البشرية.. ويتظاهر مائة ألف اسرائيلى متهمين بيجين بأنه مجرم وسفاح ومجنون ويطالبون بعرضه على أطباء للأمراض العقلية.. وانهال فيضان الدم فى لبنان.. ووصف الصحفيون الاسرائيليون أنفسهم أن كم الدمار الذى شاهدوه لم يحدث فى الحرب العالمية الأولى ولا الثانية.. كان جيش من أحدث الجيوش فى العالم يحارب ثمانية آلاف من رجال المقاومة.. تسعة وسبعون يوماً وبيروت محاصرة ونحن أيضاً محاصرون.. ويظهر ياسر عرفات على شاشات تليفزيون العالم مختنقاً ومحتقناً بالدم رافعاً علامة النصر.. تسعة وسبعون يوماً كان يمكن فيها لجيوش أن تجهز وتتحرك وتضرب فتقتل فتَقتل أو تُقتل فى سبيل الله.. لكن الحكمة ـ التى تساوى فى أسواق مال المخابرات الأمريكية والصهيونية أكثر من ثمنها ذهباً اكتفت بتحرك دبلوماسى.. وانتظر ياسر عرفات من الجسد الميت أن يصحوا لكنه لايصحو.. ويحاصر مع ياسر عرفات فى بيروت الغربية نصف مليون رجل وامرأة وعجوز وطفل.

واإسلامـــاه..

تحركت جيوش العرب ذات يوم من أجل صرخة صرختها امرأة.. الآن نحن غثاء كغثاء السيل.. لاعن ضعف ولا عن قلة، وإنما عن جهل وخيانة وخسّة.

يا أيها الجيل القادم ولو بعد ألف عام..

فى هذا الوقت كان تعداد العرب أربعين ضعف تعداد اسرائيل.. وكان ناتجهم القومى عشرين ضعفاً وكان عدد جيوشهم عشرة أضعاف وكان حجم أسلحتهم أربعة أضعاف.. لكن ولاة الأمر فينا ضربوا علينا الذلة والمسكنة.

وياله من هوان مابعده هوان أن يشفق علينا حتى الإسرائيليون.. فيتظاهرون ضد حكومتهم.. إن كل مهانة يتذوقها العرب من نوع جديد لم يسبق لهم أن تذوقوه.

ويستمر الحصار ويستمر الصمت..

الجيش الاسرائيلى يحاصر بيروت..

يمنع عن أهليها الماء والطعام..

وتتساقط القنابل كالأمطار وتتناثر الأشلاء، وسط أنهار من الدم.. بيروت سبى مستباحة.. بيروت عطشى وجائعة..

والعطش فى تاريخنا جرح قديم..

ويوقظ الألم الساحق فينا تاريخنا الدامى..

ها هو مولانا الامام الحسين يقضى الليل ضارعاً داعياً مستغفراً.. وها هو يتدرع بدرع جده رسول الله ﴿ﷺ﴾ ويتعمم بعمامته ويتقلد سيف أبيه.. ويقود جيشه.. اثنان وسبعون فى مواجهة خمسة آلاف يمنعون الماء عنهم.. ويصيح الحسين فيهم بأعلى صوت:

ـ معاشر الناس: أما ترون إلى ماء الفرات تشربه الكلاب والخنازير وآل رسول الله يموتون عطشاً..

ويردون عليه:

ـ لن تذوق الماء ولا أحد من أصحابك بل تذوق الموت غصة.

ويشب القتال الهائل بين خمسة آلاف واثنين وسبعين.. ويعجز جيش الشيطان عن اختراق حلقة الأبطال التى تحيط بالامام الحسين فيشعلون النار حولهم..

ويصيح الحسين:

ـ ويلك ياشمر.. تريد أن تحرق خيمة رسول الله..

ويحين وقت الصلاة فيؤم صلاة الخوف فيهتف به كلب من كلابهم:

ـ ياحسين صل فإن صلاتك لاتقبل..

وينتهى الحسين من صلاته فيهتف بمن معه:

ـ هذه الجنة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها وزينت قصورها.. وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا معه وأبى وأمى يتوقعون قدومكم عليهم ويتباشرون بكم فحاموا عن دينكم وذبوا عن حرم رسول الله وعن

امامكم وابن بنت نبيكم فقد امتحنكم الله بنا فدافعوا بارك الله فيكم عنا.

واستمر القتال الرهيب مستعراً بلا توازن ورأى أصحاب الحسين أنهم قد كسروا وأنهم لايقدرون على مواجهة حجافل عدوهم فأخذوا يتسابقون إلى الشهادة كى يموتوا بين يدى الحسين وقبله.. ويتصاعد آل البيت شهداء.. ويموت الغلام الصغير القاسم بن الحسن وهو يهتف:

ـ ياعمـــاه..

ويهتف الحسين:

ـ بعداً لقوم قتلوك.. خصمهم يوم القيامة فيك جدك..

عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ثم لا ينفعك صوت والله كثر واتره وقل ناصره.

ورأى الحسين حما آل بيت رسول الله صرعى فأراد أن يرتوى قبل أن يموت فدنا من الماء فرماه رجل بسهم وقع فى فمه فانتزع السهم وملأ كفيه فامتلأت دماً.. فيهتف:

ـ اللهم انى أشكو إليك مايفعل بابن بنت نبيك.

وتهتف السيدة زينب:

ـ ليت السماء تطابقت على الأرض.

ويحتضن الحسين ابن أخيه الشهيد..

ـ يابن أخى أصبر على مانزل بك فإن الله يلحقك بأبائنا الصالحين.. برسول الله ﴿ﷺ﴾ وعلى بن أبى طالب وحمزة وجعفر والحسن بن على رضوان الله عليهم أجمعين.. ويرفع يديه إلى السماء هاتفاً:

ـ اللهم أنى أشهدك على هؤلاء القوم فإنهم نذروا ألا يتركوا أحداً من ذرية نبيك.. يا أم كلثوم ويازينب وياسكينة ويارقية وياعاتكة وياصفية عليكن منى السلام فهذا آخر الاجتماع..

ونزل الليث الصهور إلى ساحة الوغى وحده.. وعلته مهابة من الله فتحاشاه القوم.. حتى أتى كلب من كلاب الشيطان يدعى ابن ذى الجوشن فتحاملوا عليه من كل جانب فضربوا كفه اليسرى وعاتقه وهو ينوء ويكبو ويحاول القيام لمواصلة القتال فلا يقدر فينادى الله فى عليائه:

ـ صبراً قضائك لا إله سواك.

ويستشهد الحسين بعد أن يجتز الكفار رأسه ليصبح على مدى التاريخ

سرباله الدامى وعلامته على جبروت الظلم وكفره وليعطى للمسلمين درسه الخالد: النصر أو الموت.. فإن انتصروا فلدنياهم وآخرتهم وإن قضوا فلآخرتهم.

فافهم الدرس يا ياسر عرفات إذن. وسر على بركة الله مترسماً خطا الحسين ولتمت.

ابق فى بيروت حتى يذبحوك.. ولتكن دماؤك ودماء أصحابك نيراناً تحرق العروش الخائنة.

إياك أن تستسلم..

إياك أن تفاوض..

انزف دمك واكتب به كتابك الدامى عن خيانتنا..

اعطه للتاريخ مثلاً.. فسوف يوقظ قلوباً أعطبها العفن.. وسوف يهز أرواحاً دنستها الخطيئة وكللتها الخيانة.

لكن الحسين ليس له قرين.

وبنو أمية الجدد أشد ذكاء ودهاء من أجدادهم.. ولقد أدركوا أن دماء ياسر عرفات ستزلزل عروشهم وتحرقهم حرقاً.. فكانوا حريصين على حياته حرصهم على حياتهم، وذهبوا إلى كعبتهم فى واشنطن يتوسلون إلى إلههم هناك أن يمسك عليهم دم أخيهم، وكان إلههم ذكياً هو الآخر.. بل كان يخشى أن يجعل من ياسر عرفات شهيداً يشعل العالم العربى والإسلامى ناراً تحرقه حرقاً.. فليحاول ترويضه إذن ولديه باع طويل فى ترويض حيوانات العرب..

ويبتلع ياسر عرفات الطعم فيغادر بيروت بحماية أمريكية.

ويصرخ أمل دنقلَ ونصرخ معه:

لا تصالح..

ولو توجوك بتاج الإمارة.

كيف تخطوا على جثة ابن أبيك.

وكيف تصير المليك..

على أوجه البهجة المستعارة..

كيف تنظر فى يد من صافحوك.

فلا تبصر الدم فى كل كف..

إن سهماً أتى من الخلف سوف يجيئك من كل خلف..

لا تصالح ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام..

وارو قلبك بالدم..
وارو التراب المقدس وارو أسلافك الراقدين إلى أن ترد عليك العظام..
إنه ليس ثأرك وحدك لكنه تأر جيل فجيل..
لا تصالح..
ولو وقف ضد سيفك كل الشيوخ.. والرجال التى ملأتها الشروخ..
هؤلاء الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم.
وسيوفهم العربية قد نسيت سنوات الشموخ..
لا تصالح..
فليس سوى أن تريد..
أنت فارس هذا الزمان الوحيد..
وسواك المسوخ..
لا تصالح..
لا تصالح..
ومشى ياسر عرفات فى طريق الصلح....
يا أيها الجيل الآتى ولو بعد ألف عام..

نشكو إليكم عجزنا.. وقلة حيلتنا وهواننا على الناس.. لكننا نعلم علم اليقين أنه من بين حطام الموت ستنشأ الحياة.. وأننا نحفظ بذرة الرفض والانكار فى قلوبنا.. نرويها بدمائنا.. كى تبزغ لكم عبر التاريخ شجرة تونع وتثمر.. سوف تنمو هذه الشجرة.. بإرادة الله سوف تنمو.. وسوف تختارون حكاماً غير خونة وغير عجزة.. سيجئ الزمن الآتى بكم.. كى تنتقموا لنا وللحسين من يزيد وأمريكا واسرائيل.. ذلك الزمان آت لاريب فيه.

وينفذ الله وعده.

ويضرب عليهم الذلة والمسكنة أينما تقفوا.. سوف تجوسون ديارهم.. ويهتف الجهاز الأليكترونى فى أيديكم.. يامسلم خلفى صهيونى فاقتله فتقتلونه.. ويومها لن يكون مجدكم وحدكم.. لأننا نحن ندفع ثمن هذا المجد ذلاً وألماً وانسحاقاً ومعارضة لطواغيت الخونة الذين باعوا بلادهم وضمائرهم وشعوبهم.. لكننا نحن نرفض أن نباع.. لا تأخذكم بهم رحمة فهم لم تأخذهم بنا رحمة..

يا أيها الجيل الآتى..
أحزاننا كثيفة..

وعجزنا مروع..

فأعيرونا بالخيال أو حتى بالجنون بعض أفراحكم.. لم تعد أفراح انتصارات الماضى القديم أفراحاً لأنها تزيد احساسنا بهوان ماصرنا إليه.. فأعطونا إذن بعضاً من أفراحكم الآتية.. بعض انتصار نقاوم به احساس الموت ونقوى إرادة الحياة..

غادر ياسر عرفات بيروت..

ترك أهله بلا حماية، وفى خلال أسبوعين كان أربعة آلاف فلسطينى ولبنانى يذبحون ويقرت بطون الحوامل أحياء.. ولم تكن أمريكا واسرائيل فقط خلف المذبحة.. بل كان خلفها كل عربى خان أمانة الدين والوطن والتاريخ.. وانضمت صابرا وشاتيلا إلى أكاليل الشوك التى نحملها فوق رؤوسنا.

ويأتى زميل إلىّ ساخراً يقول:

ـ معركتك مع الفساد فى التأمين الصحى بلا أمل.. سوف ينسحب ياسر عرفات من المبرة كما غادر محمد عباس بيروت (هكذا قالها) وأذهلنى ذكاؤه. فقد استطاع فى لمحة خاطفة أن يربط بين الفساد الداخلى وقوى البطش الخارجية، وأن يربط أيضاً بين المحاولات اليائسة لقوى الخير المحاصرة فى الداخل والخارج. مؤكداً ترابط الفساد بالسياسة الداخلية والخارجية.

وكان موقفى فى المبرة شبيهاً على وجه ما بموقف ياسر عرفات فى بيروت.. كنت محاصراً.. كتبت إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء.. قابلت وزير الصحة بعد استقالتى المسببة.

رئيس الهيئة يتستر..

المحافظ صامت رغم لقائى المتكرر معه..

الأجهزة الرقابية المختلفة لاتتحرك..

فيا هؤلاء جميعاً..

لشد ما تصلحون ملوكاً علينا.. لديكم كل مواهب ملوك هذا الزمان.

وأحاصر تماماً فتتجمع لدى قوى المقاومة.. ويحاصر الدكتور أحمد الزواوى فيتسامى على الوضع كله فيستقيل..

وأصر على مقاومة الفساد.. فالفساد الداخلى جزء من الفساد الخارجى.. وكلاهما سوس ينخر فى جسد الأمة.

لكن معركتى تافهة وفرعية..

كنت أرجو أن أكون فى بيروت شهيداً.. هناك كانت المعركة مباشرة والمعانى واضحة..

كنت أرجو أن أكون فى حرب ٦٧ جندياً فى سيناء لاينسحب..

وكنت أرجو أن أكون فى عام ٧٣ جندياً فى القيادة العامة للقوات المسلحة أرد الخائن الذى حوّل نصرنا إلى هزيمة.

فهل يتطامن الكبرياء ويتمخض الجبل ليلد فأراً..

وهل تسفر آلامى الدامية عن موقف صغير فى مواجهة فساد صغير تاركاً الفساد الأكبر.. هل أترك الرؤوس وأواجه الأذناب..

لكن ذلك قدرى..

وجاء أحد الزملاء يسرُّ إلىّ فى خجل:

- إننى آسف.. جميعنا قاطعناك.. ونحن كأهل العراق قلوبنا معك وسيوفنا عليك.

وأصبحت المقاومة من الداخل ضرباً من ضروب المستحيل.. وفى ٦ يناير ١٩٨٣ تقدمت باستقالة أخرى وانقطعت عن العمل.

ولم أكن أستطع أن أتشبه بالدكتور أحمد الزواوى فى تجاهل الوضع كله.. فمثله كمسافر بين الدنيا والآخرة يستظل ساعة بظل شجرة ثم يؤوب إلى ربه.. ولم يكن لدى عمق دينه ولا صفاء نفسه كى أتخذ موقفه.

وكنت مدركاً تماماً لعيب خطير من عيوب الثوار والمصلحين فى مصر أن معظمهم يريد أن يكون قائد جيش وزعيم ثورة يلقى بتعاليمه إلى تلاميذه ومريديه من برجه العاجى كى يحاربوا حربه..

وتخيلت ساخراً موقف جيش كل أفراده يحملون رتبة المشير ولا يوجد به جنود.. وهذا الموقف للمصلحين موقف خطير، بل هو نوع من الهروب من مواجهة مسئولية الاستشهاد دفاعاً عن أفكارهم ومبادئهم.

وكانت لدى عدة تسأولات حسمتها سريعاً.. كانت أولى هذه الأفكار عن الخير والشر وهل خلق الخير بطبيعته ضعيفاً مهزوماً أم أن ذلك بسبب ضعف من يتصدون للدفاع عنه وقصورهم.. إن الذى يدافع عن الخير يدافع عن مبدأ عام أما من يدافع عن الشر فهو يدافع عن مصلحة شخصية تقوم عليها ذاته وينبنى وجوده.. فماذا يحدث إذا كان المدافع عن الخير بنفس الصورة.. أن يمزج بين الخاص والعام وأن يكون المبدأ هو ذاته أيضاً ووجوده ومصلحته الشخصية التى

يضحى بكل شئ دفاعاً عنها..

وكانت الفكرة الثانية عن مدى حكمة الدخول فى صراع غير متكافئ..

لقد منحنى الله الكلمة وكانت هى كل سلاحى فى معركة ليست فى مواجهة الدكتور جامع وإنما فى مواجهة كل مايمثله كصديق للسادات، ولكل مافيا السادات بعده، وكعضو فى مجلس الشورى يتمتع بالحصانة وكوكيل وزارة هو أقوى من وزيرها، وصداقته الوطيدة برؤوس السلطة كفؤاد محيى الدين ورفعت المحجوب وحلمى عبد الآخر وعثمان أحمد عثمان وسعد محمد أحمد وعاطف صدقى وعلى السمان.. كذلك علاقته الحميمة بالشيخ الشعراوى ورؤساء تحرير الصحف وكبار صحفييها.. كذلك سيطرته على المحافظ وعلاقته الوطيدة بالمباحث والمخابرات وكبار المستشارين والشخصيات العامة.. كان مظهر المعركة غير متكافئ.. كانت بين فرد تدعمه الكلمة ضد مجموعة تدعمها الدولة.. بل تحولت داخلى إلى نوع من الرمز، إنها معركة بين الفكرة فى اطارها المعنوى والقوة فى اطارها المادى.. اننى لم أستطع أن أكون شهيداً فى الحرب ولم أستطع أن أكون خالد الإسلامبولى، فلا أقل من أن أدخل هذه المعركة إذن.. أما عن حكمة الدخول فى معركة غير متكافئة فثمة رد لا يرد على تساؤلتى وحده وإنما يرد على كل تساؤل مماثل عبر التاريخ كله.. ألا وأن الانتصار الحقيقى ليس نتيجة معركة أو نهاية خلاف.. وإنما موقف للحق داخل النفس وأن الهزيمة والانتصار بعد ذلك ليسا الهدف ولا الخوف.. وبعد هذا التاريخ كله من يستطيع الادعاء بأن يزيدا الفاجر قد انتصر أو أن الامام الحسين قد انهزم.

وفى هذه المواجهة فإننى لم أكن أقاوم ظلم فرد أو فساده.. وإنما تركزت أمامى آلام آلاف السنين كنا ننهزم فيها من داخلنا قبل أن ننهزم من أعدائنا، كنت أحارب مع على ضد معاوية ومع الحسين ضد يزيد.. ومع عبد الله بن الزبير ضد الحجاج. كنت أمنع بيدى الكليلتين أحجار المنجنيق الضخمة أن تهدم الكعبة. وكنت مع صلاح الدين الأيوبى وسيف الدين قطز وأحمد عرابى وجمال عبد الناصر.. كنت أدافع عن مصر كوطن.. وعن الإسلام كدين تخفينا فى قشوره وألقينا جواهره وجوهره.. وكنت أريد أن أجعل من نفسى مثلاً على أن الفرد قادر على مواجهة الطغيان وقهره.. وكنت أريد أن أضرب مثلا أن الشر مهما بسقت أعواده فجذوره واهية.. وكنت أريد أن أضرب مثلاً أن السلطة فى مصر خيرة.. وأنها تحتاج فقط لكشف الانحراف أمامها كى تجتثه.

وكانت محاكمة عصمت السادات وعائلته فى ذلك الوقت دليلاً لا يدحض على صدق ظنى وكان المستشار أحمد رفعت خفاجى عزاء قدمته مصر لأبنائها كى تعيد لهم جزءاً من الثقة.. وكان دأب هذا الرجل العظيم نوراً كاشفاً على الخيانات المتخفية خلف المظاهر البراقة لعصر السادات..

وقلت لنفسى أن ثمة تشابهاً بين موقف حسنى مبارك وموقفى.. لقد كان بجوار السادات لكنه لم يكن يعلم، وإننى لعلى ثقة أنه عندما يعرف فلن يكون موقفه تجاه عصر السادات أقل من موقفى تجاه فساد اكتشفته وأواجهه.. ولن يردع حسنى مبارك عن موقفه علاقة ود كانت تربطه بالسادات.. ذلك أن الوفاء فى حد ذاته قيمة عليا.. ولكن الوفاء للسوء سوء.. ولعله من النبل دائماً أن يتخذ الانسان مواقف صحيحة.. لكن الأنبل أن يتخذ هذه المواقف بالرغم من عواطفه وهواه.



الفســــــــاد

بالاستقالة من العمل أصبح موقفى شديد الوضوح أمام الآخرين الذين جبلوا على الشك فى كل المواقف، خاصة إذا كانت مجردة للحق. وقام الدكتور شريف زكى بمحاولة لاستقالة جماعية، ليس للتضامن مع صديق وإنما كان يمثل الأرستقراطية النظيفة التى تعيش بعيدة عن بشاعة مايحدث فى الواقع لكنها تكتشفه فجأة.. فتتخذ المواقف المتفقة مع المبدأ ولم تنجح محاولته.. ولو نجحت لمثلت إحراجاً شديداً لوزير الصحة.. عمه!!

وأكتشف فى تلك الأيام أيضاً بعضاً من الصفات العظيمة لشعبنا.. فقد أخذ صغار الموظفين يتوافدون بالعشرات علّى يقدمون معلومات ومستندات عن انحرافات كنت أجهلها.. كانوا مهددين بالفصل وبالتشريد، لكنهم أمام أول بادرة لمقاومة الظلم والانحراف كانوا مستعدين للتضحية بأى شئ.. بل أن بعضاً منهم كانوا أدوات لهذه الانحرافات بالرغم منهم.. وكانوا بالطبع مهددين بأن يكونوا ضحايا أى محاولة لاجتثاث الفساد.

وكان ما لديهم من المعلومات مذهلاً.. اختلاس أدوية.. عمولات.. تهريب من الجمارك.. اختلاس من الإيرادات.. وجاءنى منهم تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات بتفاصيل أخرى.. وذهبت أحمل مالدى مرة أخرى إلى وزير الصحة وإلى الهيئة وإلى المحافظ.. لكن تفاصيل ماحدث مع محمد توفيق عويضة كانت تحدث بحذافيرها.. فلم يتحرك منهم أحد.

وبدأت ازاء اليأس منهم أستكشف إمكانية النشر فى الصحف.. كانت الصحف الحكومية مغلقة بالطبع فى وجهى، فقد كان المسئولون عنها ينتمون إلى نفس العصر.. عصر السادات.. وكتبت إلى «الشعب» و«الأهالى» عن طريق

المسئولين المحليين عن أحزابهم.. وفى صحيفة «الشعب» كان الأستاذ جمال بدوى مسئولاً عن التحقيقات الصحفية ورفض النشر دون مستندات، فلما ذهبوا إليه بالمستندات أخذ يفندها بطريقة محمد توفيق عويضة رافضاً النشر مطلقاً.. واشتد الضغط عليه فانفجر فيهم: أن الدكتور جامع صديقه الشخصى..ولم تنشر الشعب كلمة طيلة وجود جمال بدوى بها.. وعندما انتقل إلى الوفد اتخذ نفس الموقف.. وشعر أعضاء حزب العمل بالخجل من هذا التصرف فأرسلوا ما لديهم من مستندات إلى الرقابة الإدارية، وكان حسنى مبارك قد أعادها. وذات يوم فوجئت بلجنة منها يرأسها عميد تأتى إلى عيادتى وأجلس معهم طويلاً ويكتبون ويسألون ويطلبون الاجتماع بأكبر عدد من موظفى التأمين الصحى كى يسمعوا منهم.. وسمعوا كثيراً ثم ذهبوا.

وكتبت برقية إلى الدكتور عاطف صدقى رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات أطلب تشكيل لجنة عاجلة.. وشكلها.. وعلمت بما يدور خلف الكواليس عندما قابل أحد أصدقاء د. جامع من قادة الاخوان المسلمين الدكتور شريف زكى.. كان اللقاء بالقرب من مأدبة غذاء أقامها د. جامع لأعضاء اللجنة.. وقال له:

- «كنتم تريدون اشعالها لكننا أطفأناها»..

وكتبت برقية مرة أخرى إلى الدكتور عاطف صدقى أحذر فيها من إمكانية احتواء اللجنة.. لكن اللجنة احتويت فعلاً.. وكتبت أن كل شئ على مايرام (العجيب أنه ازاء تصاعد الأحداث بعد ذلك وضغط الحملة الصحفية جاءت لجنة أخرى لتثبيت صدق ماقلته بحذافيره، لكن.. من يحاسب من).

وكان المسئولون فى التأمين الصحى يتابعون خطواتى.. وكان رعبهم عظيماً من استجابة السلطات لشكاواى بتشكيل لجنة جادة للبحث.. وفوجئ الجميع بقرار بإخلاء مستشفى المبرة تمهيداً لهدمها.. وبدأت خطوات محمومة لنقل الأجهزة والمستندات إلى وحدات أخرى بالتأمين الصحى على مستوى الجمهورية.. وهى خطوات تضيع فيها مسئولية ضياع المستندات وتلف الأجهزة والتى كانت فى الأصل تالفة إلا أنهم سيدّعون بعد ذلك أنه تلفت أثناء النقل أو لدى الجهة التى نقلت إليها.

وكان قرار هدم مستشفى المبرة يكلف الدولة ١٥ مليون جنيه على الأقل: ٥ ملايين قيمة المستشفى وعشرة ملايين قيمة بناء مستشفى جديد.. وبالفعل بدأت الاتصالات.. وقدمت الهيئة بيانات إلى الجهات المختصة تفيد الحصول على

قرض فرنسى بمبلغ ١٠ مليون دولار لبناء مستشفى جديد وحديث.. وإزاء هذا الاغراء تم هدم مستشفى الرمد بطنطا لبناء المستشفى الجديد مكانه.. وبعد الهدم فوجئ الجميع أنه لايوجد قرض فرنسى ولا اعتماد محلى.. وأن هيئة التأمين الصحى قدمت بيانات كاذبة للتغطية على هدم مستشفى المبرة.. وكانت نتيجة تلك البيانات الكاذبة هدم مستشفى الرمد الذى كان يخدم ثلاثة ملايين مواطن.. فقد كانت خطة القرض الفرنسى المدعاة تتضمن بناء مستشفى للرمد فوق مستشفى التأمين الصحى.. كان المسئولون فى التأمين الصحى يتصرفون بطريقة من يثق أنه يعيش فى بلاد بلا قانون ويثق أن أحداً لن يسائله.. والمصيبة حقاً أنهم كانوا مصيبين فى هذه النظرة.. وكان تقييمهم للسلطة صحيحاً، ولقد كتبت للمسئولين بهذه الوقائع ولم يتحرك أحد. فقط سحبت وزارة الصحة أرض مستشفى الرمد من التأمين الصحى وحولته إلى جراج للسيارات.. وثبت أن مستشفى المبرة غير آيلة للسقوط..

كما تم اعتماد خمسة ملايين جنية لشراء أجهزة جديدة لها.. ولم يسأل أحد عن الأجهزة القديمة والتى كانت بخمسة ملايين جنيه أخرى.

كان الجرح غائراً والشريان ينزف ومصر تئن.

وذهبت إلى صحيفة «الأهالى».. وكانت مشاعرى جياشة وأنا فى تلك الشقة المتواضعة فى شارع عبد الخالق ثروت، والتى تمثل ضميراً حياً نابضاً بالعذاب فى حب مصر.

وتكررت هناك جلساتى مع الصحفى النابه أحمد عبد التواب، الذى لمع اسمه بعد حملة صحفية قادها على «حوت القليوبية».. كان يحمل ملامح شاعر معذب.. وكانت تفاصيل المستندات تصيبه بالذهول وبالحزن.. وسمعته يحدث نفسه: هذا الموضوع أخطر بكثير من موضوع حوت القليوبية، والذى سبّب ضجة كبرى.. واتفقنا على تفاصيل الحملة ويوم النشر.. وجاء اليوم الموعود، لكن الأهالى لم تنشر.. وتسربت المعلومات بعد ذلك أن الموضوع قد سحب من المطبعة بعد اتصالات الأستاذ إبراهيم يونس بأحد كبار المسئولين فى حزب التجمع.. وكان قد اتصل قبل ذلك بأحمد عبد التواب نفسه دون جدوى.. وطرحت ماحدث على القيادات المحلية لأحزاب المعارضة..

كنت أتساءل فى مرارة ما الفرق إذن بين خالد محيى الدين وفؤاد محيى الدين.. وما الفرق بين إبراهيم شكرى وحملى عبد الآخر.

كان انفعالهم كبيراً فأحدثوا ضجة كبيرة لأحزابهم، مما دفع الأستاذ إبراهيم يونس أن يحضر إلىّ ويمكث معى ساعات طويلة عرضت عليه فيها تفاصيل ما اكتشفته من انحرافات. كان مندهشاً أن يحدث كل هذا من زميله فى الدراسة وصديقه القديم وصاحب عشرات الأفضال السياسية عليه.. كان منفعلاً عندما اطلع بنفسه على مالدىّ من مستندات.. ووصل انفعاله أنه أكّد أنه سيتولى النشر والكتابة بنفسه.. وأخذ منى صوراً لبعض المشتندات.. لكنه لم ينشر قط.

مرت أسابيع والأهالى أيضاً لاتنشر.. لكنها فى النهاية نشرت الموضوع ملخصاً فى ١٨/٥/١٩٨٣، وبالصدفة البحتة كانت لجنة الرقابة الإدارية قد فاجأت التأمين الصحى فى صباح نفس اليوم.. وأتى أحد أعضاء اللجنة فى المساء غاضباً يقول لى أننى سببت لهم احراجاً كبيراً لأنهم يحبون العمل فى صمت.. وأن النشر فى صحف المعارضة سيضر بالقضية.. وأن الأمر سيبدوا كما لو كانت لجنة الرقابة قد حضرت استجابة لما نشر فى الأهالى.. وكان صادقاً فى حديثه عندما أخبرنى أن الرقابة بعد أن عادت تعمل فى ظروف بالغة الصعوبة والسوء، وأنهم مكبلون بعشرات المحاذير.. وأنهم يخيِّم عليهم شبح الإلغاء مرة أخرى..

بعد فترة كان تقرير اللجنة عن التأمين الصحى: «كل شئ على مايرام».. وأنهم لم يستدلوا على مخالفات.

وذهبت إلى الأهالى كى أتناقش مع الأستاذ أحمد عبد التواب، لمواصلة النشر.

كانت نظرات الحزن والحيرة فى عينيه أعمق.. بدا وكأنه لايريد أن يتكلم.. بدا عازفاً عن مواصلة النشر.. إلا أنه قال فى النهاية أن الموضوع الذى نشر تعرض لاختصار أخلّ بقيمته مما جعله يرفض أن يكتب اسمه عليه.

كان الصمت حاداً كخناجر مشرعة تقطع حبال الحديث بيننا.. ولم أملك فى النهاية إلا الإنصراف.. وبعد أسابيع فوجئت فى باب المحرر بالأهالى بكلمة وداع للصحفى النابه أحمد عبد التواب الذى قدم استقالته من العمل لحاجته إلى فترة طويلة يراجع فيها كثيراً من الأحداث والأفكار. ولم أر أحمد عبد التواب بعد ذلك ولم أسمع عنه.. وتعمدت عدم السؤال عليه كى يظل فى خيالى ذلك الرمز الشاعرى الذى لمع كالشهاب ومضى.

توقف النشر بعد ذلك لفترة طويلة.. وحاولت الاتصال المباشر بالنائب العام

دون جدوى.. فكتبت إليه وإلى باقى الأجهزة.. واستدعتنى النيابة الإدارية لأخذ أقوالى.. ومنذ اللحظات الأولى بدأ الصدام بينى وبين المستشار الذى تولى التحقيق.. فقد كان دون الدخول فى التفاصيل يكرر قصة توفيق عويضة، سألنى عن الجهات التى شكوت إليها فعددتها له فكان قراره أن ينتظر تحقيق النيابة الإدارية حتى ترد تقارير هذه الأجهزة حول شكاواى.. ونامت الشكوى فى أدراج مكتبه عاماً.

وحاولت مع النيابة العام ونيابة الأموال العامة دون جدوى.

بل إن النيابة العامة حفظت التحقيق فى موضوع الدكتور محمد سليم.. وقمت بشرح القضية للمحامى العام الذى أمر بإعادة التحقيق.. وبرغم الاعتراف فقد حفظ التحقيق مرة أخرى.. فمن يحاسب من؟

وفى نيابة الأموال العامة تكرر موقف النيابة الإدارية تماماً.. الكتابة إلى باقى الأجهزة لتوافيهم بالرد.. ونامت الأوراق فى مكاتبهم عامين ونصف عام.. ونبهنى أحد الأصدقاء من المستشارين أن كثرة الانحرافات الواردة فى شكاواى تصيب المحقق بالاحباط.. وأنه يجب أن أركز فى شكاوى قصيرة على واقعة محددة أدعمها بالمستندات.. وجربت ذلك.. وذهبت إليهم بالعديد من المستندات، كان من بينها ورقة بخط شقيق الدكتور جامع يطلب فيها تسديد أدوية أخذها على بطاقات تأمينصحى.. ويضيف فى نهاية طلبه إلى طبيب التأمين أن يفعل ذلك في طى الكتمان وبدون أن يشعر أحد.. كانت الورقة صارخة بالانحراف.. إلا أن وكيل النيابة أذهلنى بقوله: مانوع وماثمن هذه الأدوية.. وقلت له أن واجبى أن أشير إلى الانحراف وأنه هو السلطة المختصة بالتحقيق.. لكنه رفض مجرد فتح التحقيق رسمى وحوّل الأوراق إلى الرقابة الإدارية.

وكانت الرقابة الإدارية قد افتتحت فرعاً لها فى طنطا.. واستدعتنى الرقابة كى يتكرر معها ماحدث فى النيابة.. ونامت الأوراق عاماً.. كل هذا والانحرافات تستمر.. وإهدار المال العام يستمر والإختلاس يستمر والحكومة تتباهى بعصر طهارة اليد واللسان.

وكتبت برقية إلى فؤاد محيى الدين أناشده فيها باسم تاريخه القديم كمناضل وباسم مصر أن يكبح جماح الانحراف.

واستدعانى المستشار جلال عبد الحميد بمكتبه برئاسة مجلس الوزراء.

وعندما ذهبت كان أمراً فاجعاً أن أرى مكاتب رئاسة مجلس الوزراء مئات

الآلاف من خطابات المواطنين وشكاواهم أمام عدد محدود من الموظفين..

يفتح الموظف الخطاب وفى ثوان معدودة تلتقط عينه أسم الجهة التى يشكوها المواطن فيحول الشكوى إلى رئيس هذه الجهة.. والذى قد يكون هو نفسه المنحرف.. كان مشهداً فاجعاً.

فمرة أخرى من يحاسب من؟!

هكذا إذن يصنعون فى شكاواى.. وكل هذه الآلاف من الشكاوى تحول إلى المنحرف كى يخفى معالم انحرافه ويبتر فى نفس الوقت الموظفين الذين يكتبون هذه الشكاوى والذين يعترضون على الاختلاس واهدار المال العام.

وأخيراً استقبلنى المستشار جلال عبد الحميد..

كنت مُستفزاً وغاضباً ويائساً وحزينا على مصر..

أخذ المستشار يبحث فى هدوء حتى عثر على الملف الذى يحتوى على الشكوى.. أخذ يقرؤه بهدوء.. بعد أن قرأه نظر طويلاً ثم قال:

ـ أريدك أن تقسم على أن كل ماجاء بهذه الأوراق صحيح...

ورددت عليه:

ـ سوف أقسم.. لكننى سأؤجل هذا القسم لنهاية حديثى.. هأنذا آتيك كمستشار لأكبر مسئول فى البلد.. أدّعى.. وآتى بالبينة على ادعائى.. فتطالبنى بالقسم أيضاً.. وهذا يعنى أن أول افتراض تضعه هو الكذب. فلا حول ولا قوة إلا بالله وصدق رسول الله «ﷺ».. «يأتى من بعدى زمان يكذب فيه الصادق ويصدق الكذاب».. سوف أقسم ياسيادة المستشار.. لكن اعلم أننى أظن من البداية أنك لن تفعل شيئاً.. لقد قابلت الكثيرين ولم يفعلوا شيئاً فلماذا تختلف أنت عنهم.. إلا أن ظنى هذا لايتجاوز إيمانى بأنك لاتملك من أمر نفسك شيئاً.. وما هو مقدور كائن.. وأن حديثى وحديثك لن يغيرا شيئاً قدره الله منذ الأزل.. إلا أن واجبى كمسلم أن أؤدى أمانتى وأرد الباطل بيدى وبلسانى وبقلبى.. ولن أسكت على باطل رأيته بعينى سوف يحاسبنى الله على الوسيلة ولن يحاسبنى على النتيجة.. فالنتيجة أمره وقدره وقضاؤه، أما الوسيلة فهى أمرى وقدرى وقضائى.. إننى أحاول أن أكون تلميذاً فى مدرسة مولانا الإمام الحسين.. بل إن هذه التجربة أضافت إلى فهمى للتاريخ كثيراً.. فعندما غادر الحسين الحجاز إلى العراق لم يكن طالب ملك بل طالب شهادة.. اعتقد أنه كان موقناً منذ البداية ماذا ستكون النهاية.. وهنا تبدو العظمة فى اطارها الحقيقى

مسربلة بلباسها الدامى.. لقد أعطى روحه للتاريخ كى يسطر لنا مالن يغيب.. إننى آسف ياسيادة المستشار.. فقد يبدو لك أننى أخرج عن صلب الموضوع لكن الواقع أننى أدخل فى صلبه.. إننى لا أحارب فساد وكيل وزارة أو عضواً فى مجلس الشورى أو صديقاً للسادات وفؤاد محيى الدين.. وإنما أحارب فساد نظام بأكمله....

بعد هذه المقدمة الطويلة ياسيادة المستشار أقسم لك أن جميع مافى الأوراق صحيح.. إلا أننى أقسم لك أيضاً أننى لم أذكر كل الصحيح الذى أعرفه.. لقد ذكرت فقط ما أستطيع اثباته..

أما الذى لا أستطيع اثباته فهو أكثر بكثير.. وأخذت أسرد للمستشار تفاصيل الانحراف المدعمة بالمستندات.. وكان انفعاله يزداد تدريجياً.

وفى نهاية حديثه اندفع قائلاً:

ـ لقد طلبت منك فى البداية أن تقسم.. وفى النهاية أقسم لك أنا أن تكون كل هذه المعلومات عند الدكتور فؤاد محيى الدين خلال هذا الأسبوع.. وسوف يؤثر ذلك على أوضاع كثيرة، منها إعادة اختياره فى مجلس الشورى.. وأنصحك أن تذهب إلى المستشار أحمد رفعت خفاجى وتذكر له جميع ماذكرته لى.. فلن يستطيع احقاق الحق فى هذه القضية إلا رجل مثله.. كما أننى أعدك بشرفى أننى سألهب ظهور أولئك الذين تقاعسوا بخطابات الاستعجال الصادرة من مكتب رئيس الوزراء كى ينجزوا تحقيقاتهم وتحرياتهم.

وربما كان من أهم نتائج مجهود ذلك الرجل العظيم إخراج الدكتور جامع من مجلس الشورى فى أواخر ١٩٨٣، كما أننى أشهد له أنه أوفى بوعده، فلطالما تشكّى أعضاء الجهات الرقابية والنيابة من استعجالات رئاسة الوزراء.

❋ ❋ ❋

التعـــذيـــب

كثير من الرجال يجلهم المرء من بعيد، فإذا ما اقترب منهم تهاوت عظمتهم وانكشفت سوأتهم.

وقليل من الرجال يجلهم المرء من بعيد فإذا ما اقترب منهم اكتشف أنهم كظنه بهم عظماء.

لكن النادر حقاً أن تُجلّ إنساناً ثم تعرفه فتكتشف أنه أعظم بكثير من ظنك وظن الآخرين به.. ومن الطراز الأخير المستشار أحمد رفعت خفاجى.. عندما ذهبت إلى مكتبه فوجئت بالأثاث المتواضع الذى يشى بعظمة شاغله.. وأخبرنى سكرتيره أنه فى عمل بالخارج.. وأنه لو كان موجوداً لقابلنى على الفور.. وسألته عن أنسب الأوقات للقائه فأخبرنى أنه يحضر إلى مكتبه منذ السابعة صباحاً إلى الرابعة مساء.. وعلمت من مكتبه ومن أماكن أخرى بعد ذلك أن هذا الرجل تلميذ عظيم للفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه.. ولقد رفض تجديد أثاث مكتبه، كما رفض تغيير السيارة المخصصة له وهى نصر ١٢٨ قديمة كثيرة الأعطال، فيتركها ويستقل تاكسى من العمل وإليه.. وأنه لايمر أسبوع حتى يفاجئ مكاناً من أماكن العمل من أسوان إلى الاسكندرية.. يذهبون إلى العمل فيجدونه فى انتظارهم منذ الثامنة صباحاً.

وقابلته.. وتعددت لقاءاتى به..

كان يحمل فى غضون وجهه النبيل الحزين الشاحب هموم مصر وأحزانها.

واستمع المستشار رفعت خفاجى إلى تفاصيل القضية مبدياً دهشته من محاولة وزيرين للدفاع عن الدكتور جامع، أحدهما خريج للأزهر، ذهبا إليه للوساطة من أجله..

وبدأت الأمور تسير فى اتجاهها الصحيح.. وساعد على ذلك استبعاد الدكتور جامع من عضوية مجلس الشورى مما أسقط عنه الحصانة، كما أعطى نوعاً من الانطباع بأن الدولة رفعت عنه يد الحماية.

بدأت صحيفة «الوفد» فى الظهور وانتقل إليها الأستاذ جمال بدوى، كما انشق إبراهيم يونس على حزب العمل، وذهبت إلى الأستاذ إبراهيم شكرى الذى استمع إلىّ طويلاً ثم أمر بالنشر، بالرغم من أن الدكتور جامع يمت له بصلة القرابة.. كان إبراهيم شكرى يمثل نوعاً خاصاً من العظمة.. عظمة تشعر أنها ليست غريبة عليك.. كشجرة أصلها ثابت وفروعها فى السماء.. وتكررت زياراتى أيضاً للدكتور حلمى مراد ذلك النموذج الفريد الذى يجمع بين المتناقضين: رقة الشاعر وقلب الأسد.. وقد عاش حياة لم يخن فيها قلب الأسد وشجاعته نبل الشاعر ومثاليته.. كما لم تخن فيه أحلام الشاعر عبقرية الفيلسوف ومنطقه.

وذهبت أيضاً إلى الأستاذ أبو الفضل الجيزاوى لتستمر جلستنا الأولى أكثر من ست ساعات فأغادر مكتبه على مشارف الفجر.. وقد بهرنى أبو الفضل الجيزاوى بأنه مازال يحمل روح الثائر الذى خرج ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حاملاً روحه على كفيه فداء لوطنه...

وسردت عليه مأساة الانحراف فى التأمين الصحى ومأساة ممالأة السلطة للانحراف الذى يؤدى فى النهاية لخراب مصر.. وانتقلنا من الانحراف المحدود فى التأمين الصحى إلى الانحراف غير المحدود فى مصر.. وجذبتنى حماسته فى الحديث ولباقته.. ووجدتنى أقول له:

- إننى بمنتهى الحزن والمرارة عاتب عليك.. لم أكن أظنك عظيماً هكذا ولا مثقفاً هكذا.. وأن اكتشافى هذا الجديد يضيف الغضب إلى الحزن والمرارة.. إذا كنت كنموذج من نماذج الضباط الأحرار تملك هذا العقل الجبار والقدرة الهائلة على العطاء.. فلماذا مع زملائك أوصلتمونا إلى مانحن فيه. إننى أستطيع أن أقول على لسان أجيال وأجيال وأجيال توغل فى التاريخ سبعة آلاف عام.. أننا انتظرناكم كل هذه السنين. تخيلناكم فى عقولنا وفى ضمائرنا. بنينا صورتكم فى خيالنا. حتى لكأنما خلقناكم خلقاً.. كأنكم أبناء مصر.. لا على سبيل المجاز بل الحقيقة انتظرناكم.. فلماذا عندما جئتم خيبتم أملنا المشبوب فيكم.. ولماذا أهدرتم فرصة قد لايجود بها الزمان لألف عام.. أعرف أن التحديات كانت هائلة..

وأعرف أن الثورة قامت على أنقاض نظام عجز عن حفظ كرامة الوطن وعزة أبنائه. فكان عليها أن تجرب فتخطئ وتصيب.. أعرف هذا وأتفهمه.. لكن كيف وافقتم على أن يكون أنور السادات معكم منذ البداية.. وكيف وافقتم على أن يتسلم الأمانة في النهاية فيبيعها.. ولماذا كان عليكم أن تمارسوا كل هذا القهر والتعذيب ضد المفكرين والمثقفين.. أليس فاجعاً أن معظم من يدافع عن ثورة ٢٣ يوليو اليوم هم من ضحاياها.. وأن الذين اصطفتهم الثورة هم الذين يهدمونها بمنتهى الخسة.. كيف استطعتم أن تحملوا حلم الوطن وآماله في جوانحكم وصرخات المعذبين تحت جلد السياط تطرق آذانكم.. أين كنت والشهداء يسقطون والخونة يستولون كل يوم على أرض جديدة حتى استولوا في النهاية على كل شئ...

❁ ❁ ❁

ورد أبو الفضل الجيزاوي بعد أن خفت حدة انفعالي المتدفق. وأخبرني أنه قد تعرض هو نفسه لبطش السلطة.. لكن ذلك لايجعله يشارك في حملة الإدانة ضد جمال عبد الناصر. لأن من يهاجمونه لايعارضون التعذيب وإنما يحاربون توجهه نحو العزة القومية والعدالة الاجتماعية والثأر ممن أذلونا واستعادة مانهبه اللصوص.. هم يحاربون توجهاته الصحيحة وهم في حربهم هذه مستعدون لممارسة تعذيب أبشع وقهر أشد لمن يقف في طريقهم.. وليس الساداتيون إلا مثلاً على ذلك.. إنهم يباركون أبشع أنواع التعذيب والتنكيل مادامت تتم تحت علم أمريكي تفقد فيه مصر استقلالها وتبيع ارادتها..

كان أبو الفضل الجيزاوي عظيماً في تساميه على ما لحق بشخصه في سبيل الوطن، وكان عظيماً حين لم يفقد النظرة الصحيحة الموضوعية للأشياء..

في ذلك الوقت كنت أحاول أن أجد العزاء عن الإحباط القومي والتاريخي الذي أحسه كمواطن وكوطن!!

لكن العزاء نفسه كان يحتاج أحياناً إلى عزاء.. فبينما أعيد قراءة نجيب محفوظ وتبهرني عظمة الفنان فيه أجد غصة في حلقي وازدراء في عقلي وعتاباً في قلبي لموقفه السياسي المنحرف.. فحل في الأدب عقيم في السياسة والوطنية شاذ كبطل السراب.. أمزج صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ومحمود درويش ونزار قباني في عصير مركز المرارة متوهج الألم.

أشاهد المتاح من المسرح على شرائط الفيديو.. تغريني كثيراً مسرحيات

كـ «دماء على ملابس السهرة» و «الوزير العاشق» و «منين أجيب ناس»، وأعيد مشاهدة فيلم «الأرض» ليوسف شاهين، وقراءة القصة لعبد الرحمن الشرقاوى.. وأستعيد النبوءة المروعة ليوسف شاهين فى أعظم أفلامه «عودة الابن الضال» حيث ينهار البيت الكبير (الوطن) على كل من فيه ولا ينجو إلا من يهرب.. كما أعيد قراءة فصول من تاريخنا القديم منذ أحمس والهكسوس، فتشتعل مشاعرى بالحب والاشفاق لمصر، فعبر التاريخ تعرضت شعوب وحضارات كثيرة لبعض ماتعرضنا له ـ وربما لأسوأ ـ لكن هذه الشعوب لم تحتمل فماتت واندثرت حضارتها. لم يتعرض شعب عبر التاريخ لكل هذا القهر من الخارج والخيانة من الداخل ثم استمر.. فهل أعجب أحياناً لمدى ماوصلنا إليه من هوان.. الأولى أن أعجب أننا مازلنا أحياء ومازالت على خريطة الدنيا مصر..

أقرأ تاريخ محمد على وأحمد عرابى فأتحسر على احتمالات تطور حضارى كانت ملء السمع والبصر وفى قبضة اليد ثم ضاعت.. كأنها كانت سراباً.. وأندفع فى القراءة حتى أصل إلى ذلك الركن الذى حرمته على نفسى منذ أول السبعينيات.. التعذيب السياسى فى عهد جمال عبد الناصر.. ليس خوفاً من مواجهة الحقيقة وإنما إدراكاً لأنها فى أفضل الأحوال كلمة حق يراد بها الباطل.. لكن ما أقرؤه من تفاصيل يهزمنى من الداخل فأجد نفسى هاتفاً من أعماقى: مدان أنت ياجمال عبد الناصر.. مدان عرفت أم لم تعرف.. ومدان كل حاكم كان قبلك أو يجئ بعدك يتم فى عهده أى نوع من القهر ضد إنسان لأنه يفكر.. مدان دون الدخول فى تفاصيل التعذيب المروعة.. ومدان دون مناقشة أى مبرر.. فلا يوجد أى مبرر يمكن أن يسمع بله أن يقبل.

ويدفعنى الألم الطاغى للتنقيب فى تاريخنا.. وتبهظنى حقيقة مروّعة.. أنه عبر تاريخنا كله كان التعذيب سند الحكم الأول. أراجع تاريخ الأمويين والعباسيين والفاطميين والطولونيين والأخشيديين والعثمانيين والمماليك وأسرة محمد على.. كان لكل حاكم أعداؤه.. وكان أشد أعداء الحاكم أعظم المفكرين.. وأتابع فى يأس أنماط التعذيب التى عانوها.. الجلد بالسياط والكى بالحديد المحمى وصب الرصاص المنصهر والسلخ، وتقطيع الأعضاء حية، والتنور.. والأخير كان آلة التعذيب فى الدولة العباسية، كان عبارة عن اسطوانة من الخشب ملساء من الخارج لكن باطنها ملئ بآلاف المسامير الحادة وفى مركز الاسطوانة محور معدنى أملس.. كانوا يدخلون الضحية إلى الاسطوانة ويغلقون عليه

وتبدأ الأسطوانة فى الدوران حول محورها فيتشبث الضحية بالمحور حتى لاتخترق المسامير الطويلة المدببة جسده لكن الجلادين يشعلون النار تحت الاسطوانة فتشتد سخونة المحور فيفلته الضحية كى يقع فى المسامير الدوارة التى تخترق جسده فيحاول الهروب منها إلى المحور الملتهب.. ويظل هكذا حتى الموت.. بعضهم استمر ثلاثة أيام يعانى هذا حتى أدركه الله برحمته.. ولم يقتصر الأمر على معذب واحد أو بضع معذبين بل مئات الألوف. ولم يفعل هذا أمير واحد للمؤمنين بل كل أمراء المؤمنين بعد الخلفاء الراشدين تقريباً.. ليس مهماً ازاء بشاعة هذا من كان على صواب ومن كان على خطأ.. فذلك لن يقلل من الإدانة والاشمئزاز والاحتقار، والألم.. لكن بالرغم من ذلك كان كل الضحايا ـ تقريباً ـ على صواب، وكل الجلادين على خطأ.

ويواجهنى سؤال يهز كيانى. أأدين كل هؤلاء مع جمال عبد الناصر . وإذا أدنتهم؟ ماذا يتبقى لى من تاريخى الذى طالما فخرت به.. ولماذا كذب علينا شيوخنا وأساتذتنا وعلمونا أن تلك كانت عصور المجد فى الإسلام وأننا ينبغى أن نعود إليها.

إلى التنور؟!

أبداً. لم يكن من الإسلام فى شئ وقد خدعونا.. وعلينا أن نستعيد الإسلام.. أجل.. لكن بعد أن نعترف أنه انتهى كدولة منذ حوّل الصعلوك[1] معاوية حكم الخلافة إلى حكم الملوك فعطّل أول أساس للحكم فى الإسلام، ثم عطّل الأساس الثانى عندما حوّل اسم بيت مال المسلمين إلى بيت مال الله.. المظهر براق وخادع والمقصود بشع وفاجع. كان الاسم الأول يعنى أن المال ملك للمسلمين وحق لهم وأن أمير المؤمنين مجرد أمين عليه.. أما الاسم الثانى ـ برغم صحته ـ فهو يعنى حق خليفة الله على الأرض فى التصرف فى هذا المال كما يشاء.. انتهت دولة الإسلام يومها.. يوم استشهد الامام على ليس دفاعاً عن حقه فى الخلافة، وإنما دفاعاً عن الإسلام نفسه. وانتهت دولة الإسلام ورمح يزيد الفاجر يعبث فى الشفتين الشريفتين لرأس الحسين المجزوزة.. ثم يصل إلى تهديد بنات محمد أن يبيعهم سبايا.. إنتهت دولة الإسلام من يومها.. إنتهت بسبب حاكم جشع ظالم.. وبسبب شيوخ صرفهم الخوف أو الطمع ـ أو كلاهما ـ عن طلب الحق

(١) التسمية فى حديث نبوى شريف فى صحيح مسلم.

فأضاعوه.. ومازال معظم شيوخنا حتى اليوم أتباع معاوية وخدَّام يزيد.

لشد ما يبدو التاريخ مريراً علقمى المذاق.. لايجدى العزاء إذن.. إلا أن رغبة أخيرة دامية فى استنقاذ بعض حذورنا، تدفعنى للتفكير أنه من المنطقى أن ألعن كل الحكام.. وأن أدين أيضاً تلك الشعوب التى سمحت لجلاديها أن يفترسوها هكذا.. فلماذا لم تسحقهم.. وكى لاتكون إدانة لشعوبنا فقط فإن قراءة تاريخ العالم لاتقل بشاعة ومرارة..

مَن مِن الحكام يأخذ ثأرنا..

كان صلاح الدين الأيوبى أملاً عظيماً التمع ثم مضى..

وكان محمد على مشروع أمل..

وكان أحمد عرابى ثورة شعب ذبيح أطفأه خونة الداخل وغزاة الخارج..

وكان جمال عبد الناصر أعظم أمل ضاع..

وكان أنور السادات يزيداً..

فماذا يكون حسنى مبارك؟

* * *

حسنـــى مبـــارك

ثلاثون شهراً مرت على تولى حسنى مبارك.. علقنا عليه فيها آمالنا. طال انتظارنا.. لكننا نتشبث بالصبر ونمسك أهداب الأمل.. وبالرغم من كل شئ فقد أعطانا هدوءاً كنا نحتاجه.. كما قللت بعض قراراته الصائبة نزيف المرارة الذى ننزفه.. بل إننا فى بعض تصريحاته نكاد نشم أريج مجدنا القومى الذى سفح.. وأسائل نفسى. أنعلق عليه آمالنا كى يهدرها كما أهدرها بطلنا الغالى جمال عبد الناصر.. أنترك له الحكم أم نشاركه.. إن الطغمة الفاسدة التى كانت تحيط بالسادات مازالت تحيط به.. ومازالت كلمات موسى صبرى تسرى فى عروقى فى الصباح كما يسرى سم الحية الرقطاء فى الدم..

ولقد تخيلنا طويلاً وأملنا أن يرفع حسنى مبارك عن كواهلنا رموزاً سارت كالكوابيس.

كنا كل يوم نمنى أنفسنا بأن عيوننا ستكتحل فى الصباح على صفحات الصحف بقراراته التى انتظرناها طويلاً.. لكن الصباح يأتى فتطعننا صفحات الصحف كرسائل عشق خائن.

مازال القذافى مجنوناً وابن يهودية.. ومازال حافظ الأسد خائناً باع الجولان.. ومازال الإمام الخمينى كافراً وسفاحاً.. ومازال النميرى حبيباً وشعب السودان عدواً.. ومازال أنور السادات بطل الحرب والسلام.. ومازالت اسرائيل دولة أولى بالرعاية..

يا أبناء الأفاعى..

يا أيها الصحف التى كانت ذات يوم محترمة..

فلتسقط الكلمات إذن مادامت تمتهن هذا الامتهان الداعر..

وتتطاول أقلام فاجرة على ضمائر جيلنا وتصبح الأكاذيب حقائق فإذا إبراهيم شكرى وخالد محيى الدين خونة لعلاقتهم بليبيا.. وأما بطرس غالى فمواطن عظيم.. ولو تصالح النظام مع القذافى غداً فسوف تنطلق نفس الأقلام الفاجرة تمتدحه(١).. وإننى أسائل نفسى إذا كانت هذه الأقلام محتاجة لحسنى مبارك فما حاجته هو لها.. وليس الأمر متعلقاً بحرية الكلمة، بل إن هؤلاء كقطاع الطرق الذين استولوا على مقاليد الصحافة فى غيبة العقل والأمانة وسيادة الجنون والخيانة.. ولم يكن لأى ظروف طبيعية أن تفرز تلك النماذج الشائهة، ولو سمح للآخرين أن يكتبوا لسقط الخونة والأفاقون.. لكن الدولة بقوتها الأسطورية والتاريخية تحفظ هذا الوضع.. حتى ليكاد القانون يصبح سكيناً فى يد مجنون.. وتكاثرت القوانين حتى أصبحت الدولة تستطيع أن تفعل ماتشاء.. فهى تطبق القوانين على أعدائها وتعفى عبيدها.. ويستطيع الحاكم - أى حاكم - أن يصدر قانوناً بإعدام من يمشى فى الشارع.. لكنه لن يطبق هذا القانون إلا على أعدائه فقط.. وما قانون الردة الذى كان السادات يزمع إصداره إلا مثلاً على ذلك.. وفى ظل مثل هذا القانون كان يمكن لموسى صبرى أن يكون شيخاً للأزهر، ولثروت أباظة أن يكون مفتياً للديار، أما الشيخ محمد الغزالى والشيخ عمر التلمسانى فهما مطرودان من الجنة، وربما محكوم عليهما بالإعدام طبقاً لقانون الردة عن الإيمان بالحاكم وليس الإيمان بالله.. وفى ظل حال كهذا يكون سند المنطق هو رأى السيد الذى يجب أن يلتزم به العبيد حيث تنعدم كل مقاييس المنطق وما اتفقت عليه البشرية عبر آلاف السنين.. إننى أتخيل أستاذاً مجنوناً فى كلية التجارة يلغى جدول الضرب، حيث تكون نتائج الضرب خاضعة لهواة متغيرة كل يوم.. أيختلف هذا الحال عن وضع السياسة فى مصر؟

وبالنسبة للقذافى فقد كان فى عام ٦٩ رمزاً لشباب الثورة العربية.. وفى عام ٧١ كان سبباً ظاهراً «طريق» السادات بسببه نظام الحكم كله واتهم من رفض الوحدة مع القذافى بالخيانة العظمى وكان منهم نائبه وقائد جيشه ونصف وزرائه.. وفى هذا الوقت كان أى تعرض للقذافى مدخلاً أكيداً للسجن.. كان حب القذافى وتقديسه ركن الإسلام السادس وشرط الوطنية الأول.. فجأة غير الحاكم موقفه

١- حدث ذلك فعلاً بعد تحسن العلاقات بين مبارك والقذافى.

وأصبح القذافى ليس قلب الأمة وإنما كلبها[٢].. على القطيع إذن أن ينبح فى الاتجاه الجديد..

لا منطق...

إن المنطق الذى يتغير بتغير الزمان والأشخاص ليس منطقاً وإنما فجور.. لكن ولاة أمورنا يكيلون بكيلين..

أما أجهزة الأمن وصحف الحكومة ـ التى لاتترك على المعارضين كبيرة ولا صغيرة إلا أحصتها فهى ازاء اللصوص صماء بكماء عمياء. لذلك انتشر الفساد فى مصر بصورة لم تحدث فى تاريخها الحديث كله.. فإن الطريقة التى نضحها السادات على المجتمع لم تقتصر على السياسة فقط..

كان السادات يختار أنبل الأسماء لأقذر الأشياء.. وسرى هذا فى السياسة ثم فى الاقتصاد فأصبحت الرشوة عمولة وأصبحت العمولة حقاً، ودار الاقتصاد دورته وتزاوجت السلطة مع المال ليكونا أهم حلقات صنع القرار. معظم أفرادها لصوص مرتشون خونة.. وإنه يكفى تدليلاً على ذلك أن مادخل مصر من عملات أجنبية يصل إلى ١٥٠ مليار دولار منذ حرب أكتوبر ٧٣ حتى عام ٨٣ وهى مقسمة كالتالى ٥٠-٦٠ مليار دولار تحويلات المصريين بالخارج، ٢٠ مليار دولار معونات عربية، ٨ مليار دولار معونات أجنبية، ١٥ مليار دولار دخل قناة السويس، ٣٥ مليار قروض أجنبية.. فضلاً عما أضافته آبار البترول الجديدة.. كل هذه المليارات ومصر الآن مفلسة. لكن بها ربع مليون مليونير يكونون السلطة الحقيقية الحاكمة منتشرون فى كل مكان حتى لقد انعدمت القدوة والمثل الأعلى .

كنا نختنق..

كنا ندمر أنفسنا بأنفسنا..

حلقة سحرية رهيبة ندور فيها دونما أمل.. ولم يكن شئ بقادر على إخراجنا من هذه الدائرة الجهنمية سوى قرار يتخذه حسنى مبارك بتغيير جوهرى يترتب عليه تغيير طبقة اتخاذ القرار وتغير جوهر السلطة الحاكمة والتى كنا نحسبها عدوة لنا ولحسنى مبارك.

---

(٢) التعبير لكاتب فحل تربع على قلوب محبيه أكثر من ثلاثين عاماً.. لخالد محمد خالد، وليس موسى صبرى ولا إبراهيم الوردانى ولا أنيس منصور.

ولم يتخذ حسنى مبارك قراره..

وأتت الانتخابات ووقر فى قلوبنا أن حسنى مبارك كان مثلنا يتحرق شوقاً إلى الفرصة التى تجعله ينطلق لبناء مصر.. وأنه سيكون الزعيم الأعظم الذى يرسى ديمقراطية حقيقية بانتخابات نزيهة تسقط فيها الرموز الدنسة التي شوهت ماضينا وحاضرنا وضيعت مستقبلنا. ويتولى الشعب أمره برموز جديدة تصلح ما أفسده الخونة.

وكانت قوانين الانتخابات قد تغيرت على أيدى السلطة المكونة من تزاوج المال والسلطة، وكان أخذ أبناء هذا الزواج قانون الانتخابات بالقائمة(٣) المطلقة.. وهو قانون ككل قوانين ذلك الزمان.. يعطى القوى الغاصب ويحرم الضعيف صاحب الحق.. ولأن السلطة فى بلادنا ليست سلطة فإن المعارضة ليست معارضة.. وإنما هى تكتل وطنى يتجمع فيه شرفاء يحاولون إنقاذ وطن يذبح.. وطلبت المعارضة أن تُجرى الانتخابات حكومة ائتلافية فرفضت السلطة.. وطلبت المعارضة أن تكون جداول قيد الناخبين معبرة عن الحقيقة فرفضت السلطة وطلبت المعارضة أهون وأذل طلب يشى بمدى الهوان الذى صرنا إليه.. وهو أن يوقع الناخب أو يبصم حتى لايزور صوته.. وبرغم ذلك الطلب وهوانه فقد رفضت السلطة..

وكنا واثقين أن حسنى مبارك سيتدخل فى اللحظة الأخيرة كى ينقذنا معه.. كالمهدى المنتظر سوف يأتى ليشفى جروحنا ويمسح دموعنا ويقبل عثرة الإسلام والمسلمين..

وبدأت الانتخابات..



---

(٣) فى حكم شهير بعد ذلك بسنوات أصدر القضاء حكمه ببطلان هذا القانون، لكن السلطة لم ترضخ لحكم القضاء متحايلة عليه، ويناشد ضمائر الأمة السلطة أن تتصرف كخصم شريف..

انتخابات ۱۹۸٤

وتمت الانتخابات..

ولم يغير حسنى مبارك شيئاً..

لماذ فعلت ذلك يا سيادة الرئيس. معظمنا أحبك وأمل فيك خيراً والقليل اتخذ منك موقف الحذر المترقب، لكن أحداً لم يكرهك.. لماذا تحول بنفسك شعورنا ضدك.. نحن لم نؤذك أبداً فلماذا تسبب لنا كل هذا الألم.. هل تتخيل ياسيادة الرئيس كم آلمت شعبك وخذلته.. ألم يفوق الوصف.. يأس وإحباط، ويتحول نزيف القلب الدامى إلى سخرية مرة تجرى على الألسنة.. ثم تعاتبنا على سلبيتنا..؟ وتنادى بالصحوة الكبرى.. إن كنت تريدها على صفحات صحفك فقد كانت.. لكن إن كنت تريدها حقيقة فهكذا أبداً لن تكون.. إن أعطيتنا صدقاً أعطيناك صدقاً.. أما إن لم يكن الأمر كذلك فاهنأ بولاء مزور تدق به طبول الحاشية ويحرسه الأمن المركزى والأمن القومى خشية أن تتسرب إليه نبرة صدق وحيدة.

بشع يا سيادة الرئيس ما حدث ومخيف.. أن يكسر الشرعية الأمناء عليها.. وأن يخون الأمانة من يناط بهم حمايتها.. وأن يضيّع الحق حارسه.. بشع ومقزز ومروع ورهيب..

بشع كذلك الرجل الذى عجز عن تفسير تضخم ثروته أمام النيابة فصرخ أنه كان يؤجر زوجته لطالبى المتعة.

بشع.. بشع كمن يغتصب ابنته أو أمه..

بل أبشع من كل ذلك يا أيها الرئيس..

إننى أتخيل أحياناً أن الجرائم التى يرتكبها الناس نتيجة طبيعية للجرائم التى تتورط فيها السلطة.

قل لى بربك.. أيهما أفدح.. من يغتصب شعباً أم من يغتصب ابنته..

يا أيها الرئيس..

إذا انهار الأساس المنطقى والأخلاقى للمجتمع من أعلى فكيف تندهش بعد ذلك لأى نوع من الجرائم يمكن أن يحدث فى المجتمع..

قديماً قالوا إذا كُفِر بالله فكل شئ مباح.. والآن أقول لك أنه إذا كَفَرت السلطة الحاكمة بالشرعية والمنطق والأخلاق.. فكل شئ بعد ذلك فى المجتمع مباح.. كل شئ.. حتى الإرهاب.

وهأنذا أرى نذر الخطر كزرقاء اليمامة.. فصدقونى أو اسملوا عينى.

لم تكن الانتخابات الوحيدة المزورة فى تاريخ مصر.. لكنها كانت أقسى انتخابات زورت وكانت استمراراً لذبح مشاعر المواطنين الذين لم يتصوروا أن يتم هذا فى عهد حسنى مبارك.. هل هو معهم أم معنا.. منهم أم منا.. ولماذا يترك من مجموعة السادات من ينفذ نفس سياسته بأسلوب أرق.. ليس حباً في الرقة وليس حناناً على المواطنين ولا حرصاً على مصلحة الوطن، وإنما إدراكاً للعجز عن مواصلة نفس أسلوب السادات.. أم أن حسنى مبارك لم يعلم بما حدث.. فيالها من مأساة أن لايعرف رئيس الجمهورية مايعرفه رجل الشارع العادى.. بل لقد بدا فى أفق السياسة نمط جديد من البلطجة، حيث كان أعوان الحزب الحاكم يعتدون بالضرب المبرح على المواطنين، حتى لقد سقط شهيدان.. وعلى الدماء المسفوكة حقق الحزب الحاكم أغلبية مطلقة. ورحت أسائل نفسى. هذا النائب الذى يعلم أنه وصل إلى كرسى مجلس الشعب بالتزوير هل سيخلص لوطنه.. هل سيتخذ موقفاً واحداً فقط لصالح وطنه.. أم أنه سيشارك فى بيعه.. وهذا الوزير الذى وصل إلى مقعده عن طريق تزوير إرادة الأمة. هل سيصون الأمانة. أى أمانة. أم سيخرب مصر. إذا كان تزوير إرادة الأمة سُنَّة الحكومة فكيف تكون سرقة أموال الوطن حراماً؟.. ولنقُلْها عالية واضحة أن المزورين هم اللصوص الحقيقيون الذين يتخفى ورائهم صغار اللصوص.. وأنهم سبب خراب مصر.. لقد انقلب كل شئ.. وبعد أن كانت حصانة عضو مجلس الشعب ضماناً لحرية الأمة، أصبحت هذه الحصانة ضماناً للعضو كى لا يساءل جنائياً حول العديد من الجرائم منها تهريب المخدرات.. بل إن العضوية كانت تُطلب فى أحيان كثيرة لمجرد ذلك[1].. وبعد

(١) فى تحالف الوفد والاخوان رُشح الدكتور جامع لعضوية مجلس الشعب لولا الصدفة التى حالت دون ذلك فى اللحظات الأخيرة.

أن كانت نسبة الـ ٥٠٪ عمال وفلاحين إنصافاً تاريخياً للكادحين تحولت إلى ملاذ لمن يمتصون دماء العمال والفلاحين.. وبرغم ذلك كله يتشدقون بحب مصر.. أفعال الشياطين وأقوال القديسين.. ويكتب أحمد بهاء الدين أن مصر كلها مدينة بالاعتذار لإبراهيم شكرى الذى أسقطوا حزبه.. ويبدو خالد محيى الدين نبيلاً فى حزبه من أجل مصر وأجدنى أناجيه ساخراً، لا تقلق ياعزيزى.. على العموم سوف يبقى القطاع العام.. أولئك الذين يطالبون بتصفيته هم أحرص الناس عليه لأنه إذا صفى فمن أين يسرقون؟!

وذهبت إلى حلمى مراد فإذا به يحمل حزناً فاجعاً متفجراً بالغضب والثورة.. فتقشعر مشاعرى وأنا أرى هذا الرجل الجليل والانفعال يخرجه عن خطه المنطقى العبقرى.. إنه يشك فى كل شئ، حتى فى كفاءة هذا الشعب الذى طالما كافح من أجله وأحقيته فى حكام أقل سوءاً.. وهو يواجهنى كيف لم يحملوا الشوم والعصى ويواجهوهم دفاعا عن حريتهم ووطنهم.

ثم يقسم الرجل الجليل أنه لولا خوفه من إحباط الشباب لترك البلاد كلها وهاجر. أجل ياحلمى مراد.. لم يعد الوطن وطناً والشرفاء غرباء فيه.. وأخذت أجادله طويلاً حتى هدأ وقلت له أن دورهم هو دور الشهداء.. أن يتركوا قبساً من نور للأجيال الآتية كى يثبتوا لهم أن أجدادهم لم يكونوا جميعاً لصوصاً ولا خونة وعبيداً..

وكان الأكثر إيلاماً أن يقف المسئولون الكبار مشيدين بنزاهة الانتخابات وبالحرية والديمقراطية.. ولست أدرى هل كانوا بتصريحاتهم تلك يخاطبوننا أم يخاطبون العالم الخارجى محاولين أن يستولدوا سفاحاً شرعية كاذبة لحكمهم.

لا أعرف كيف كان يفكر ذلك المسئول وهو يتكلم فيكذب.. هل كان يتخيل أن تُكذب الملايين مارأته بأعينها وسمعته بآذانها وبكته بقلوبها وتصدقه هو.. إن التزوير لم يحدث لطرف ثالث ولا فى دولة أجنبية حتى يكون تكذيبه أو تصديقه رهناً بتصريحه.. بل حدث التزوير لإراداتنا نحن.. يوم القيامة فقط سوف تشهد علينا جوارحنا وحواسنا فتتكلم الأيدى وتشهد الأرجل صادقة بما كنا نفعل. أيريد الفراعين الجدد أن يقلبوا آيات الله فى الدنيا فنُكذبُ أعيننا وآذاننا ونصدقهم هم؟

إن الأمر أسوأ من أن يفقدنا الثقة بالحكام فقط.. بل إنه يكاد يفقدنا الثقة بالتاريخ أيضاً فبعد ألف عام عندما يراجع باحث تلك الحقبة مستلهماً حكمة

التاريخ ماذا سيرى سوى آلاف الصحف والكتب وتصريحات فراعنة وكهنة وحاشية لاتحمل سوى الكذب والتزييف.. وإذا وجد ذلك الباحث تلك الأصوات المقهورة التى ذكرت الحقيقة فسوف يجد آلافاً من الأصوات الكاذبة ترد عليها وتهدر شهادتها.. فإذا صح أن تاريخنا فى المستقبل سيكون مزيفاً هذا التزييف البشع.. فماذا إذن عن تاريخنا الماضى.. أكاذب هو الآخر؟! وكل هذه الأفكار والآلام والأحاسيس المنصهرة والدموع كانت من أجل تاريخ كاذب لم يحدث إلا فى رؤوس عفنة وفاجرة.. وأن التاريخ الحقيقى لم يكتب قط.. يا للألم..

لست من جماعات التكفير.. لكننى أتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى صرح فيه أن المؤمن قد يسرق وقد يزنى وقد يقتل لكنه لايكذب.. صدق رسول الله....

فهل أسائل شيخ الأزهر عن انطباق الحديث الشريف على حكامنا؟

لكن شيخ الأزهر نفسه أصدر فتوى بأن عدم حضور الانتخابات حرام على الشعب، فلما زورت إرادة الشعب لم يفتح الله عليه بشئ.. لن أقبل أبداً أنه لم يعرف.. لسبب بسيط جداً. وهو أن كل مصرى كان يعرف..

فإذا سألت شيخ الأزهر عن الحكام فمن أسائل عن شيخ الأزهر؟!

تبقى نقطة جوهرية وهامة هى حكمنا نحن الأغلبية الصامتة المقهورة على من زوروا الانتخابات، حكمنا الخفى المعلن الصامت المدوى على كل مسئول صغيراً كان أم كبيراً.. تدّخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أو كان يستطيع أن يمنع فلم يمنع.. وكل من كان يستطيع أن يقول لا فلم يقل.. فلقد قلناها نحن بقلوبنا.. وقالها البعض بيديه لكن هؤلاء المسئولون يتبارون فى تبرير خيانتهم بأن شعبنا لايحتمل الديمقراطية مرة واحدة وأنه لابد من التدرج.. شعبنا لايحتمل الديمقراطية؟!

قاصر إذن ذلك الشعب الذى يوغل فى التاريخ سبعة آلاف عام.. نفس أسلوب الصهيونية فى الاستيطان والاستعمار فى الاحتلال ونفس تبريره.. لكن الحقيقة أن الشعب يحتمل الديمقراطية تماماً وهم الذين لايحتملونها لأنه لو كانت هناك ديمقراطية حقيقية فلن يجد هؤلاء المسئولون مكاناً لا فى حزب الأغلبية ولا فى أحزاب المعارضة ولا حتى مع الأغلبية الصامتة. سوف يكون مكان معظمهم السجون بتطبيق قانون العقوبات العادى لا قانون الطوارئ ولا قانون العيب.. سيكونون فى السجن بتهم تتراوح بين الخيانة العظمى والاستغلال والاختلاس

والرشوة والتجسس.

إننى أتساءل وأتساءل وأتساءل: ماهى مصلحة أى مسئول فى تزوير إرادة شعبه.. وما هو الثمن الدنئ؟

فى نهاية الفيلم الأمريكى العظيم (الأب الروحى) يقف زعيم المافيا المنتصر أمام غريمه قائلاً: لطالما سحقتنى وهزمتنى.. وإنى أغفر لك ذلك.. حرقت قصرى وممتلكاتى، أغفر لك ذلك.. قتلت ابنى الوحيد، أغفر لك ذلك.. لكننى لن أغفر لك أبداً أنك استهنت بعقلى.. ثم يطلق الرصاص عليه فيرديه قتيلاً.

أجل ياحكامنا.. قد نغفر لكم كل شئ إلا أنكم استهنتم بعقولنا.

■□■□■

فى أشهر الصيف تكون العدالة فى إجازة.. وكما يحدث فى مصر فإن إجازة الصيف تقتطع جزءاً من الخريف فتكون الفترة الحقيقية للعمل منحصرة بين شهرى نوفمبر وأبريل من كل عام.. وقد كانت تلك هى تجربتى الشخصية عندما ذهبت إلى المحامى العام سنة ١٩٨٤ أشكو له من عدم بداية التحقيق فى انحرافات التأمين الصحى التى تقدمت بها منذ أكثر من عام فواجهنى بأنه منتدب فترة الإجازة فقط وأنه لن يشغل نفسه بأية تفاصيل لن يتمكن من متابعتها بعد ذلك.

كانت معظم المؤسسات فى مصر صورة مصغرة من نظام الحكم.. وكان على رأس كل مؤسسة سادات صغير.. بل كان الصراع فى كل مؤسسة صورة من الصراع على القمة.

شرفاء ضعفاء ولصوص أقوياء.. ويحاول اللصوص تشويه الشرفاء.

وكانت حملة التشهير ضدى تنحصر فى أننى شيوعى وملحد[1].. وأننى أهاجم قادات التأمين الصحى لأنهم من الاخوان المسلمين، وأن الحملة ليست حملة فردية منى.. بل حملة يغذيها الشيوعيون ضد الاتجاه الإسلامى لهدمه مع إنكار مستمر لكل ماتحويه المستندات التى لدى.. واتصلت ببعض أعضاء المجلس الشعبى فى طنطا وشرحت لهم أبعاد القضية وأعطيتهم صوراً لبعض المستندات فقدموا بها استجواباً.. ويستمر الإنكان حتى فى جلسات المجلس الشعبى بالمحافظة فى الرد على الاستجواب، وتكون صورة أخرى من صور الانتخابات

---

(١) جرت فى النهر أمواه كثيرة، ويشهرون بى الآن أننى إما شيعى (لاشيوعى) أو من الجماعات الدينية المتطرفة..!!

المزورة.. فالمستندات تنطق بالحقيقة والمسئول ينكر.. ثم لاشئ.. لا أحد يحاسب أحداً.. وينفجر أحد أعضاء المجلس الشعبى بطنطا (أحد النماذج الشريفة القليلة فى الحزب الوطنى) صائحاً:

ـ ماذا تريدون لمصر.. هل تريدون حمّاماً من الدم.. عندما نعجز كحكومة ومجالس شعبية عن احقاق الحق فلن يكون أمام كل شخص إلا أن يحمل سلاحه ويحق الحق بنفسه.

ويشارك فى الحملة الشرسة ضدى بعض أقطاب الاخوان المسلمين ويشتد ذهولى عندما أجد الأمر ليس خلافاً فى وجهة نظر وإنما كذب صريح بواح لا أجد فيه شبهة واحدة تبرئهم.. وكم كان ذلك قاسياً.. ليس لأنه هجوم علىّ، بل لأننى أحمل للاخوان المسلمين حباً صافياً.. وكنت أرى فيهم بعض أمل الأجيال القادمة.. فإن كذبوا فلا أمل.. وذهبت إلى الدكتور أحمد الزواوى.. كان متابعاً للأحداث خطوة بخطوة.. كان الأمر شديد الإيلام له هو الآخر وبعد صمت طويل قال:

ـ يُعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال.. ويجب أن تعلم أننا تعرضنا فى المعتقل لتعذيب أخرج بعضنا من جادة الطريق إلا من رحمه الله.

وتصادف أن زارنى بالعيادة عميد بمباحث أمن الدولة كنت أهاجمه بضراوة مقرراً أنهم مباحث أمن النظام لا أمن الدولة.. وكان لديه بقايا من الدين والمنطق دفعاه للاعتراف بصدق رأيى، وتشعب بنا الحديث وسألته كيف يكذبُ قطبٌ من أقطاب الاخوان المسلمين باع حياته فى السجون والمعتقلات من أجل آخرته ثم يأتى فى نهاية عمره «ليكذب».. والغريب أن رأيه وافق رأى الدكتور أحمد الزواوى بصورة ماحين قال:

ـ لقد كنا نقصد بتعذيبهم أن نسحق شخصياتهم.. ولقد سحقناها.. فلم يعودوا اخواناً.. ولم يعودوا مسلمين.

ثم انفجر ضاحكاً.

وعندما لم تنجح حملة التشهير ضدى بدأت رئاسة الهيئة ممارسة العنف ضد أصدقائى وزملائى العاملين بالتأمين الصحى ـ ووصل الأمر فى تحقيق رسمى مع بعضهم أن أتهمهم المحقق بالتعامل مع جهات أجنبية ضد الهيئة ـ وكان المحقق يقصدنى أنا بالجهة الأجنبية باعتبارى مستقيلاً وخارج الهيئة ـ وكان هذا نموذج يظهر كيف يقلد الفراعين الصغار فراعينهم الكبار فى أسلوبهم الفاسد.

وتزايد الضغط حتى قدم معظم الإطباء الأخصائيون فى التأمين الصحى

بمحافظات وسط الدلتا استقالة مسببة.. وكان الدكتور شريف زكى وراء هذه الاستقالات بأن حث الباقين على اتخاذ مواقف حق وعدل.

وبدأ الصراع ضد الفساد فى التأمين الصحى يتخذ اتجاهاً جديداً.

* * *

المستشار أحمد رفعت خفاجى
المستشار محمـد الجنـدى
الدكتـور عاطـف صدقـى
الدكتـور حلمـى الحديـدى

وعيادتى

نافذة على المجتمع

مرت شهور الصيف هادئة إلا من بعض مانشرته الصحف.. وفى بداية الموسم القضائى تقدمت بمذكرة إلى المستشار أحمد رفعت خفاجى وإلى النائب العام كما كتبت خطابا شديد اللهجة إلى الدكتور عاطف صدقى رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات آنذاك أقول فيه أننى أعلم أن الدكتور جامع صديقه وزميله فى لجنة الحريات التى شكلها السادات عام ٧١ (وكان ثالثهما هو الدكتور رفعت المحجوب) لكن ذلك لايبرر صمته عن انحرافات التأمين الصحى كلها من أجله. وبعد كتابة الخطاب أصابتنى حالة من الإحباط الشديد فتركت الخطاب على مكتبى عدة أسابيع ناله فيها الكثير من بقع القهوة.. وفجأة قررت إرساله.. وأضفت إلى آخره حاشية قلت فيها:

ـ لقد تركت هذا الخطاب على مكتبى حتى اهترأ اهتراء ضمائر المسئولين عنا.. ولقد قلت لغيرك ولمثلك ما لو مسّ الحديد لذاب وما لو طرق أذنى ابليس لتاب لكنكم لاتتوبون ولا تذوبون.. وبرغم ثقتى أنك لن تفعل شيئاً فإننى أرسل لك هذا الخطاب كى أبرئ ذمتى أمام الله يوم القيامة.

وفى نفس اليوم الذى أرسلت فيه مذكرتى للمستشار رفعت خفاجى فوجئت باستدعاء بريدى للنيابة الإدارية من قبل مستشار آخر غير الذى باشر التحقيق فى البداية.. وذهبت إليه مليئاً بالشك والإحباط مشحوناً بخلاصة تجربتى السابقة مع النيابة الإدارية.

للوهلة الأولى فاجأنى المستشار محمد عبد العزيز أبو عزيز بشخصيته الطيبة البسيطة.. كان معظم من قابلتهم من المستشارين قبل ذلك يعانون من احساس بتضخم الذات والتميز.. لكنه هو لم يكن كذلك كنت أشعر بنوع من

الحرج لأنه سيعرف بعد أيام بشكواى للمستشار أحمد رفعت خفاجى فصارحته بذلك.

وبدأ أخذ أقوالى.. واختلفنا للوهلة الأولى حول أمرين: أولهما أنه كان يريد أصول المستندات التى لدى وكنت مليئاً بالتوجس من أن تهمل هذه المستندات كما أهملت صورها من قبل.. والأمر الثانى: أننى كنت أريد أن أعدد الانحرافات كلها مرة واحدة لكنه رأى أن يستكمل تحقيق كل مجموعة انحرافات على حدة.

وأصّر على موقفه.. وبرغم الشك والهواجس إلا أن حزمه وشخصيته الباعثة على الثقة دفعانى للرضوخ. وبدأ يستدعى الشخص المسئول فى كل واقعة ويسأله فيها فيتبين صدقى. وكنت أحس بذلك فى ملامحه وانفعالاته التى كانت تعبر عن نفسها بطرقات متتالية من أصبعه على المكتب وهو يتطلع للمجهول وسألت نفسى: أيحزنك ياسيادة المستشار أيضاً ما وصلت إليه مصر..

وإزاء موقف المستشار محمد عبد العزيز انكشف موقف الرقابة الإدارية حتى هرعوا محاولين استدراك مافات واللحاق بالتحقيقات فأوكل الأمر إلى عضو الرقابة المقدم محمد عبد المنعم وكان أكثر من احترمتهم من أعضاء الرقابة.

رتضافر مجهود النيابة الإدارية والرقابة الإدارية فى تنافس خلاق حركته تلك الحيوية الهائلة التى بعثها المستشار محمد عبد العزيز فى القضية.

ومرة أخرى يبدو ذلك المعدن الأصيل للشعب المصرى عندما يرى بادرة حقيقية لإحقاق حق وإبطال باطل.. وتسارع الموظفون خاصة كبارهم للشهادة والتى كانت تعنى إزاء محاولات الهيئة المستميتة للتستر نوعاً من الاستشهاد.

والحقيقة المحزنة أنه لا الرقابة الادارية ولا النيابة الادارية قد استطاعا حماية هؤلاء الموظفين من قهر إدارى مروع.. وعلى سبيل المثال لا الحصر فُصِل طبيب فى الأسبوع التالى لشهادته بالحقيقة أمام النيابة العامة فى موضوع الدكتور محمد سليم. وخصم من طبيب ٣٥ يوماً من راتبه وأنقص مرتب طبيب ٤٥ جنيهاً شهرياً بالتلاعب فى أوراق ملفه وكان عليه اللجوء للقضاء حيث مازالت القضية منظورة للآن. أما مديرو الأقسام من الإداريين فقد قامت الهيئة بتشتيتهم لأدائهم الشهادة ومارست معهم كافة أنواع الضغط المعنوى من حرمان من المكافآت إلى تجميد أعمالهم وإسنادها إلى آخرين أقل درجة.. بل قد وصل الأمر إلى الاعتداء بالضرب على مدير الحسابات لأنه قدم للنيابة مستنداً طلبته منه.

ولقد كانت كل هذه الظروف عاملاً جوهرياً فى أن التحقيقات لم تحط إلا

بجزء يسير من الحقيقة.. فلم يكن كل موظفى التأمين الصحى على استعداد للاستشهاد.

وكنت أشعر أن هذه الأحداث شديدة الوطأة على نفس المستشار محمد عبد العزيز والمقدم محمد عبد المنعم بالرقابة الإدارية.. وكانت رئاسة التأمين الصحى بالقاهرة تبذل ضغوطاً مكثفة وصلت إلى محاولة تشويه موقف النيابة والرقابة. وكان عليهما التزام الحياد برغم مايرونه من عصف وبطش بالأبرياء[٢]. كان على الجهاز التنفيذى ممثلاً فى المحافظ ووزير الصحة ورئيس الهيئة مواجهة هذا الموقف.. ولقد واجهوه فعلاً لكن مع الظالم ضد المظلوم. وتقدمت بطلبات عديدة إلى المسئولين لوقف المتهمين عن العمل دون جدوى وذهبت إلى المستشار أحمد رفعت خفاجى أشكو له مايحدث من مذبحة للشرفاء الذين أدلوا بشهادتهم فأخبرنى أنه لايستطيع أن يتخذ قراراً قبل صدور تقرير الرقابة الادارية.

وذهبت إلى الرقابة الادارية وعلى المستوى الرسمى علمت أن تقرير الرقابة يُعدُّ لكنى على المستوى الودى علمت أنه يوأد..

وكان ثمة ضغط سياسى مكثف لتمييع التقرير كما كان يحدث مع كل من كان رمزاً من رموز النظام الماضى والذى مازال حاضراً. كما كانت ثمة محاولات محمومة لإدانة الشهود الذين تقدموا بالمستندات التى مكنت الرقابة من اعداد تقريرها. ونظراً لتشعب القضية وتعدد الانحرافات وامتدادها فقد قرر المستشار محمد عبد العزيز انجاز الجزء الأول من القضية وتحويله إلى المحكمة التأديبية العليا.

وكان موقف المجتمع تلخيصاً لموقف الأمة. الأجهزة التنفيذية إما إيجابية ضد الحق لأنها مستفيدة من الفساد وإما سلبية. البسطاء وعامة الناس مع الحق لكن بلا صوت. لكن الغريب حقاً كان تدخل أحد أقطاب الاخوان المسلمين مع رئيس الهيئة البرلمانية لمحافظة الغربية. كان فهمهما للقضية محزناً وكان تدخلهما لا لإحقاق حق ولا لإبطال باطل وإنما للصلح متجاهلين أن القضية قضية فساد يودى بالأمة فى النهاية للتهلكة. كانا طيبين كأبى موسى الأشعرى لكنهما كانا يفتقدان الوعى التاريخى الذى يجعلهَما جديرين بوضعهما.

---

(٢) وصل الأمر أن أحد قيادات التأمين الصحى صرح لصحيفتى الأهرام والأخبار أن الأمور كانت على خير مايرام وكانت مستشفى المبرة بطنطا تنافس مستشفى المعادى حتى تدخلت النيابة الادارية والرقابة الادارية فانهار كل شئ.

وقال عضو مجلس الشعب أنه برغم كل شئ فإن كل مايحدث زوبعة فى فنجان وسوف يعود الدكتور جامع أقوى مما كان وأنه سينتقم وأنه يخشى علينا من انتقامه. وسألته عن واجبه كعضو بارز فى مجلس الشعب تجاه الفساد فابتسم!!.

كانت ابتسامته ذات مغزى كبير.. فلقد أدرك وأدركت أننا نتكلم لغة مختلفة. إننى أفكر فى مجلس الشعب كما يجب أن يكون لكنه هو يفكر فيه كما هو كائن. أما قطب الإخوان المسلمين ـ الذى أصبح هو الآخر عضواً بمجلس الشعب بعد ذلك ـ فقد كان موقفه أكثر مأساوية عندما جادلنى كثيراً من أجل المصالحة. وفى النهاية أقرَّ بأنه حزين لأنه يعلم أن جميع ما نقوله صحيح كما اعترف بأنه كان يعرف منذ البداية استحالة المصالحة. لكنه خشى أن يعاتبه الدكتور جامع ذات يوم أنه لم يتدخل لإطفاء النار المشتعلة حوله. ووجدت نفسى عزوفاً عن مواصلة الحوار فى حزن.. فإن مولانا يخشى عتاب الدكتور جامع لكنه لايفكر فى محاسبة الله له عن موقف مع الحق كان يستطيع اتخاذه ولم يتخذه.

وفى اليوم التالى صدر أخيراً تقرير الرقابة الادارية. وكان واضحاً أن ضغوط القاهرة قد آتت أكلها وأن التقرير لم يورد إلا الوقائع التى كان لايمكن تجاهلها. على أى حال فقد كان صدور التقرير في حد ذاته مكسباً.

وأصدر المستشار أحمد رفعت خفاجى قراراً بوقف الدكتور جامع وآخرين عن العمل فى ١٩٨٥/٥/٢.

وبعدها بشهر أصدرت المحكمة التأديبية العليا قرارها باحالته إلى المعاش ومجازاة آخرين وتحويل الشق الجنائى للنيابة العامة.

وثمة واقعة طريفة وساخرة وحزينة فى حيثيات حكم المحكمة جديرة بأن تُذكر بتفاصيلها لما تحويه من رموز على فساد عصر.

كانت احدى المخالفات التى حققتها النيابة الاداريتهى أن الدكتور جامع الذى كان يعمل فى القاهرة ثلاثة أيام (يحصل عنها بدل انتقال ومبيت له ولسائق سيارته الحكومية).كان يحصل فى نفس هذه الأيام عن مقابل للكشف على مرضى الأمراض الجلدية فى طنطا وقد ضبطت النيابة سجلات المرضى الذين وقع الكشف الطبئ عليهم واستدعت المرضى فثبت أن أياً منهم لم يذهب للطبيب ولم يصرف دواء. وكان للجريمة أبعاد مختلفة: التزوير فى أوراق رسمية، الاستيلاء

على المال العام دون وجه حق ثم اختلاس الأدوية التى صرفت باسم هؤلاء المرضى.

كان محامى الدكتور جامع فى القضية واحداً من أساطين المحامين فى مصر هو الأستاذ محمد كمال عبد العزيز (والذى كان مرشحاً لمنصب المرشد العام للإخوان المسلمينبعد وفاة الأستاذ عمر التلمسانى) وقد فنّد هذه الواقعة بطريقة أشعرتنى باستحالة التفاهم مع هذا الجبل. فقد انحصر دفاعه فيها أنه بغض النظر عن أن الدكتور جامع هو رئيس فرع وسط الدلتا وهو استشارى الأمراض الجلدية بها وأنه هو الذى تعاقد مع نفسه وأنه كرئيس للفرع قد اعتمد لنفسه مبالغ حصل عليها كاستشارى إلا أن المخالفة هنا تنحصر فى أن الاستشارى حصل على أموال لم يقم بالعمل مقابلها. ولما كان الاستشارى كوظيفة متعاقداً مع هيئة التأمين الصحى وليس موظفاً بها فليس من حق المحكمة التأديبية محاكمته وأن أقصى مايسمح به القانون هو أن توصى المحكمة رئيس الفرع (الدكتور جامع) بفسخ التعاقد مع استشارى الأمراض الجلدية (الدكتور جامع) دون مساس برئيس الفرع لأن الخطأ معقود بالعمل لا بالشخص.. وقد أخطأ الاستشارى لكن وكيل الوزارة لم يخطئ.

وكان رد المحكمة ساخراً ومريراً.. إذ جاء فيه مايلى:

«ولما كان الثابت فى حقه يتم عن اتجاه خاطئ ومدمر فى الادارة يكشف عن روح الاستغلال والتسيب وهو ماكان يتعين أن يتفاداه قادة الوحدات الادارية والهيئات العامة ومن ثم فإنه يكون حقاً وعدلاً أن يحتفظ المحال لنفسه بأعمال الاستشارى التى يسعى إليها وأن يُباعد بينه وبين أعمال الادارة التى لايصلح لها وعلى ذلك فإن المحكمة تقضى باحالته للمعاش».

لكن الأمر كان يحمل بالنسبة لى حزناً خاصاً.. أهكذا يفكر من كان مرشحاً لمنصب المرشد العام للاخوان المسلمين.. ولا أملك إلا هتاف مولانا الإمام الحسين.. «عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أئمتنا».

■□■□■

إزاء الحملة الصحفية المكثفة وتحقيقات النيابة الادارية وتحريات الرقابة الادارية كان موقف النيابة العامة حرجاً فقد حفظت قبل ذلك كل الشكاوى المقدمة ضد الدكتور جامع.

وقد صرح أحد المستشارين بأن المستشار أحمد رفعت خفاجى قد استولى على كل الأضواء فى محاربة الفساد وترك الظلال للنيابة العامة وجهاز المدعى

الاشتراكى.

وهكذا كان التأشيرة المحامى العام ببدء التحقيق فى ١٩٨٣/١١/١ أن تنفذ بعد عامين قضائيين تقريباً وذلك فى شهر مارس ١٩٨٥.

وكان هذا الوقت كافياً تماماً لطمس معالم معظم الانحرافات وإخفاء المستندات وتحرير مستندات جديدة. كما كان الموقف كافياً كى يغير رئيس الهيئة ـ الذى يتمتع بسلطات وزير ـ بعض القوانين وأن يصدر قوانين جديدة فى محاولة لتقنين الانحراف.

واستدعتنى نيابة الأموال العامة أخيراً لأخذ أقوالى. وكانت تجربتى هناك مروعة.. وحدث صدام عنيف بينى وبين رئيس النيابة القائم بالتحقيق.

كان من حقى كصاحب قضية أن أسرد الوقائع بالتفصيل وكان هو يريد الاختصار، وكان يريد أن ينهى فى جلسة واحدة ماسردته على النيابة الإدارية فى أكثر من عشرين جلسة استغرقت كل جلسة منها أكثر من ثلاث ساعات. وقرر فى ضيق زنه سينهى أخذ أقوالى فى جلسة واحدة حتى لو استمر التحقيق حتى صباح اليوم التالى. وكنت أعلم أن أى تصرف حاد منى قد يعرضنى لمخاطرة جمة.. فقد كانت تملأ طنطا أيامها واقعة خطيرة قام فيها أحد وكلاء النيابة بحبس أربعة أطباء لأنهم لم يحسنوا استقباله عند قيامه بزيارة قريب له فى المستشفى.

وبرغم ذلك فقد تماسكت مصراً على موقفى.. وبعد خمس ساعات مرهقة أحسست باليأس والإرهاق الذهنى وكان الخيار المطروح أمامى أن أنهى مالدىّ أو أن أستمر فى الحديث لليوم التالى.. ووجدت حلاً وسطاً هو أن أتقدم بالمذكرات التفصيلية التى سبق أن تقدمت بها للنيابة الإدارية والنيابة العامة وصور تقرير الجهاز المركزى للمحاسبات وصوراً لبعض المستندات.

وبلغ الصدام ذروته عندما تصفح هذه الأوراق باستهانة، وقال أنها لاتصلح. وهنا كان موقفى حاداً فقد قلت له بهدوء ظاهرى أن له الحق فى ذلك.. لكن من حقى أن يثبت فى محضر التحقيق أننى قدمت له مستندات لاتصلح وأنه رفضها وصاح فى وجهى:

ـ اثبت ذلك كى تذهب بعد ذلك وتنشر فى الصحف أن النيابة متواطئة مع الدكتور جامع.

ورددت بهدوء أيضاً:

ـ لن أنشر فقط.. بل سأذهب إلى النائب العام وإلى كل جهة أستطيع

الوصول إليها.. فماذا يضيرك إن كانت هذه المستندات لا تصلح فعلاً.. وبدأ فى تجريحى قائلاً:

ـ إن هذه المستندات ستقودك إلى السجن لو كنت زوّرتها كى توقع بالمسئولين فى التأمين الصحى.. ثم أين كنت منذ عام ٨٢ وهذه المستندات لديك.

ـ سوف أتجاوز عن تجريحك الذى أرفضه.. لكن عن الشق الثانى أجيبك، بل أين كانت النيابة وقد قدمت لها هذه المستندات منذ أوائل عام ٨٣.

ـ إننى لم أرك إلا اليوم.

ـ لكننى رأيتك منذ عامين.. رأيتك كرئيس نيابة وليس كشخص وقد عرضت عليك أيامها كل هذه المستندات ولم تفتح حتى محضراً للتحقيق.

قال فى جفاء:

ـ هذه المستندات لاتصلح[٣].

قلت فى غضب هائل مكتوم:

ـ لا أستطيع أن أفرض عليك رأيى لكننى فى نفس الوقت أرفض أن تفرض علّى رأيك.. وبالمنطق يصبح أمامنا خيارات ثلاثة: إما أن تقبل المستندات كجزء لا يتجزأ من الأقوال. وإما أن يثبت فى التحقيق أنك رفضت هذه المستندات لأنها بلا قيمة، وإما أن تتركنى أمضى فلن أوقع على أقوال أراها ناقصة.

وأخيراً قرر قبول المستندات.

بالطبع لم يسجل هذا الحوار فى الأوراق.. وكتبت إلى النائب العام أخبره بما حدث.. وأنه خطير جداً أن مايدون فى أوراق التحقيق أحياناً ليس أقوال الشاهد ـ أو المتهم ـ بل مايريد لهم وكيل النيابة أن يقولوه وتمنيت فى أعماقى لو يضاف تسجيل صوتى إلى التسجيل الكتابى لوقائع أى تحقيق.

وذات يوم كنت أروى القصة أمام بعض أصدقائى من المستشارين فضحكوا طويلاً.. وقال أحدهم أن التعامل مع النيابة خطير جداً وأنه كان من السهل أن أسجن بتهمة التطاول على النيابة. وحكى أحدهم قصة فاجعة حدثت معه منذ عشرين عاماً.

---

(٣) كانت هذه المستندات بعد ذلك جزءاً أساسياً فى قرار الاتهام.

كان أمامه طبيب متهم فى إحدى القضايا. وكان ذكياً جداً وتسنده مراكز عديدة للسلطة.. وقد حاول معه بمختلف الوسائل فى جلسات متعددة أن يحصل على اعترفاته دون جدوى.. بل كان ذلك الطبيب يتعمد التطاول عليه وإهانته.. وفى ذلك اليوم تعمد المستشار (الذى كان أيامها وكيل نيابة) أن يتأخر فى بداية التحقيق حتى الساعة الثانية.. انصرف جميع الموظفين ماعداه وسكرتير التحقيق وجندى حراسة.. صرف جندى الحراسة وقام وكيل النيابة فجأة وانهال بالضرب على الطبيب.. ضربٌ مبرح تهشم على إثره زجاج المكتب. ظل يضربه حتى انهارت قواه فأخذه إلي دورة المياه ووضع رأسه فى المرحاض.. انهارت أعصاب الطبيب تماماً فوقّع على أعتراف كامل بما بدر منه.. تركه وكيل النيابة يمضى وأرسل سكرتير التحقيق على الفور ليشترى زجاجاً للمكتب وأنهى محضر التحقيق فى موعد مبكر عن الحقيقة.. وذهب الطبيب بعد ذلك إلى كل مكان يشكو مما حدث.. وأجرى تحقيق فعلاً، لكن لم تثبت أقوال الطبيب المتهم، بل أحس من اشتكى إليهم أنه مجنون فليس معقولاً أن يفعل وكيل النيابة ذلك خاصة بعد أن تناقضت أقواله مع ساعة انتهاء التحقيق وبعد أن كذّبه سكرتير التحقيق.

ويردف المستشار ضاحكاً:

ـ تعمدت فعلاً أن أفعل معه أشياء لايصدق أحد أن وكيل نيابة يفعلها.. ولقد صدق حدسى فلم يصدقه أحد.. لكننى كنت حزيناً بعد ذلك عندما دخل السجن ومات فيه.

وكان المستشار مايزال يضحك.

لكنى قلبى كان يبكى.

فى مكتبى تحيط بى أصص نباتات الظل وزهور الزينة.. أعشق الخضرة وجمال الطبيعة حيث أجد العزاء السرمدى عن بشاعة الواقع. أراقب فى نشوة براعم الافرع الجديدة والزهور حين تولد.. ويغشى الحزن قلبى عندما يصفرّ عود أو تسقط زهرة.. فكيف يستطيع هذا القلب أن يحتمل مافعلته تلك الحيوانات البشرية فى السجون والمعتقلات.. إننى أتخيل نفسى أمام وكيل النيابة، أفرض رأيى عليه فيصرف جندى الحراسة وينهال ضرباً علّى حتى تنهار قواى فيضع رأسى فى المرحاض فأوقع على مايريد.... وأتخيل بعد ذلك أن تهمتى سياسية وأن نيابة أمن الدولة هى التى تحقق معى وأننى لن أنصرف إلى بيتى، بل سيأمر وكيل النيابة بحبسى حتى تتلقفنى الكلاب البشرية لتمارس معى ذلك التعذيب

الوحشى الذى تمتلئ به صفحات الكتب.

لن أنس قط ما حكاه لى صديق اتُّهم فى تهمة سياسية واعتقل عاماً ونصف عام، ثم أفرج عنه دون محاكمة.. كنا فى شرفة شقة فى المعمورة أثناء المصيف، وكنت أتطلع إلى البحر الغارق فى ظلمات لانهائية موحية بقدرة الخالق الجبار المنتقم.. فى أيامه الأولى فى السجن سمع صرخات سجين فى العنبر المجاور.. وفهم أن عتاة المجرمين ينتهكون عرض سجين.. أخذ يحكى بالتفاصيل الدقيقة توسل الرجل إليهم فى البداية ومقاومته ثم انهياره.. ثم توسله إليهم أن يكتفوا بانتهاك عرضه مرة واحدة ثم توسله أن يكتفوا بمرتين.. ثم بثلاث مرات.. وفى النهاية لايكون توسله من أجل شرف بل بسبب الألم الجسدى.. كان صديقى يرتجب وكأنما صرخات السجين مازالت تدوى فى أذنيه مختلطة بهدير أمواج البحر.. أتصنع أننى أراقب البحر مخفياً وجهى عنه حتى لا يرى الدموع فى عينى.

إن تفاصيل التعذيب لم تعد خافية على أحد.. كل سجين سابق يستطيع أن يسرد مايقشعر منه البدن.. والأنكى من ذلك أننى فى أى جلسة خاصة مع ضباط السجون والمباحث أجدهم يعترفون بما يقومون به، بل ويفخرون به أحياناً ويتندرون به أحياناً أخرى مستعيدين مناظر الضحايا وتصرفاتهم تحت وطأة التعذيب.. ومع ذلك فإن ولاة الأمر ينكرون كل يوم حدوث تعذيب فى السجون، فكيف نصدقهم فى أى شئ بعد ذلك.

أفكر كثيراً فى كنه أولئك الجلادين.. أهم بشرمثلنا لهم قلوب تفرح وتترح ومشاعر تشعر وتحس.. كيف يستمتعون بصرخات الضحايا وجلودهم تكوى بالنار وتتمزق تحت وطأة السياط والشوم وأجسادهم تصلب وأعراضهم تنتهك.. ألم يشعروا قط أن هؤلاء الضحايا إخوانهم فى البشرية.. وأنهم أفضل منهم ملايين المرات.. أكثر حتى من فضل الإنسان على حيوان متوحش فلم تعرف الدنيا قط حيواناً يعذب حيواناً آخر لمجرد التعذيب.. كيف تنهى هذه الكلاب البشرية ولائمها الوحشية ثم تنصرف إلى بيوتها تمارس حياتها العادية.. أليس لهم ضمير قط.. أقدُّوا من حديد.. ألا يذكرون شيئاً مما يفعلونه.

إننى بعد ٣٥ عاماً مازلت كل حين وآخر أذكر مشهداً يدمى قلبى. كان فى منزلنا قطة عمياء، كنت أشفق عليها كثيراً.. وذات يوم كانت تلعب فى الحديقة ففاجأها كلبان من كلاب الصيد.. حاولت عندما أحسّت بهما فى اللحظة الأخيرة

أن تهرب لكن الكلبين مزقاها.. وفى طفولتى ظللت أعواماً حزيناً على هذه القطة غارقاً فى أحلام يقظة أنقذ فيها قطتى.

بم تشعر إذن تلك الكلاب البشرية وهى تمزق ضحاياها. المذهل أنهم يعيشون بيننا حياة طبيعية.. بل إنهم يصلون ويصومون ويتعاملون فى المجتمع برقة ودماثة فلا صلوا.. ولا صاموا.. أى نوع من الشياطين هم.. وذات يوم كنت اجادل أحدهم والمسبحه تتراقص فى يديه: ألم تقرأ الحديث النبوى عن امرأة دخلت النار في قطة حبستها.. وكان رده أنهم ينفذون أوامر أولى الأمر.. فسألته ترى لو أمروك أن تسرق أو أن تزنى أو أن تهرب المخدرات أكنت تفعل.. فأجاب لا.. فانفجرت فيه لم إذن تستجيب لهم فيما هو أشد من القتل. ولم يحر جواباً.. وقلت له أننى لا ألتمس لهم العذر قط لكننى ألتمس العذر لضحاياهم الذى حكموا عليهم وعلى نظامهم بالكفر.

كان ذلك العميد بمباحث أمن الدولة يرتجف أمامى.. وأحسست بنوع من الاشفاق عليه.. إحساساً جعل فكرة مجنونة تقفز إلى رأسى وهى أن يتولى فتحى رضوان الدفاع عنهم.. أجل أن يدافع عنهم وأن يرفع لهم قضايا تعويض، فلقد كانوا ذات يوم بشرا مثلنا. لهم ما لنا من الأحلام والمثل.. لكن سلطة مجرمة مسختهم مسخاً فحولتهم من بشر إلى حيوانات بشرية. ألا ما أقسى أن يكون إبنى واحدا منهم ويالحسرة آبائهم وأبنائهم وزوجاتهم أن يجدوا فجأة قرة أعينهم ممسوخين كلاباً وحشية.. ولسوف يأتى زمان غير هذا الزمان الردئ والقمئ سوف يكون عاراً على أبنائهم أن ينتسبوا إلى مثل هؤلاء الآباء فما ذنب الأبناء.. وماذنب الزوجة التى اقترنت بفتى الأحلام فإذا به حيوان.. فإذا لم يستطع شيخ الجيل فتحى رضوان تحويل سهم الاتهام نحو سلطة مجرمة أفلا يستطيع أن يعوض أل تلك الحيوانات البشرية.

إلا أن النظرة الشاملة الموضوعية يجب ألا تكتفى بإدانة تلك الوحوش البشرية فقط.. لأن التعذيب لايقتصر على السجون والمعتقلات.. بل لقد أصبحت معظم أقسام البوليس وكراً للتعذيب.. كما أن وسائل القهر تشعبت بصورة أخرى فى عصر الانفتاح والانذباح لتشمل كل شريف فى كل مكان.. وعادت إلى القرى سطوة العائلات القديمة لتطحن الفقراء طحناً.. كما أن كل متصد للفساد فى مجتمع فاسد يتعرض لوسائل قهر بشعة ومروعة..

ولعل محاولة حصر وسائل القهر والتعذيب تبدو مستحيلة لأنها تشمل كل

تفاصيل حياتنا اليومية.. وإلا فخبرونى فى أى دولة فى الدنيا يمكن للشعب أن يشرب مياهاً ملوثة بمياه المجارى ولا تسقط حكومته.. وفى أى بلد من بلاد الدنيا يطعم الشعب أطعمه مسمومة وفاسدة دون أن يثور.. بل لقد نجحت السلطة أن تجعل كل هذه الأمور تبدو كما لو كانت شيئاً طبيعياً.

❁ ❁ ❁

كانت عيادتى نافذة لى على المجتمع.. أقابل مختلف فئاته فأرى العفن يتخلل كل شئ.. لم تعد فئة مستثناة.. وإن السلطة التى حولت بعض أبناء هذا الشعب إلى حيوانات متوحشة لا تألو جهداً فى أن تحول باقى فئاته إلى حيوانات مستأنسة.

وذات يوم جاءتنى فى العيادة طفلة فى العاشرة من عمرها مصابة ببطء فى النمو وتخلف عقلى.. وكانت مختلف وسائل الفحص الإشعاعى لاتظهر مرضاً معيناً.. وسألت أباها عن تاريخها المرضى فإذا به ينفجر باكياً.. وُلدت الطفلة طبيعية فى أعوام الانذباح، وارتفاع الأسعار يشوى الفقراء شياً.. كانت الأسرة كلها تتضور جوعاً ولم يكن فى ثدى الأم لبن ترضعها به.. ولم يكن لديهم ما يشترون به البديل فظلوا أكثر من عام يرضعونها ماء يخلطونه بالسكر إذا توفر.. ومن يومها والطفلة هكذا.

وتحولت نقود الرجل التى دفعها مقابل الكشف إلى أفاع سامة تنفث الدم فى عروقى فأعدتها له.. لكننى كنت عاجزاً عن أن أقدم اعتذار جيلى لهذا الرجل كى أعوضه عن ابنته.. وكنت أعرف أن ملايين الجياع فى وطنى يطاردوننى. وأنه فى مجتمع كمجتمعنا لايوجد أبرياء.. فالكل ملوث والكل مدان.. وهأنذا كواحد ممن يدعون تشبثهم بالدين والمثل العليا ازداد ثروة كل يوم وقد أنفق مئات الجنيهات للترفيه عن أسرتى.. لكن هذه الجنيهات تجمعت من مثل دماء هذه الطفلة المسكينة فكيف يستريح لى ضمير وأين أنت ياعمر بن الخطاب.

وذات يوم فوجئت بطبيب يزورنى فى عيادتى ويفاجئنى بطلب مروع.. إذ يقول لى أنه نقل من القاهرة إلى طنطا وأنه يريد التعامل معى كأخصائى أشعة كما كان يتعامل مع الزملاء بالقاهرة.. ولم يدر بخلدى مايقصده حتى باح به.. كنت فى القاهرة أرسل الحالات لعمل الأشعة ولى نسبة مئوية أتقاضاها من إخصائى الأشعة.. ولقد جئت كى أتفق معك هل ستسدد لى باليوم أو بالأسبوع.

طردته من عيادتى شر طردة بعد أن ألقيت عليه درساً فى مبادئ الأخلاق.

لكن المحزن حقاً كان ذهوله لتصرفى معه.. فقد وقر فى ذهنه أن تصرفه هو الطبيعى وأن تصرفى أنا هو الشاذ.. وكان هذا دليلاً على عمق مأساة مخيفة وهى انهيار مستوى الأطباء. ليس العلمى فقط وإنما الأخلاقى أيضاً. وعندما طرحت هذه الواقعة على كثير من الزملاء أقروا بأن هذه الطريقة منتشرة جداً.. وعللوها بكثرة عدد الأطباء وقلة فرص العمل الشريفة المتاحة والأزمة الاقتصادية التى تأخذ بخناق الجميع.

كنت مذهولاً وأنا أفكر: كم من المرضى سيحولهم هذا الطبيب وآلاف مثله لإجراء فحوصات أو حتى عمليات جراحية لا لشئ إلا ليحصل فى نهاية اليوم على عدة جنيهات مقابل كل مريض يحوله...

وفى عيادتى أيضاً كنت أرى عشرات الحالات التى تعانى من مضاعفات خطيرة لعلميات جراحية لم يكن لها فى الأصل داع.. فقد حولها طبيب مرتش وأجراها طبيب جاهل.. ولم يكن الأمر مجرد أزمة اقتصادية، بل علامات مروعة على انهيار المجتمع كله.. فأمثال هؤلاء لم ينجحوا بصورة طبيعية، بل بالغش فى الامتحانوالدروس الخصوصية ورشوة الأساتذة.. وأمثال هؤلاء يشاهدون انهيار المنطق الأخلاقى فى كل يوم.. فعضو مجلس الشعب عن دائرته نجح بالتزوير.. ومدير مستشفاه كان لصاً فرقى إلى وكيل وزارة.. ووزراء ورؤساء مجلس إدارة يغترفون من المال العام دون رقيب.. يعرفهم كل الناس لكن الحكومة لاتعرفهم.. ولأنها لاتعرفهم فإنها ترقيهم كل يوم فيزدادون مجداً وقوة.. لِمَ إذن أستنكر موقف هذا الطبيب الفاسد اللص وماذا كان يمكن أن أفعل معه أكثر من ذلك؟ كل ما يمكن أن أبلغ النقابة.. وماذا ستفعل النقابة له.. وماذا فعلت قبل ذلك لأمثاله المجرمين الذين شاركوا مجرمين آخرين فى تعذيب المعتقلين.. بل والكشف عليهم لا لعلاجهم وإنما لتقرير إذا كانت حالتهم الصحية تحتمل التعذيب.. وأطباء آخرين مجرمين قتلة كانوا يتغاضون عما لحق بالمعذبين من إصابات أو يهملون حالاتهم المرضية الموجودة عندهم أصلاً.

وهكذا مات عبد العظيم أبو العطا فى سجن أمير المؤمنين السادس أنور السادات.

يحدث هذا كله فلم أقيم الحد على الصغير إذا انحرف. فإذا انحرف الكبير عينته وزيراً أو عضو مجلس شعب أو رئيس جامعة.

وفى عيادتى كانت الفئران ـ كما فى مصر كلها ـ أزمة مستعصية على

الحل فبرغم كل وسائل المكافحة كانت تتسلل فى الليل من الشارع والابنية المحيطة.. وقرضت بأسنانها الحادة كابلات الضغط العالى لأجهزة الأشعة.. فتعطل الجهاز عن العمل.. واستدعيت مهندسى الصيانة الذين أشاروا بضرورة تغيير الكابلات واستيراد أخرى ثمنها ١١٥٠٠ جنيه مصرى.. ورفضت ذلك واستدعيت أحد الفنيين الذين اكتسبوا خبرتهم فى القطاع العام. كان أجره هو شاملاً الانتقال من القاهرة خمسين جنيهاً.. وتكلف إصلاح الكابلات عشرة جنيهات فقط!! ومازال الجهاز يعمل بكفاءة تامة منذ أربع سنوات.

ولمست وجهاً آخر من أوجه مأساة الديون فى مصر. فلو كان هذا الجهاز فى مستشفى حكومى يديره واحد ممن يعتبرون العمولة حقاً مشروعاً لوافق فوراً على استيراد الكابلات.

ولم يكن المبلغ سيقتصر على ١١٥٠٠ جنيه، بل كان سيضاف إليه عمولته والتى لاتقل عن ١٠٪ وقد تصل إلى ٥٠٪ إذا كان مخاطر إهدار المال العام عالية.. هكذا إذن تكونت ديون مصر «١١٥٠٠جنيه» فى عيادة صغيرة فكم يكون المبلغ فى مستشفى كبير، كم يكون فى مصنع، وكم يكون فى صفقة كبرى، لو أننى تخيلت أن المبلغ سيتضاعف مائة مرة فى مؤسسة كبيرة لكان ١,١٥ مليون جنيه، ولو تخيلت أنه يوجد فى مصر مائة ألف من المنحرفين الكبار ـ وهو رقم أظن أنه متواضع ـ لكان حاصل العملية الحسابية البسيطة أكثر من مائة مليار جنيه. ولو واصلت التخيل فقسمت ديون مصر التى تجاوز مائة مليار جنيه على مائة ألف منحرف لكان نصيب كل منحرف مليون جنيه فقط من المال العام، وحيث أن عمولته ١٠٪ فيكون مايصل إليه فعلاً ـ بإيداعه فى بنوك أجنبية فى الغالب ـ مبلغ مائة ألف جنيه فقط. وليس كل هذا الخيال تهويمات عقل مريض.. لأن حاصل العملية الحسابية عن ذكل هى مائة ألف منحرف كل منهم حصل على مائة ألف جنيه.. فيكون ناتج الضرب عشرة مليارات جينه.. بينما صرح كمال حسن على رئيس الوزراء السابق بأن الأموال المصرية المهربة للخارج تصل إلى مائة وعشرين مليار جنيه، وليست عشرة مليارات فقط. ليس خيالى إذن خيالاً مريضاً، بل هو مجرد محاولة عجزت عن إدراك فداحة الواقع البشع(٤).

(٤) فى تقرير رسمى ذكر أنه فى مصر ربع مليون مليونير. فإذا تخيلنا أن نصفهم شرفاء ـ مع التجاوز فى المبالغة ـ بقى لدينا ١٢٥٠٠٠ وليس مائة ألف فقط.

وذات يوم تعطل موتور جهاز التحميض الأتوماتيكى وقرر مهندس الشركة الأجنبية أنه يلزم استيراد موتور آخر بخمسمائة جنيه.

واستدعيت مهندساً مصرياً يعمل فى مصنع صغير فى طنطا وأوضحت له العطل. وقلت له أننى أعلم أن العطل يمكن اصلاحه وأننى أرفض شراء موتور جديد ليس لأن ذلك يعنى استنزافى فقط، بل لأنه يعنى بعضاً من استنزاف مصر ككل.. وأنهم فى الشركة يضعوننى فى هذا الخيار المستحيل: إما أن أستورد موتوراً بخمسمائة جنيه وإما أن يتعطل جهاز بتسعة آلاف جنيه.

وأدرك المهندس الشاب حقيقة دوافعى وانفعالى فشاركنى فيها.. وأخذ الموتور وعاد به فى اليوم التالى سليماً تماماً..

وفاجأنى بأن نفقات الاصلاح جنيه ونصف جنيه.

ووجدتنى أتذكر صرخة نعمات أحمد فؤاد الداوية:

- ليس انفتاحاً بل انذباحاً!!

وثمة واقعة أخرى حدثت فى عيادتى تلقى ضوءاً هائلاً على كارثة الديون فى مصر.

فى عام ١٩٨٥ تعاقدت مع بنك التنمية والصناعة على اقتراض مبلغ ٣٤٠٠٠ دولار لشراء جهاز موجات فوق صوتية. وفتح الاعتماد المخصص من القرض الخامس للبنك الدولى الذى يعطى قروضاً بشروط ميسرة لتشجيع الصناعات الصغيرة فى دول العالم الثالث.. كان السعر المعلن للدولار ٨٤ قرشاً.. وكان المبلغ يساوى ٢٨٠٠٠ جنيه تقريباً تصل أقساطها على خمس سنوات بالفوائد إلى ٤٥٠٠٠ جنيه.

وأجريت كمل أجرى البنك دراسات الجدوى على هذا الأساس وتم التعاقد، حيث وقعت للنبك على شيكات بمبلغ ٤٥٠٠٠ جنيه.

ووصل الجهاز من شركة سيمنز الألمانية وتم تشغيله واستلامه.. ومر عام ٨٥ وهو فترة سماح لايسدد فيها قسط. ثم سددت القسط الأول فى منتصف عام ٨٦.. وفى أوائل عام ٨٧ فوجئت بالبنك يرسل إلّى إنذاراً بأنه نظراً لتغيير سعر الصرف بين الجنيه المصرى والدولار فإن ثمن الجهاز ارتفع من ٤٥٠٠٠ جنيه إلى ١٤٥٠٠٠ جنيه وكان هذا يعنى نسف دراسات الجدوى التى اشتريت الجهاز على أساسها.

وكان القرار يمس مئات الأطباء.. وكتب أحمد بهاء الدين عنه فى عموده اليومى.

وعلى القارئ أن يدرك أن هذه الأجهزة اشتريت بصورة فردية لكل منا حيث كنا حريصين على اختيار أفضل الأجهزة وأنسب الأسعار. وأن الكارثة أفدح بكثير لدى المؤسسات العامة عندما تتدخل الوساطة والرشوة لتتضاعف الأسعار وتقل الكفاءة.

ولعل القارئ يدرك أن ما يحدث مع الأفراد يحدث مع مصر.. وأنه حتى القروض المدروسة يمكن أن تصل بالاقتصاد المصرى إلى العجز المطلق.. فما بالكم بالقروض غير المدروسة والتى لم تعقد إلا بغرض الحصول على رشوة من خلفها.

وبالنسبة لى شخصياً فقد اتخذت القرار الذى وددت أن يتخذ حسنى مبارك قراراً مثله وهو عدم الرضوخ للبنك الدولى أو بنك التنمية الصناعية وعدم دفع الزيادة الظالمة فى السعر.. ومواجهة اجراءاتهم باجراءات قضائية مضادة.

وكان كل ذلك رغم بشاعته يشكل وجهاً واحداً للمأساة.. أما الوجه الآخر والذى لايقل خطورة فهو تعامل فرد مع شركة عالمية كبرى تحتكر توريد قطع الغيار والصيانة بصورة يمكن أن تصل بأى مؤسسة اقتصادية إلى الخراب.. وقد لمست بنفسى هذا الواقع عندما جاء أحد مهندسى شركة سيمنز لتركيب بعض الأجهزة الإضافية على الجهاز الأصلى.. وتعطل منه الجهاز لخطأ منه.. وظللت شهوراً طويلة أسعى خلف الشركة لاستيراد قطع الغيار من المانيا والجهاز معطل.. والبنك يطالبنى بسداد الأقساط.

وكنت أدرك أن ما أعانيه تعانيه مصر مثلى وبصورة أشد.. كنت فرداً واحداً فى مواجهة شركة عالمية وبنك دولى.

وتذكرت حسنى مبارك وهو يسعى فى أوروبا مفاوضاً دائنيه..

وإذا كان لم يصدر قراراً بإيقاف سداد مصر للديون التى يمثل معظمها عمليات نصب واحتيال خوفاً من رد فعل الدائنين فلماذا لم يصدر قراره بمحاسبة من اقترض هذه الديون.

معظمهم لصوص ياسيادة الرئيس، فلماذا يكون عهدك رحيماً باللصوص رحمة أمّ، قاسياً على المعارضين قسوة جلاد.. إن رئيس مجلس الإدارة فى القطاع الخاص إذا عجز عن سداد ديون شركته يُشهر إفلاسها وتباع فى المزاد وقد يدخل السجن إن لم يسدد من ماله الخاص تلك الديون.. فلماذا لا يعامل كبار اللصوص الذين أغرقوا مصر فى الديون نفس المعاملة.. كل وزير وكل

مسئول أبرم قرضاً كان عليه أن يدرس إمكانية سداد هذا القرض.. وليس ذنب الشعب المصرى أن هذا الوزير أو المسئول قد اختلس القرض أو حتى أساء التقدير.

فلنصادر من ثروة كل منهم بقدر ما أهدر من أموالنا كى نسدد بها ديوننا.. فذلك خير من ندائك لسداد ديون مصر والذى تمخض عن ملايين قليلة تمثل رداً بليغاً من الشعب الذى يدرك أنه غير مسئول عن هذه الديون فلماذا يسددها.

بمثل هذه الطريقة إذن تبرم صفقاتنا وقروضنا الكبرى.. وهكذا كانت صفقة هضبة الأهرام وصفقة الحديد والصلب وصفقة البوينج وأتوبيسات مرسيدس الإيزانية ووارد الأمريكية وجنرال موتورز وآلاف الصفقات الأخرى التى لا نقرأ عنها فى الصحف لكنها تحدث.

الحمد لله أننى لا أعرف كيف تتم صفقات السلاح.

كان أحد مرضاى ذات يوم أستاذاً فرنسياً يحاضر فى كلية الآداب.. وتحاورنا طويلاً عن عظمة الأدب الفرنسى ووجدتنى فى النهاية أسأله فى مرارة أنه بعد مائتى عام من الثورة الفرنسية فمازال فهم الفرنسيين لشعارات الثورة بالحرية والمساواة والأخاء فهماً قاصراً.. فهو يقصر التطبيق على الفرنسيين فقط. وببعض التجاوز على الأوروبيين والأمريكيين.. لكن نفس الذين يطبقون هذه المبادئ قتلوا فى يوم واحد فى مدينة ستيف الجزائرية ٤٥ ألف شهيد لأنهم طلبوا لوطنهم نفس مايطالب به أى مواطن فرنسى لفرنسا.. ثم أن العالم الغربى عموماً والذى يطبق فى بلاده منهجاً ديمقراطياً صارماً يفعل العكس فى دول العالم الثالث، حيث يشجع دائماً ويخلق أحياناً زعامات خائنة لأوطانها بل وسفاحين مجرمين يغتالون شعوبهم.. وبرغم هذا يقف العالم الغربى مع هؤلاء المجرمين مساعدا لهم لكى يسحقوا بمنتهى القسوة معارضيهم.. وإن المعارضين لايشكلون فى معظم دول العالم الثالث مجرد معارضة للنظام بسبب اختلاف وجهات النظر كما يحدث فى العالم الغربى.. بل هم يشكلون ضمير الوطن الحريص على تاريخه فى مواجهة قيادات خائنة وعميلة.. وضربت له أمثلة عديدة لمواقف فرنسا وبريطانيا وأمريكا فى افريقيا وآسيا وعن مواقف الغرب الإجرامى فى استنزاف ثروات العالم الثالث وإغراقه فى ديون تدمر اقتصاده.

وكان الأستاذ الفرنسى عظيماً حين قال:

ـ من المحزن أن كل ماتقوله صحيح.. لكن هناك نقطة غابت عنك جعلتك

لاتستطيع فهم الدوافع.. ذلك أن تقدم الحضارة فى الغرب هو تقدم مادى وعلمى مذهل يواكبه انهيار أخلاقى وإنسانى مذهل أيضاً.

ووجدتنى أفكر فى حسنى مبارك..

من مكانى المتواضع أنا المواطن العادى أرى كل هذا وأفكر فيه وأحلله..

فماذا ترى أنت من مكانك العالى فى القصر الجمهورى؟!

* * *

المسئولون

كشهادة حق للدكتور عاطف صدقى فقد فوجئت بعد شهور من إرسال خطابى له باستدعائى إلى الجهاز المركزى للمحاسبات لأخذ أقوالى تفصيلاً أمام لجنة من كبار الموظفين.. وأطلعونى على خطابى الحاد له وتأشيرته عليه.. وأفضت فى أقوالى مركزاً على القصور الجسيم، بل والتستر المشين لبعض موظفى الجهاز.. وسجلت اللجنة أقوالى كاملة.. وفى شبه اعتذار واجهونى بأن السلطة تقيد سلطات الجهاز المركزى للمحاسبات وأن كثيراً جداً من تقريراتهم عن الانحراف تحول إلى المنحرف ذاته أو إلى رئيسه المتورط معه فى الانحراف، بينما تمنع عمداً عن الأجهزة الرقابية كما يمنع مواظفوا الجهاز أنفسهم من اجراءات الضبطية القضائية مما يمكّن عدداً كبيراً من المنحرفين من اخفاء جرائمهم.

وذات يوم فوجئ الشعب بقرار مأساوى للجنة السياسات العليا بمجلس الوزراء تقرر فيه عدم جواز إحالة موظفى الدرجة العليا إلى المحاكمة دون إذن الوزير المختص.. وكان غضبى هائلاً فتوجهت إلى المستشار أحمد رفعت خفاجي.. كان حزيناً وغاضباً وقلت له أننى لم أذهب إليه من أجل قضية التأمين الصحى فالأمر أفدح بكثير.

اذهب يا سيادة المستشار إلى حسنى مبارك واشرح له خطورة هذا القرار واشرح له أيضاً كم الفساد فى مصر.. لعله لايعرف.. ولعله يحتاج إلى جواره إنساناً مثلك طاهراً ونقياً وقوياً وشجاعاً.. إذهب إليه.. قل له إن مشكلة مصر ليست فى اليمين أو اليسار.. وليست فى السادات أو جمال عبد الناصر.. وليست فى تيار سلفى وآخر تقدمى، إنما مشكلة مصر فى اللصوص الذين تسللوا كهجمة للتتار وقطاع الطرق ليستولوا على مقاليد الأمور فيها.. كى

يصبحوا وزراء ونواباً ورؤساء مجلس إدارة.. تلك هى أزمة مصر.. وهى أزمة يلتزم حسنى مبارك فيها موقفاً مأساوياً بأن يقف على الحياد بين الشرفاء واللصوص.. لانريد قوانين جديدة.. فقط أن يطبق القانون وأن يحترم.. أن تعاد إلى مصر ثرواتها المنهوبة.. أن يمثلها مجلس وزراء شريف لايعمل رئيسه بعد تركه سمسار سلاح.. أن يكون نواب مجلس الشعب لاينطبق عليهم لو نفذ القانون أحكاماً جنائية.. ذلك هو المطلوب.. فهل صعب على حسنى مبارك أن يفعله وهل صعب عليك أن تقوله.. إن بمصر طاقات خلاقة ومبدعة تستطيع أن تستعيد عبق مجد التاريخ.. ومصر هى كنانة الله فى أرضه، ولو قامت من كبوتها لأعز الله بها الإسلام والمسلمين.. مصر يا سيادة المستشار تبحث عن العدل، عن الضمير، والخلق القويم.. فهل ستجد مصر سواك عن العدل محامياً.. وإن لم تذهب أنت.. فهل سيجود عليها الزمان بأحمد رفعت خفاجى آخر.. يبذل حتى ولو روحه فى سبيل إرساء دعائم العدل والحق.

إننى أرجوك.. أن تتنازل عن الكبرياء الشخصى الذى يلازم الشخصيات العظيمة مثلك فى صورة الزهد والعزوف عن التقرب من السلطة.. إذهب إليه من أجل مصر.

وبعد أن سمع المستشار حديثى الطويل سحقتنى مرارته الهائلة وهو يجيب فى هدوء:

ـ لن أذهب أبداً إلى حسنى مبارك إلا إذا استدعانى هو لو كان يريد مواجهة الفساد.. لكن احفظ عنى أننى المقصود بهذا القرار الغبى.. لقد فزعوا وظنوا أننى أعرى السلطة بكشف الفساد.. ولم يفهموا أننى كنت صمام أمان ودليلاً على شرعية النظام، ولقد تصرفوا بطريقة ذلك الرجل الاحمق الذى تشاجر مع زوجته فأراد إغاظتها فخصى نفسه.. أما أنا فلن أنفذ هذا القرار الذى لن يصبح نافذاً إلا بعد اعتماد مجلس الشعب.. وقبلها سأكون قد أحلت إلى المعاش.

وكان المستشار أحمد رفعت خفاجى قد رفض قبل ذلك عرضاً بالعمل فى وظيفة كبرى فى دولة عربية بمرتب ضخم لأنه شعر أن واجبه فى مصر لمحاربة الفساد.

وأدركت حسرة هذا الرجل النبيل وهو يرى الطعنة موجهة له لا من اللصوص أنفسهم، بل ممن يفترض أن يواجهوهم. وكان الغضب داخلى هائلاً.. كان الأمل

فى عهد الطهارة يُذبح أمامى ويمثل بجثته فكتبت إلى معظم كبار الصحفيين أنبههم للمأساة.

الأستاذ/ أحمد بهاء الدين

الخميس الماضى ١٩٨٥/٧/٢٥ طالعتنا الصحف بقرارات رهيبة.. لجنة السياسات تحكم بالإعدام على الرقابة الإدارية والنيابة الإدارية والجهاز المركزى للمحاسبات.. لا حق لأى منها أن تبدأ تحقيقاً إلا بعد إذن الوزير المختص.. وبعد أن تجرى تحقيقاتها بعد إذن سيادته لا حق لها أن تحيل المتهم إلى المحاكمة إلا بإذن آخر.. يارب السموات والأرض.. إننى أمسك قلمى عن التعبير والوصف لكننى أتساءل وإذا كان الوزير لصاً؟. وجميع القضايا الكبرى فى الفترة الأخيرة تشير بأصابع الاتهام إلى الوزير المختص.. أعهد المماليك والأغوات عاد؟! حاميها حراميها!! بشرط أن يكون مؤدباً ودمث الخلق وغير معارض.. ولا مانع أحياناً أن يحجز لوزيره شقة فى المعمورة بأرقام مسلسلة مع شقته[1].. فلنستغل إذن مبانى أجهزة الرقابة والنيابة والجهاز المركزى للمحاسبات استغلالاً آخر.. دعنى أقترح عليك اقتراحاً عبثياً فى هذا العالم العبثى.. فلنستغلها سجوناً.. فنتيجة قرار لجنة السياسات سيكون حماية عدة آلاف من كبار الموظفين المنحرفين وتحويل مئات الآلاف من الذين يتصدون لانحراف الكلاب السمان ـ لا القطط السمان ـ إلى السجون. قرار كهذا يتخذ ولم يصدر بعد قانون لمحاكمة الوزراء.. لمصلحة من؟ لمن يشرعون إذن.. ماهو الهدف. قولوا لنا. هل الهدف هو القضاء على الشرفاء أم القضاء على اللصوص.. أن يسود الخراب مصر أم بدمائنا نبنيها.. أم بدموعنا نرثيها. وكيف لم تكتب أنت يا أحمد بهاء الدين.. ياضميرنا.. لقد كانت مأساة مصر فى الأعوام القليلة الماضية أن الحكومة تقف على الحياد بين الشرفاء واللصوص.. تركت الجميع يلتجئ إلى القضاء باجراءاته الطويلة والبطيئة.. وأصبحت الدولة التى شعارها الطهارة.. يغير نصف وزراء حكومتها حكم المحاكم لا قرار الرئيس.. الآن ياقلب لاتحزن بل انسحق.. تركت الحكومة الحياد.. تضع القيود والعراقيل أمام أجهزة الرقابة.. تركت الحياد إذن.. وانحازت إلى اللصوص لا إلى الشرفاء.. فتكلم يا أحمد بهاء الدين.. ياضمير مصر المثقل بخطايا أبنائها.. تكلم.

---

(١) فى قضية رشاد عثمان الشهيرة ثبت أنه تم حجز شقق لكبار المسئولين مع صققه هو.

ملحوظة (١):

هذا القرار للجنة السياسات كقرار كارثة هو التالى فى الأهمية فوراً لتزوير الانتخابات وهو ينتمى بصلة الدم إلى مجموعة القوانين سيئة السمعة.

ملحوظة (٢):

يقرر القرار مشروع القانون عدم نظر الشكاوى المجهولة والتى تمثل فى شعب مطحون مقهور كشعبنا المورد الرئيسى للمعلومات.. أعترف أن بعضها كيدى لكن معظمها صحيح.

فى زمن عبد الناصر الذى يسمونه زمن الانغلاق والقهر لم يكتفوا بنظر الشكاوى المجهولة فقط.. كانوا يجمعون الشكاوى التى يقذفها البسطاء فى أضرحة الأولياء.. وشاعت أيامها نكتة تقول أن أحد البسطاء كتب طلباً لسيدنا الحسين يطلب ٢٠٠ جنيه لحاجته لها وعُرض الطلب مع غيره من الشكاوى على جمال عبد الناصر الذى أشر على الطلب بإرسال مائة جنيه إلى الرجل، وبعد أسبوع فوجئ عبد الناصر بخطاب من نفس الرجل إلى سيدنا الحسين يطلب منه مائة جنيه ويشترط ألايرسل المبلغ مع جمال عبد الناصر لأنه استولى على نصفه فى المرة الأولى.

بغض النظر عن أشياء كثيرة.. فإن هذه النكتة وسام شرف لعصر.. ووصمة عار لعصر آخر.

لكن القرار كان قد صدر ولم ترجع الحكومة عنه.

بل لقد صدر قرار آخر بالتجاوز عما تم صرفه لكبار الموظفين بالمخالفة للقانون.. وكان هذا القرار يخدم من خالفوا القانون بدلاً من أن يحاسبهم وكان الرأسان البارزان لهذه المخالفة: النائبة نوال عامر والدكتور محمود جامع.

كان هذا يحدث فى نفس الوقت الذى كان فيه الرئيس حسنى مبارك ينادى بالصحوة الكبرى ويتبنى حملة لسداد ديون مصر.

كان سير التحقيقات فى نيابة الأموال العامة فى طنطا موحياً باليأس.. وبرغم إدراكى لخطورة مهاجمة النيابة فقد كنت مضطراً لذلك.. وكنت قد كتبت كثيراً إلى مختلف الجهات المسئولة.. ولم تكن قضية التأمين الصحى وحدها هى القضية المجمدة فى طنطا، بل كانت كل قضايا المال العام المتورط فيها مسئولون كبار مجمدة.. وكانت ثمة واقعة اختلاس بطلها عضو فى مجلس الشورى وتمت التحقيقات فيها تحت ضغوط مكثفة لم تستطع النيابة تجاهلها.. وصدر قرار

الاتهام فى النهاية لكنه لم يشمل المتهم الأول.. وسبب ذلك استياءاً كبيراً بالمكتب الفنى الذى يراجع هذه القضايا قبل إحالتها لمحكمة الجنايات.. وأعيد الحق إلى نصابه وتصدر عضو مجلس الشورى قائمة المتهمين.

وبعد ذلك بأسابيع صدرت حركة تنقلات النيابة وأبعد المستشار فاروق عبد اللطيف عن منصبه كمحام عام للأموال العامة فى طنطا.. وعين مكانه المستشار محمد أبو زيد وكانت سمعته كسيف بتار فى الحق تسبقه.. وحمدت الله كثيراً.

كان المستشار محمد عبد العزيز الجندى قد عُيِّن نائباً عاماً وكان من الواضح أنه يحمل دماء جديدة وطاقة خلاقة.. وبدا أن الحقوق الضائعة آن لها أن تعود. كان أول نائب عام يبدأ تحقيق قضايا التعذيب السياسى.. وناشد المواطنين فى الصحف والإذاعة أن يذهبوا إلية بشكاواهم فمكتبه مفتوح للجميع (حاولت لقاء سلفه مرات دون جدوى).. وقررت أن أكتب إليه شارحاً مايحدث.

سيادة المستشار النائب العام:

إن ما يحدث يا سيادة المستشار فى النيابة العامة ونيابة الأموال العامة خطير خطير.. وهو إهدار لحقوق الدولة.. كما أنه إهدار لقيم كانت النيابة قلعتها الشامخة وحصنها الحصين.

فهل تسمح لى يا سيادة المستشار أن أشكو إليك بعض أعضاء النيابة.. إننى أعلم أننى بهذا أضع رأسى بين فكى الأسد.. لكننى أثق فى ضمانتين: الأولى أنه لن يصيبنى إلا ما كتب الله علىّ.. والأخرى ثقتى وتقديرى لشخصكم، وإدراكى لحرصكم على العدل.

ليست العظمة يا سيادة المستشار أن نكشف واحداً مثل رشاد عثمان أو عصمت السادات، بل العظمة ـ ومسئوليتك فى نفس الوقت ـ أن تكشف مائة ألف منحرف يدمرون اقتصاد مصر ويدمرون فى نفس الوقت مُثلها وقيمها أمام الملايين من مرؤوسيهم..

هذه أمام الله أمانتك ومسئوليتك..

ولعلك تسائلنا أنت اليوم لكننا غداً أمام الله نسائلك.

إن جهاز النيابة يحتاج إلى هزة عنيفة منك تبقى فيها الصالح وتلقى الطالح..

إن حقوق الناس أمانة بين يديك.. وبعض وكلائك ليسوا فى مستوى المسئولية.. وإن هناك أشياء خطيرة يتناولها الناس الآن تمس هيبة القضاء

ونزاهته.. وهناك حقوق تضيع وكرامات تمتهن وأبرياء يظلمون.

لا أنكر أبداً أن هناك نماذج كثيرة ـ قد تكون الأغلبية ـ شامخة، لكن لعلك توافقنى.. أنه إذا كانت النماذج الشامخة هى قمة أى مهنة فهى فى القضاء يجب أن تكون الأساس لا القمة.

❋ ❋ ❋

الشيخ الشعراوى
مـرة أخـرى!

لم يكن فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى بعيداً عن مجريات الأحداث.. وكان أصدقاؤه فى طنطا قد دبروا لى لقاء معه استمر عدة ساعات كى أشرح له تفاصيل القضية لأن الدكتور جامع كان من أصدقائه المقربين.. وكان دقيقاً فى أسئلته مصراً على معرفة كل التفاصيل حتى تلك التى كنت أمسك عنها حياء.. وكان أصدقاؤه يؤكدون له صدق ما أرويه.. وفى النهاية قلت له أنه مسئول بصورة ما عن خديعة الناس فى بعض أصدقائه.. وسألنى بانزعاج: كيف؟ فقلت له أن الناس لاتتخيل أبداً أن يكون بعض أصدقائه المقربين منحرفين وأن مجرد صداقته لهم دليل براءة.. وآمن الشيخ على رأيى فى حزن مقرراً أن يحتاط لذلك(*).

وأوفى الشيخ الجليل بوعده لمدة عامين. إلا أنه بعد إحالة بعضهم للمعاش بحكم المحكمة التأديبية العليا أشفق الشيخ على أصدقائه القدامى مدركاً أنهم يحتاجون إلى دعم معنوى منه.

ونشرت صحيفة الشعب خبراً صغيراً لكنه كان ذا دلالة حزينة بالنسبة لى:

قراءة الفاتحة لانقاذ جامع

أعد الدكتور محمود جامع وليمة عشاء فاخرة بمنزله الكائن بشارع النادى فى طنطا، ودعا فيها كبار المسئولين بالمحافظة يوم الثلاثاء الماضى. وقد حضر المأدبة فضيلة الشيخ متولى الشعراوى وفكرى عبد الحميد محافظ الغربية!!

(*) استمرت علاقة الشيخ الجليل بشركات توظيف الأموال على نفس النمط المحسوب عليه وليس له. ومحسوب أيضاً عليه ذنب ملايين البسطاء الذين أودعوا مليارات الجنيهات فى شركات أصدقاء الشيخ الجليل ومريديه.

وبعد تناول الطعام طلب الدكتور جامع من الحاضرين قراءة الفاتحة لينقذه الله من التهم الجنائية المنسوبة إليه والتى فصل بسببها من عمله كوكيل وزارة الصحة للتأمين الصحى فرع وسط الدلتا!!

كان من بين الحاضرين المستشار فاروق عبد اللطيف المحامى العام الأول لنيابة الأموال العامة بطنطا.. حضر «المأدبة».. واشترك فى قراءة الفاتحة[1].

كانت مأساة بالنسبة لى أن يرجع الشيخ الجليل عن وعده.. فيذكرنى بالتفاصيل المحزنة لموقفه فى قضية محمد توفيق عويضة والشيخ عاشور وتأليهه لأنور السادات.. نفس المواقف لاتتغير.

وكانت مأساة أخرى أن يحضر المستشار فاروق عبد اللطيف والذى تولى قضية التأمين الصحى لمدة ثلاثة أعوام دون أن يصدر فيها قراراً.. كانت أسرار القضية كلها لديه.. وكان فى منزل الدكتور جامع.. وأثار نشر الخبر ضجة هائلة فى النيابة والقضاء.

كان المستشار محمد أبو زيد نسيج وحده.. ومن عينيه الحزينتين كان يشع بريق يوحى بالذكاء والاستعلاء.. ليس استعلاء الكبرياء.. ولعله كان شعوراً يسمو ذاته إزاء مايرى من دونية الآخرين.. ولقد وددت أن أقترب منه كإنسان إلا أنه وضع حاجزاً شفافاً لكنه فولاذى بينى وبينه.. كان يمثل رمزاً مجرداً للعدالة.. ولقد سمع منى كل ماأريد قوله دون أن يقاطعنى ودون أن يفصح برأى: إلا أنه لم يستطع أن يسيطر على انفعاله أحياناً وأنا أسرد له تسلسل الأحداث وماترتب على صمت النيابة من إهدار لمعظم أدلة الانحرافات فى قضية التأمين الصحى بسبب تصدى كبار المسئولين لمحاولات كشف الانحراف. وجدت منه تفهماً كاملاً مع غيره أضطر لشرح مستفيض لكل واقعة لكن معه هو كنت أجده متفهماً لكل ما أقوله، بل بما خلفه.. وجدتنى أقول له:

- إننى أعلم أنك قرأت أوراق القضية كلمة كلمة.. لكن غيرك قرأها كذلك وكنت أفسر لهم باستفاضة ماتنطق به المستندات لكنهم كانوا يصيبوننى باليأس بعدم استيعابهم.. الآن أفهم للمرة الأولى أن الأمر لم يكن أنهم لايفهمون بل كانوا

---

(١) فى أبريل عام ٨٧ سيكون نفس المستشار هو رئيس لجنة انتخابية فى محافظة المنوفية وستكون نسبة التصويت فى لجانه ٩٨٪ وهى أعلى نسبة فى الجمهورية. وسيشيد حسنى مبارك بهذه اللجنة مقرراً أن ثلث محافظة المنوفية أعطت أصواتاً أكثر من محافظة القاهرة كلها كان محزناً ألا يكون المغزى الحقيقى أمام الرئيس.

يفهمون جيداً لكنهم يريدون التستر على هذه الانحرافات وطمسها. وأحسست بالحزن يعتصر قلبه وهو يقول:

ـ منذ ثلاث سنوات وأنا أحقق فى قضية اختلاس كبرى وتوصلت فى النهاية إلى أن وراء الاختلاس وزيراً كبيراً وحاولت جهدى لكننى لم أستطع. وفى قضية رئيس جامعة المنصورة وأمين الحزب الوطنى بها عندما اكتشفت انحرافاته أمرت بحبسه وتوسطت أعلى مراكز السلطة يومها حتى فؤاد محيى الدين لكننى وضعت استقالتى أمامهم فتراجعوا.

كنت أنظر إليه فى انبهار.. وأحس هو أن ثمة شرخاً فى الجدار الذى يفصل بينى وبينه فتراجع سريعاً. وكان شبح الابتسامة الوحيدة التى لاحت على شفتيه طيلة علاقتنا عندما قدمت له مستنداً يوحى بتورط المحامى الذى يدافع عن المتهمين فى انحرافات التأمين الصحى ولعلها كانت المرة الأولى التى تستجوب فيها النيابة محامى المتهم كمتهم هو الآخر فى نفس القضية.

وبدأ التحقيق فى القضية يأخذ مجرى آخر لكن القضية كانت مهلهلة.

كان المستشار محمد أبو زيد وقدة نار أثارت الرعب فى قلب كل المنحرفين فى وسط الدلتا وكان ممن أمر بالقاء القبض عليهم الجنزورى تاجر البيض الاسرائيلى الشهير والذى تحدث السادات عنه فى إحدى خطبه عندما تجرأ ونافس عصمت السادات ثم عفا عنه عندما عفا عنه عصمت. وكان منهم أيضاً شيوخ مسجد السيد البدوى الذين كانوا يختلسون صندوق النذور.

وإزاء رعب رئاسة هيئة التأمين الصحى قررت أتباع خطة ذكية وهى إغراق النيابة بآلاف الصفحات من قوانين متضاربة وتقارير لجان يختلف كل منها عن الآخر واتهام لشهود القضية. وكان هدفهم أن تغرق النيابة فى هذه التفاصيل من ناحية ومن ناحية أخرى أن يبثوا الرعب فى قلب كل من تحدث نفسه بالتقدم للنيابة كى يدلى بشهادته.. إذ ربما يصبح هو الآخر متهماً. كانت رئاسة الهيئة تضع عينا على النيابة وعينا أخرى على المحكمة. والمؤسف أن خطتهم نجحت إلى حد كبير. ولم يكن السبب قصوراً فى كفاءة النيابة تحت رئاسة المستشار محمد أبو زيد.

ووجدتنى أقول له ذات يوم وأنا أحصر أمامه ماأهدر من مال عام:

ـ إنه عمل مريح جداً أن يختلس الموظف ملايين الجنيهات فلا تثبت عليه النيابة سوى بضعة آلاف ثم يسجن بضعة سنوات ـ يعتبرها اعارة للخارج ـ ثم

يخرج فيجد ملايينه فى انتظاره.

وكانت رئاسة الهيئة بالقاهرة تدافع بضراوة حتى لقد جمد رئيس الهيئة نشاط مدير الشئون القانونية بها لأنه اتخذ موقفاً سليماً أدان فيه المنحرفين كتابة بل وشرع فى اجراء تحقيقات لم يرض عنها رئيس الهيئة وأخذ يستعين بآخر كحلمى عبد الآخر يفصل له من القوانين مايشاء واضطرت النيابة لاستجواب هذا المحامى لتضاربه فى أقواله وتضارب أقواله مع قوانين الهيئة بل اضطرت النيابة فى النهاية إلى استجواب رئيس مجلس ادارة الهيئة نفسه وتوجيه عدة اتهامات له.

كان الدكتور صبرى زكى قد ترك وزارة الصحة وتولى بعده الدكتور حلمى الحديدى والذى كان يمثل لنا من بعيد أملاً هائلاً لكنه عندما مارس العمل لم يفعل شيئاً مطلقاً فكان خيبة أمل مرة.. وتقدم نائب رئيس الهيئة بشكوى يكشف فيها انحرافات رئيس الهيئة التى تصل إلى إهدار ملايين الجنيهات فاعتدى رئيس الهيئة على نائبه.

كان رئيس الهيئة يدرك جيداً أنه يدافع عن وجوده فدافع بضراوة. كان يتمتع بسلطات وزير وكان نائبه بدرجة نائب وزير(**).. ولم يأمر الوزير باجراء تحقيق جاد.. وحاولت لقاءه فعجزت.. وكتبت إليه فاتصل بى بمكتبه لتحديد موعد لم يحن أبداً.



(**) بعد سنوات وسنوات، بعد أن وقعت الفأس فى الرأس وجف ضرع البقرة الحلوب، أبعد رئيس الهيئة عن منصبه وعين مكانه نائبه الدكتور محمد شحاتة.

الصحافة والفساد

كان للصحافة دور كبير فى كشف انحرافات التأمين الصحى حيث نشرت فى خلال عامين مايريو على ستين موضوعاً.. وشاركت الأهرام والأخبار وأخبار اليوم فى الحملة، إلا أن الدور الرئيسى قامت به صحف المعارضة التى لايقرؤها الرئيس حسنى مبارك.. بدأت الأهالى بالنشر وقامت الشعب بالدور الرئيسى، كما نشرت الأحرار عدة موضوعات مستفيضة، ونشرت الاعتصام وروز اليوسف موضوعات قصيرة.

وكانت رئاسة التأمين الصحى تبذل جهوداً مستميتة لوقف النشر ولنشر موضوعات مضادة كانت صحيفة الأخبار تحمل لوا ءها. حتى لقد نشرت فى صفحتها الأولى تكذيباً من الدكتور جامع لما تنشره صحف المعارضة ورفض موسى صبرى نشر رد بعض الأطباء على التكذيب.. أما صحيفة مايو فقد أتى مراسلها إلىّ. وبرغم أننى لم أقرأ الصحيفة قط كموقف مبدئى إلا أننى كنت أعلم أن الحرب ضد الفساد حرب شاملة يجب أن يشارك فيها الجميع.. وأعطيت المراسل بعض المستندات التى وصلت على الفور إلى يد المتهمين ولم تنشر مايو بالطبع شيئاً.

وتمكن رئيس هيئة التأمين الصحى عن طريق علاقته الشخصية بالأستاذ وحيد غازى رئيس تحرير الأحرار أن يوقف الصحفيين محمد السايس ومصرى البرديسى عن العمل عندما ادعى أنهما نشرا ضده أخباراً كاذبة.. كان سمير ضيائى يعتمد فى تكذيبه على صعوبة الحصول على معلومات من النيابة.. لكن الصحفيين استطاعا الحصول على هذه المعلومات وواجها بها رئيس التحرير الذى حول وقفهما من موقف معلن إلى موقف غير معلن بمنع النشر لهما دون قرار. ولم

يسترد الصحفيان موقعهما إلا بعد إبعاد وحيد غازى عن الأحرار(١).

وفى الأخبار كان المراسل عبد العزيز هلالى ـ وهو للأسف من الاخوان المسلمين ـ يمنع نشر أى أخبار ضد انحرافات التأمين الصحى، بل ويتعمد نشر العكس تماماً متجاهلاً حتى واجبه كصحفى فى إمداد القارئ بما يحدث فعلاً ولولا موقف الصحفى لنابه عاطف زيدان لما استطاع قارئ الأخبار أن يعرف شيئاً عن هذه الوقائع.

وفى الأهرام تولى محمد طعيمة النشر. وفى الوفد تولى جمال بدوى منع النشر، أما فى الشعب فتولى النشر محمد السعدنى وسمير شرباش.

وبرغم مزايا الحملة الصحفية الكبرى إلا أنه كان لها أضرارها. فقد كان النشر يكشف عن مخالفات تسارع الهيئة بطمس معالمها بمستندات تحمل خاتم الدولة، وكان من أخطر ماتم ـ وليس أخطره ـ مانشرته صحيفة الشعب عن تقرير الجهاز المركزى للمحاسبات يحمل رقم ١١٧ فى ٨٥/٣/١٢ والذى يحمل عديداً من المخالفات.. تحمل المخالفة رقم ١٩ فى التقرير وقائع انحراف مذهل، فقد اكتشف مراجعوا الجهاز أن فرع وسط الدلتا قد أنفق خلال العام المالى ٨٣/٨٢ مبلغ ربع مليون جنيه كأدوات نظافة.

كانت الواقعة فاجعة ازاء بلد يكاد ينهار اقتصادياً.. وبرغم ذلك لم تتحرك أية جهة من الجهات المختصة حتى تمكنت الهيئة من طمس هذا الانحراف.. وعندما تناولت النيابة هذا الموضوع بعد ذلك لم تجد ما تحقق فيه.

كذلك كان من أخطر ما نشر ملابسات محاولة هدم مستشفى المبرة.. وكان بينها خطاب بتوقيع وزير الصحة سماه الصحفى «الخطاب الكارثة» وكان يستعجل اجراءات اخلاء المستشفى ونقل الأجهزة وتذليل كل الصعوبات لإخلاء المستشفى فوراً.. وكان الخطاب يحمل كلمة «سرى جداً» وعلق الصحفى على ذلك بأنه إن كانت المستشفى آيلة للسقوط فالأولى أن نعلن حتى نحذر الناس ونقنعهم بضرورة إغلاق مستشفى حيوى.. أما كلمة «سرى جداً» فتحمل طياتها ماتحمله من شكوك.. كان من أعطاه المستندات مسئولاً مكبيراً فى الهيئة العامة للتأمين الحصى.. وكان واضحاً أن الهيئة تحاول إبعاد المسئولية عنها وإلقائها على الوزير.. متجاهلين أن هذا الخطاب ما كان يصدر من الوزير إلا كرد على خطاب

---

(١) عاد وحيد غازى بعد ذلك لرئاسة تحرير الأحرار.

من رئيس الهيئة.. فالوزير لا يرأس الهيئة وإنما يعتمد قرارات مجلس إدارتها..
وكان خطاب رئيس الهيئة مختفياً.. فلعل درجة سريته ـ خطورته ـ كانت أعلى.

وبرغم علامات الاستفهام الخطيرة التى أحاطت بهذا الموضوع فقد نجحت الهيئة فى الدفاع عن نفسها.

وكانت تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات والشكاوى تشمل انحرافات تقدر بملايين الجنيهات، لكن التحقيقات لم تتناول ذلك كله.. وكنت أتذكر بمرارة تعليق المستشار أحمد رفعت خفاجى عندما واجهته بذلك كله.

ـ مَن تظننى.. يلزمنى قوة أكثر من قوة رئيس الوزراء حتى أتصدى لكل هذا الفساد.

وكنت أسائل نفسى لماذا لايجود الزمان علينا برئيس وزراء مثل المستشار أحمد رفعت خفاجى.

ثمة حقيقة يجب أن تقال أنه برغم كل مانشرته الصحف عن قضية التأمين الصحى إلا أنها لم تحط إلا بجزء يسير مما حدث فعلاً.. ولقد عانيت الكثير كما عانى الصحفيون الذين نشروا اصرار رؤساء تحرير الصحف أن يكون كل نشر مدعماً بالمستندات، ولأن المستندات فى عصر الفساد الذى نعيشه تكون فى يد المنحرف فقد كان الأمر شديد الصعوبة.

من أجل ذلك هالنى تصريح الرئيس حسنى مبارك أنه لايقرأ صحف المعارضة لأنها تبالغ وتشهر وتكذب.. الأمر على العكس ياسيادة الرئيس.. إن صحف المعارضة برغم كل ما تنشره لاترى سوى قمة جبل الثلج الذى يخفى معظمه، وليس هذا مجرد إحساس منى، بل إنه ما قاله لى بالحرف مسئول كبير فى الرقابة الإدارية.

فيا للألم أن تستنكر عليها حتى نشر القشور الظاهرة.

ما نشرته الصحف فى قضية التأمين الصحى يحتاج إلى كتاب كامل.. ولأن هذا الكتاب لايتسع لذلك فإننى أكتفى بنشر العناوين الرئيسية لبعض مانشر كى يدرك القارئ حجم الحملة الصحفية، وكى يدرك فى المقابل حجم تقاعس الأجهزة عن التصدى للفساد.

بعض العناوين الرئيسية

«الأطباء يتهمون أحد وكلاء وزارة الصحة»، «عزبة التأمين الصحى بوسط الدلتا».

«التأمين الصحى فى وسط الدلتا ينحرف وقياداته بالقاهرة تتستر عليه»
«التلاعب فى صرف الأدوية والمعدات وتزوير المستندات الرسمية»
«وزير الصحة يتراجع عن تنفيذ قراره بإبعاد مدير التأمين الصحى»
«إحالة مستشفى المبرة بطنطا إلى المعاش»
«الأخبار تتورط بنشر تكذيب لخبر صحيح»
«قصة الشهادة الطبية الوهمية التى مُنحت لوزير الصحة»
«أين تذهب أموال التأمين الصحى»
«انحرافات مالية فى التأمين الصحى بوسط الدلتا»
«الدكتور جامع يهدد الشهود بالقتل»
«من المسئول عن التلاعب فى أموال التأمين الصحى؟»
«مطلوب إعادة النظر فى أسلوب عمل الهيئة العامة للتأمين الصحى»
«خطاب مفتوح إلى وزير الصحة». «التلاعب فى الأجور والمكافآت وتزوير المستندات وسرقات المعدات»

وبرغم أن الصحافة القومية والحزبية نشرت أكثر من ستين موضوعاً لم تتخذ السلطة التنفيذية قراراً واحداً لإبعاد منحرف أو لرد مال منهوب.

كان فى القانون المصرى مادة لم تنقرض بعد وهى أنه يكفى لإبعاد المسئول عن مكانه أن تلوك سمعته الألسن.. فى عصرنا هذا يكاد لا يوجد مسئول لاتلوك الألسن سمعته.

وفى عصرنا رأينا الأعاجيب..

فذات يوم فصلت المحكمة التأديبية العليا محمد توفيق عويضة وطالبت بإحالته للجنايات، لكن السادات كان يصطحبه فى اليوم التالى فى إحدى جولاته فى تحد سافر للقضاء.

وبعد ذلك خرج أحد المسئولين من السجن التحفظى لمدة أربعة شهور بعد أن تدخل الدكتور يوسف والى لتبرئته أمام محكمة الجنايات.. ولم تكتف السلطة بذلك، بل عينته محافظاً فى أول حركة لتغيير المحافظين.

وكان مثله وزراء ورؤساء وزارات.. وكانوا ينتقلون من مناصبهم الرسمية

إلى مناصب استثمارية دون خبرة مقابل ملايين وملايين تكفى وحدها دليل اتهام على ماباعوا من الوطن.. وكان حلمى مراد يكتب عن كل ذلك فى مقالات تقطر دماً.. لكنها لم تجد عند السلطة صدى[1].

كانت الكارثة أفدح من أى وسيلة ولمواجهتها..

ولم أقتصر على النشر فى الصحف، بل كتبت عشرات الخطابات إلى عشرات المسئولين والمفكرين.. ولم أكن بعد ساذجاً حتى أظن أن الكلمة الطيبة يمكن أن تغير شيئاً.. لكننى فى نفس الوقت لم أكن أستطيع أن أصمت وكل هذا الانهيار يحدث فى وطنى.



(١) بعد ذلك بسنوات انفجرت الفضيحة مدوية عندما نقل هذا المحافظ إلى الغربية لتكتشف جرائمه فى المنوفية فيعزل، وهى فضلا عن الاختلاس واهدار المال العام توريد الطوب لبناء المستوطنات فى اسرائيل، وكتب أمين هويدى يصرخ أن قويسنا، بلد الرئيس مبارك قد استغلت كأداة لخيانة القضية العربية.

بروتوكولات حكماء صهيون

ما أتعس الجيل الذى يطرق الأن أبواب العقد السادس من عمره.. فذلك الجيل لم تتفتح أعينه على مذلة احتلال كنا نرزخ تحت نيره.. عبيداً أو نكاد.. وهو أيضاً لم يتجرع غصص هوان ما حدث عام ١٩٤٨، بل كان أول ما صافح وعيه الغض ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فأسكرته نشوة تياهة بأحلام القوة والقدرة على تغيير المصير. وواجهنا أعداءنا فانتصرنا أو خلنا أننا انتصرنا، فتعملقت قدرتنا وتقزمت قدرة أعدائنا، وانعكس ذلك على أفكارنا وثقافتنا فرُحْنا نرفع قيمة العقل والإرادة ونرفض ضروب الدجل والشعوذة وعلى رأسها بروتوكولات حكماء صهيون، لكن الزمن يدور بنا دورته فإذا الجيل الذى بناه العقل يندك دكًا، وإذا ماظننَّا أنه دجل وشعوذة واقع تسحق هاماتنا المنكسة تفاصيله. انقلب الواقع الذى حدث حلماً أبداً ما حدث. وأمسى ماخلناه كوابيس وأضغاث أحلام هو واقعنا المرير.

كنت واحداً من أبناء هذا الجيل الذى يطرق الآن أبواب العقد السادس من عمره.

أذكر: عندما قرأت بروتوكولات حكماء صهيون للمرة الأولى فى بداية الستينيات فإننى قد ضحكت كثيراً.. فقد اعتبرتها امتداداً لدجل الكهنة وصنواً لتلك الكتب الصفراء التى تفسر الزلازل بقرن الثور وتدرأ البراكين بالأحجبة وعظام الموتى.

لكننا أثناء مراجعتنا لأنفسنا بعد انهيارنا العظيم رحنا نفاجأ كل حين وآخر بما يصعقنا سخرية ومذلة وهواناً.. وإلا فكيف أفسر للقارئ أو لنفسى أننى غفلت عن انطباق ماورد فى بروتوكولات حكماء صهيون على واقعنا الذى

أبنـا إليـه.

ماهذا الذى حدث!!..

ماذا يفعل فينا، وماذا يراد بنا..

هل آن الأوان لكى تستأصل شأفتنا كما حدث من قبل مع الهنود الحمر وكما يحدث الآن للفلسطينيين.

أتشرق شمس هذا الكون على أرض ليس فيها مسلمون ولا عرب.. أم أن ذلك كله ليس إلا معالم انهيار فكرى تهاوت دعامات منطقه فرجع إلى عصور الجهل يستنبت منها دعامات جديدة عوضاً عما هوى. أم هو اكتشاف حقيقى لواقع جهلناه فدهمنا وعلينا الآن أن نواجهه.

الحق أقول: إننى لا أعرف الإجابة.

لذلك فإننى أشرك معى قارئى، أطرح عليكم وعلى نفسى جزءاً مما ورد فيها.. كى تشاركونى بأعينكم فى البحث والتقصى والحكم[1].

■□■

«سنختار من بين العامة رؤساء إداريين ممن لهم ميول العبيد، ولن يكونوا مدربين على فنون الحكم، ولذلك سيكون من اليسير أن يمسخوا قطع شطرنج ضمن لعبتنا فى أيدى مستشارينا العلماء والحكماء الذين دربوا خصيصاً على حكم العالم».

■□■

«إن خير النتائج فى حكم العالم، ينتزع بالعنف والإرهاب لا بالمناقشات».

«وما القانون فى الحقيقة إلا القوة ذاتها مقنعة فحسب، وهذا يتأدى بنا إلى تقرير أن قانون الطبيعة هو: الحق يكمن فى القوة».

«إن السياسة لاتتفق مع الأخلاق فى شئ، والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسى بارع» «لابد لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرياء».

■□■

«إن من يريد إنفاذ خطة عمل تناسبه يجب أن يستحضر فى ذهنه حقارة الجمهور وتقلبه وحاجته إلى الاستقرار وعجزه عن أن يفهم ويقدر ظروف عيشته وسعادته وعليه أن يفهم أن قوة الجمهور عمياء خالية من العقل المميز».

١ـ يعتمد مايرد فى هذا الكتاب عن بروتوكولات حكماء صهيون على كتاب الخطر اليهودى ـ بروتوكولات حكماء صهيون ـ ترجمة محمد خليفة التونسى ـ مكتبة دار التراث.

«إن الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هدف الخير لذلك يتحتم ألا نتردد لحظة واحدة فى أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدمنا فى تحقيق غاياتنا».

«إن العنف المقود وحده هو العامل الرئيسى فى قوة الدولة، فيجب أن نتمسك بخطة العنف والخديعة، لا من أجل المصلحة فحسب، بل من أجل الواجب والنصر أيضاً».

■□■

«إن الرعاع قوة عمياء؛ والمتميزين المختارين حكاماً من وسطهم عميان مثلهم» «إن غير اليهود (الأميين) لا ينتفعون بالملاحظات التاريخية المستمرة بل يتبعون نسقاً نظرياً من غير تفكير».

■□■

«إن الرؤساء مرتبكون بخدمهم الذين لافائدة لهم منهم. مقودون كما هى عادتهم بقوتهم المطلقة على المكيدة والدس».

«من ذا وماذا يستطيع أن يخلع حكومة خفية عن عرشها؟ هذا بالضبط ما عليه حكومتنا الآن» «نحن الآن كقوة دولية فوق المتناول، لأنه لو هاجمتنا إحدى القوى لنصرتنا أخريات».

■□■

«إن أى حكومة منفردة لن تجدها سنداً من جاراتها حين تدعوها إلى مساعدتها ضدنا، لأن كل واحدة منها ستظن أن أى عمل ضدنا هو نكبة على كيانها الذاتى» «وإن الحكومات لاتستطيع أبداً أن تبرم معاهدة ولو صغيرة دون أن نتدخل فيها سراً» «سيكون القتال بيننا ذا طبيعة متهورة لم ير العالم لها مثيلاً من قبل. والوقت متأخر بالنسبة إلى عباقرتهم» «إن المشكلة الرئيسية لنا هى كيف نضعف عقول شعوبهم بالانتقاد وكيف نفقدها قوة الإدراك وكيف نسحر عقول العامة بالكلام الأجوف».

■□■

«إنه من الضرورى ألا يكون فى كل الأقطار بجانبنا إلا طبقة صعاليك ضخمة، وكذلك جيش كبير وبوليس مخلص لأغراضنا».

«يجب علينا أن نكون مستعدين لمقابلة كل معارضة باعلان الحرب على تلك الدولة التى تجرؤ على الوقوف فى طريقنا، لكن إذا غدر هؤلاء الجيران

فقرروا الاتحاد ضدنا فعلينا أن نجيب على ذلك بخلق حرب عالمية».

■□■

«سوف نعهد بالمناصب الخطيرة إلى القوم الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم كى تقف مخازيهم فاصلاً بين الأمة وبينهم، كذلك سوف نعهد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين إذا عصوا أوامرنا توقعوا المحاكمة أو السجن. والغرض من كل هذا أنهم سيدافعون عن مصالحنا حتى النفس الأخير».

■□■

«إن ما نخشاه هو تحالف القوة الحاكمة لهم مع قوة الرعاع العمياء. غير أننا اتخذنا كل الاحتياطات لنمنع احتمال وقوع هذا الحادث. فقد أقمنا بين القوتين سداً قوامه الرعب الذى تحسه القوتان كل من الأخرى».

«إن حكوماتهم وأممهم تقنع فى السياسة بالجانب المبهرج الزائف من كل شئ».

«إن نظام عمل حكوماتهم يجب أن يكون عمل رأس واحد، لأنه سيكون من المحال تكتيله إذا كان عملاً مشتركاً بين عقول متعددة».

«لقد وضعنا مكان الملك كاريكاتيرا فى شخص رئيس يشبهه، وقد اخترناه من الدهماء بين مخلوقاتنا وعبيدنا» «سيكون الرئيس دميتنا» «وسندير انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة بفضيحة أو صفقة سرية مريبة. إن رئيساً من هذا النوع سيكون منفذاً وافياً لأغراضنا، لأنه سيخشى التشهير وسيبقى خاضعاً لسلطان الخوف الذى يتملك دائماً الرجل الذى وصل إلى السلطة. والذى يتلهف على أن يستبقى امتيازاته ومركزه الرفيع. إن مجلس ممثلى الشعب سينتخب الرئيس ويحميه ويستره، ولكننا سنحرم هذا المجلس سلطة تقديم القوانين وتعديلها. هذه السلطة سنعطيها للرئيس الذى سيكون ألعوبة خالصة فى أيدينا. وفى تلك الحال ستصير سلطة الرئيس هدفاً معرضاً للمهاجمات المختلفة. لكننا سنعطيه وسيلة الدفاع. وهى حقه فى أن يستأنف القرارات محتكماً إلى الشعب الذى هو فوق ممثلى الأمة. أى أن يتوجه الرئيس إلى الناس الذين هم عبيدنا العميان وإلى ذلك سنعطى الرئيس سلطة إعلان الحكم العرفى. وسنوضح هذا الامتياز بأن الرئيس ـ لكونه قائد الجيش ـ يجب أن يملك هذا الحق لحماية الدستور. فهذه الحماية واجبة لأنه ممثلها المسئول».

«وسيكون من حق الرئيس أن يعين رئيساً ووكيلاً لمجلس النواب ومثلهما لمجلس الشيوخ. وسيكون له باعتباره رأس السلطة التنفيذية حق دعوة البرلمان

وحله. وسيكون له فى حالة الحل إرجاء الدعوة لبرلمان جديد. ولكن لكيلا يتحمل الرئيس المسئولية عن نتائج هذه الأعمال المخالفة للقانون مخالفة صارخة، سنغرى الوزراء وكبار الموظفين الذين يحيطون بالرئيس كى يموهوا أوامره، بأن يصدروا التعليمات من جانبهم، وبذلك نضطرهم إلى تحمل المسئولية بدلاً من الرئيس. وسننصح خاصة بأن تضم هذه الوظيفة إلى مجلس الشيوخ أو مجلس الوزراء وأن لاتوكل إلى الأفراد. وبارشادنا سيفسر الرئيس القوانين التى يمكن فهمها بوجوه عدة. وهو فوق ذلك سينقض القوانين فى الأحوال التى نعتبر فيها أن هذا النقض أمر مرغوب فيه. وسيكون له أيضاً حق اقتراح قوانين وقتية جديدة، بل له كذلك إجراء تعديلات فى العمل الدستورى للحكومة محتجاً بأنه أمر تقتضيه سعادة البلاد».

■□■

«سنريد منهم أن يفهموا أننا استحوذنا على كل شئ أردناه وأننا لن نسمح لهم فى أى حال من الأحوال أن يشاركونا فى سلطتنا. وعندئذ سيغمضون عيونهم عن أى شئ بدافع الخوف. وسينتظرون فى خوف تطورات أبعد».

«يجب أن يعرفوا أننا بلغنا من عظم القوة والصلابة والامتلاء بالعنف أفقاً لن ننظر فيه إلى مصالحهم نظرة احترام. سنريد منهم أن يفهموا أننا لن نتنكر لأرائهم ورغباتهم فحسب، بل سنكون مستعدين فى أى وقت لأن نخنق بيد جبارة أى عبارة أو إشارة إلى المعارضة».

■□■

«إن الأمميين (غير اليهود) قطيع من الغنم، وإننا الذئاب. فهل تعلمون ماتفعل الغنم حين تنفذ الذئاب الى الحظيرة؟ إنها لتغمض عيونها عن كل شئ. وإلى هذا المصير سيدفعون».

■□■

«إن كلمة الحرية التى يمكن أن تفسر بوجوه شتى سنحددها بأنها عمل مايسمح به القانون، وتعريف الكلمة هكذا سيترك لنا أين تكون الحرية وأين ينبغى أن لاتكون، وذلك لسبب بسيط هو أن القانون لن يسمح إلا بما نرغب نحن فيه».

■□■

«إنكم لاتتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأمميين إلى حالة مضحكة من

السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بنفسه وكيف يسهل من ناحية أخرى أن نثبط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة، ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له. وبذلك تدفعه إلى حالة خضوع ذليل كذل العبد».

■□■

«لخدمات البوليس أهمية عظيمة لدينا، لأنهم قادرون على أن يلقوا ستاراً على مشروعاتنا وأن يستنبطوا تفسيرات معقولة للضجر والسخط بين الطوائف. وأن يعاقبوا أيضاً أولئك الذين يرفضون الخضوع لنا».

■□■

«إن الرؤساء حين يرشحون رعاياهم لمناصب خطيرة لايتعبون أنفسهم كى يوضحوا لهم خطورة هذه المناصب والغرض الذى أنشئت من أجله، فهم يعملون كالحيوانات التى ترسل جراءها الساذجة بغية الأفتراس».

«سيكون رؤساء الجامعات وأساتذتها معدين إعداداً خاصاً» «ولن يسمح للجامعات أن تخرج للعالم فتياناً ذوى أفكار عن الاصلاحات الدستورية أو ذوى اهتمام بالمسائل السياسية».

■□■

«سنبعد من برامج التربية كل المواد التى يمكن أن تمسخ عقول الشباب، وسنصنع منهم أطفالاً طيعين يحبون حاكمهم ويتبينون فى شخصه الدعامة الرئيسية للسلام والمصلحة العامة».

■□■

«إننا سنعرف كل شئ بدون مساعدة البوليس الرسمى، الذى بلغ من إفسادنا إياه أنه لاينفع حكومته إلا فى أن يحجبها عن رؤية الحقائق الواقعية».

«إذا حدث تقصير فى تبليغ أى مخالفة تتعلق بالأمور السياسية فإن الشخص الذى كان عليه تبليغها سيعاقب بتهمة الإخفاء العمد للجريمة».

■□■

«ومن الوسائل العظيمة الخطورة لإفساد هيئاتهم نسخر وكلاء ذوى مراكز عالية يلوثون غيرهم خلال نشاطهم الهدام بأن يكشفوا وينموا ميولهم الفاسدة الخاصة، كالميل إلى اساءة استخدام السلطة والانطلاق فى استعمال الرشوة».

■□■

«إن حكومتنا ستعتقل الناس الذين يمكن أن تتوهم منهم الجرائم السياسية

توهماً عن صواب كثير أو قليل، إذ ليس أمراً مرغوباً فيه أن يعطى رجل فرصة الهرب مع قيام مثل هذه الشبهات خوفاً من الخطأ فى الحكم. ونحن فعلاً لن نظهر عطفاً لهؤلاء المجرمين. فلا ترخص ولاتساهل مع الجريمة السياسية».

■□■

«إن القروض الخارجية مثل العلق الذى لايمكن فصله من جسم الحكومة حتى يقع من تلقاء نفسه، أو حتى تتدبر الحكومة كى تطرحه عنها، لكن حكوماتهم لاترغب فى أن تطرح عنها هذه العلق، بل هى على عكس ذلك فإنها تزيد عدده، ويعد ذلك كُتب على دولهم أن تموت قصاصاً ن نفسها بفقد الدم».

■□■

«إن حكامهم من جراء إهمالهم، أو بسبب فساد وزرائهم وجهلهم قد جروا بلادهم إلى الإستدانة من بنوكنا حتى أنهم لايستطيعون تأدية هذه الديون».

«لقد استغللنا فسادهم وإهمالهم كما نجنى ضعفىْ المال الذى قدمناه قرضاً إلى حكوماتهم أو ثلاثة أضعاف، مع أنها لم تكن فى الحقيقة بحاجة إليه قط».

■□■

«حين تنتهى المهزلة، تظهر حقيقة الدين الكبير جداً وتضطر الحكومة من أجل دفع فائدة هذا الدين إلى الالتجاء إلى قرض جديد هو بدوره لايلغى دين الدولة وإنما يضيف عليه ديناً آخر».

«وعندما نمكن لأنفسنا لنكون سادة الأرض لن نبيح قيام أى دين آخر غير ديننا».

. . . .

. . . .

. . . . .

هل تحتاج هذه المقتطفات من بروتوكولات حكماء صهيون إلى تعليق منى؟ أم تحتاج إلى دهشة؟ أم أن الذهول بها أولى!!

لكنى لا أملك إلا أن أقر أننى بعد قراءتها هذه المرة فو الحسرة فى قلبى شواظ ناريت لحكامنا أكثر فهماً، ولكتابنا أوضح تقييماً. ولبعض قضاتنا الذين طالما هللنا لعدالة أحكامهم ـ مواجهة لنفى خفى يوازى إلحاحنا ـ أقل تقديراً.

إلا فلنتذكر الهجوم الشرس على عبد الناصر ونحن نقرأ:

«سنبدأ بإثارة الإزدراء نحو منهج الحكم السابق، حتى أن الأمم ستفضل حكومة السلام فى جو العبودية على حقوق الحرية التى طالما مجدوها، فقد عذبتهم بأبلغ قسوة، واستنزفت منهم ينبوع الوجود الإنسانى نفسه، ومادفعهم إليها على التحقيق إلا جماعة من المغامرين الذين لم نعرف ما كانوا يفعلون».

ولنتذكر أيضاً أنيس منصور وجلال كشك وموسى صبرى وإبراهيم سعدة واعتماد خورشيد ـ كمجرد أمثلة ـ لا لنقرأ لهم الفاتحة بل بروتوكولاً.

إلا أن هذا الفصل لايجب له أن ينتهى دون أن أشير إلى واقعة خطيرة.

إذ أن كل ما كتب حتى الآن يمكن للآخرين دحضه كما دحضته أنا ذات يوم، وقد يقول القارئ لنفسه أن هذا لايعدو دائرة الهواجس والشكوك الذى يمليها علينا ضعف مذل مهين نعيشه.. وقد يتسا ءل سائل حتى إذا صحت نسبة بروتوكولات حكماء صهيون إليهم فما الدليل على أن مايحدث عندنا ليس سوى رقصات قرود على نغمات مدرب.

تتشعب مؤسسات الصهيونية فى كل فروع الحياة وفى جميع أنحاء العالم كما تقول البروتوكولات. ومن هذه المؤسسات مؤسسات الليونز والروتارى وماشابهها. وينص بيان لجنة الفتوى بالأزهر الشريف عن نوادى الليونز والروتارى: «إنها من أخطر المنظمات الهدامة التى يسيطر عليها اليهود والصهيونية». «وإنها تهدف لتسخير أبناء البلاد للتجسس على أوطانهم» صدر هذا البيان عن الأزهر الشريف في ٢٥ شعبان سنة ١٤٠٥هـ ورفضت الصحف رغم الإلحاح نشره.

مرحى.. قد يتحفظ البعض على بيان الأزهر.. فلنذهب لغيره إذن.. ولنقرأ فتوى الجمعية الشرعية الرئيسية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة والمحمدية في ٢٠/١/١٩٨٨..

لكن إذا كان بيان الأزهر غير مقنع فهى الأخرى غير مقنعة.. فلنذهب إذن إلى علماء الدين وعيون الفقه وضمائر الأمة.. لنذهب إلى الشيخ محمد الغزالى مثلاً.. فإذا احتجنا المزيد فإلى الشيخ محمد متولى الشعراوى.. فإن كان مايزال فى نفوسنا شك فالقائمة طويلة ينشرها كتاب «المثلث ٣٥٢»[٢] للكاتب أبو

---

(٢) المثلث ٣٥٢ أسرار وخفايا أندية ليونز الماسونية فى مصر. أبو اسلام أحمد عبد الله. دار الاعتصام.

اسلام أحمد عبد الله وتشمل هذه القائمة أسماء كثيرة منها:

فضيلة الشيخ أحمد القطان

الدكتور أحمد النمكى

الدكتور أحمد شلبى

الدكتور عبد الحليم عويس

الدكتور عبد الرشيد صقر

الدكتور عبد الصبور شاهين

الدكتور عبد الحى الفرماوى

فضيلة الشيخ عبد اللطيف حمزة

الدكتور عبد الودود شلبى

فضيلة الشيخ عطية صقر

فضيلة الشيخ محمد عبد القادر أزاد

الدكتور محمد نجيب عمارة

الدكتور مصطفى محمود

الدكتور يوسف القرضاوى

. . . . .

. . . . .

. . . . .

ومجمل آرائهم تحريم الانتساب إلى محافل وأندية الروتارى والليونز وما شابهها تحريماً قاطعاً، وذهب بعضهم إلى أن الانتماء إلى هذه الأندية باقتناع كفر.

أعوذ ـ ياقارئى ـ من مللك ونفاذ صبرك.. فالحلقة تضيق والفصل يوشك أن ينتهى بعد أن تكتمل دائرة جهنمية تحرقنا حرقاً. ومازال الأفدح والأنكى لم يقل، أستبقيه للسطور الأخيرة من هذا الفصل.

إن أبو الإسلام أحمد لا يتركنا حيارى بل يعرض علينا أسماء بعض أعضاء هذه النوادى من حكامنا وأسر حكامنا. وبين هذه الأسماء اسم زوجة المشير أحمد اسماعيل على قائد الجيش فى حرب أكتوبر ١٩٧٣.. وسهام الكيالى زوجة المشير عبد الغنى الجمصى رئيس الأركان فى ذات الوقت. وكذلك يوجد ابن شقيق أنور السادات رئيس الجمهورية....

لن أبقها..

فبمناسبة توقيع بروتوكول إنشاء وحدة الكلى الصناعية بمستشفى المطرية التعليمى الجديد قررت منظمة ليونز الماسونية منح زوجة الرئيس مبارك الرئاسة الشرفية لناديهن.

على أن الكارثة العظمى لم تكتب بعد..

ففى صفحة ١٢٢ من كتاب أبو اسلام أحمد وهو يستعرض أسماء الأعضاء فى النوادى المختلفة يقول بالنص: «رأيت أن الحديث عن النادى الثانى (نادى ليو بمصر الجديدة) سوف يسبب لى وللقراء إزعاجاً شديداً كما أنه سوف يجرنى دون إرادة منى إلى خطوط استراتيجية وسياسية لم أجد فى صالحى الانزلاق إليها فآثرت السلامة».

ممن يخشى الكاتب بعد أن ذكر ما ذكر ومن ذكر؟..

ممن يخشى؟!

ولماذا لم تجب ياحسنى مبارك..

ولما لم يرد الكهنة والفقهاء حتى ولو بفتوى تُستولد سفاحاً، كيلا يكون الكفر بواحا..

آه يامصر..

وآه يا من تغتالون الأمة.

❋ ❋ ❋

ماهو الحل؟

لا يكف السؤال المدّوى عن الإلحاح داخلى: ما هو الحل؟. إن الآخرين يتكلمون كثيراً فيتناقضون كثيراً وتختلط الأشياء.. وحتى النماذج العظيمة فى جيلنا والتى تنزف فى سبيل الوطن تفقد كل يوم بريقها، فهم يبذلون كل مايستطيعون لكن لا شئ يتغير.. وأدركنا أنهم جيل الرواد والشهداء للأجيال القادمة كى تعانى ما يعانيه جيلنا.

ويظل السؤال يدوّى ما هو الحل؟

إن الإنقلاب العسكرى مرفوض فإن الحكم العسكرى لم ينجح فى أى وطن، ولقد كان لدينا فى مصر نموذج من أعظم نماذجه لكنه لم يحقق للوطن مايريد.. وإن أسلوب الاغتيال الفردى مرفوض أيضاً لاعتبارات كثيرة، أهمها الاعتبار الدينى، ثم إن السيف الذى يقتل ظالماً قد يقتل مظلوماً، وقد علمنا التاريخ أن هذا السيف سرعان ما ينتقل من يد القاضى إلى يد الجلاد.. وإن الثورة الشعبية ـ مثلما حدث فى السودان ـ تبدو حلماً عزيز المنال من شعب أثخنته الجراح كشعبنا، وكان جلادوه يدركون دائماً خطورة صحوته فحرصوا على أن يصبوا فى وجدانه الإحباط واليأس من القدرة على التغيير، وإزاء القوة الأسطورية للدولة إزاء شعب أعزل فإن أى ثورة شعبية محكوم عليها بأن تسحق سحقاً.

وإن الحوار بالمنطق ازاء قوة لاتحترم المنطق فاشل.. كما أن محاولة رفع وعى الناس محكوم عليها هى الأخرى بالفشل طالما ملكت السلطة أن تزيف وعيهم، وأن تمنع رغيف الخبز عمن يقول لا.. بل إن محاولة رفع المستوى الخلقى للشعب محكوم عليها هى الأخرى بالفشل، فالأخلاق كل لايتجزأ، وقد أصبح القابض على المبادئ فى هذا الزمان كالقابض على الجمر..

إذن ما هو الحل؟

لقد فكرت ذات مرة فى أحد الاجتماعات فى نقابة الأطباء أن أعلن الاعتصام والإضراب عن الطعام حتى يتوقف التعذيب فى السجون.. لكنهم سيفعلون معى مثلما فعلوا مع سعد إدريس حلاوة، وستنشر الصحف فى اليوم التالى أن طبيباً مجنوناً اعتصم بنقابة الأطباء بسبب حرمانه من علاوة وظيفية.

وأثناء تفكيرى فى ذلك ومض فى رأسى مشروع الكاتب الكبير صلاح عيسى فى الإضراب عن الطعام بسبب عدم إعادته لعمله فى صحيفة الجمهورية.

الآن أفهمك ياصلاح عيسى ـ وأفهم نفسى ـ فلم يكن شروعاً فى الاضراب عن الطعام، بل محاولة يائسة بائسة للهروب من الواقع الدامى بالموت. لم يكن شروعاً فى الإضراب، بل كان شروعاً فى الانتحار.. لم يكن بسبب اشمئزازى من التعذيب أو بسبب رغبتك فى الوظيفة.. بل كنا قد فكرنا طويلاً فلم نجد حلاً، وأصبح الموت هو الحل الوحيد، فَـرُحْنا ـ أيها التعيس مثلى ـ نتحايل على أن نموت دون أن نقتل أنفسنا فنخسر الآخرة، كما خسرنا الدنيا. وعندما أدركت كل ذلك تهاوت الفكرة داخل نفسى.

وأخذ السؤال يدوى مرة أخرى ما هو الحل؟

إن طبيعتى كمثقف تنبو ـ أو على الأحرى تعجز ـ عن العنف.

وهأنذا عاجز عن الحياة كعجزى عن الموت.. وعاجزٌ أيضاً عن الانقلاب على مبادئى كى أكون فرداً من القطيع برغم أن مكانى الاجتماعى والاقتصادى يضعنى في تلك الشريحة التى تزداد غنى كلما ازداد الفقراء فقراً.

عاجز عن الصمت ازاء كل ما يحدث.

وليس لكلماتى قيمة إذا ما تكلمت.

كل الطرق مسدودة ولا أملك إلا الجلوس فى عيادتى والسؤال يدوّى ما هو الحل؟



يـا أيهـا الرئيـــس!!

حينما مات جمال عبد الناصر استنفد من مشاعرى كل طاقات الحب والإعجاب والانبهار والموافقة والاعتراض.

وحين هلك أنور السادات كان قد استنفد من مشاعرى كل طاقات البغض والاحتقار واليأس الأسود.

وعندما جاء حسنى مبارك لم يكن فى قلبى مزيد من محبة أو كراهية.. فقط كان ثمة شعور بالراحة الممتزجة بالاحترام لشخصه، فهو لم يشارك فى كامب ديفيد وظل طوال عصر السادات صامتاً.

وظللت أمنى نفسى بالأمل فيه.. وبرغم أن تصديقه على إعدام خالد الإسلامبولى مزق قلبى بجرح مايزال ينزف إلا أننى تجاوزت الأزمة.. كان السادات قد باع شرفنا القومى بثمن بخس لكننا لم نكن قد حصلنا عليه بعد.. وبدا أن العدو الفاجر يساوم بحياة خالد الإسلامبولى مقابل سيناء مثلومة الشرف.. ولو كان لى الخيار لما اخترت التضحية بخالد، لكننى كنت على استعداد لأن أتفهم (لا أن أقبل) باختيار حسنى مبارك.

ومع بوادر حرب الفساد فى الداخل وسحب السفير المصرى من اسرائيل وتجميد التطبيع أحسست أن حسنى مبارك يسير فى الطريق الصحيح لكن ببطء شديد.

لكن انتخابات سنة ٨٤ أتت بما حدث فيها فكانت كحمض حارق ينسكب على جلد مشوى.

ومن يومها وأنا أقاطع حسنى مبارك كما قاطعت السادات قبله.

شائك هذا الجزء فى الكتابة وصعب.. أن أحاول بموضوعية حوار رئيس

جمهورية مازال يحكم.. فقد درجت العادة فى بلادنا أن يكون الحاكم نبياً طالما حكم، ثم شيطاناً رجيماً عندما يترك الحكم. ولست أخشى على نفسى شبهة نفاق لحسنى مبارك.. بل على العكس أخشى أن أغمط الرجل بعض حقه استجلاباً لتقريظ شجاعة مزعومة. لكننى أقحمت نفسى فيما هو أشد من ذلك وأعظم، فتعرضت لمعاوية بن أبى سفيان والمحاذير تحوطنى.. محاذير منبعها أحاديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ فى الإمساك عند ذكر أصحابه.. ولو أن الأمر كان يتعلق بكارثة مضت وانتهى أثرها لأمسكت.. ولو أننى قطعت بصحة نسبة الحديث أيضاً لأمسكت.. لكننى قلت لنفسى أنه إذا كان الصديق أبو بكر لم يأمن مكر ربه فكيف يأمنه معاوية.. وإذا كانت ملايين الأحاديث قد نسبت كذباً إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فلماذا لايكون بعض منها قد دسه أنصار بنى أمية لحمايتهم من حكم التاريخ عليهم.. أليسوا هم الذين ادعوا أنهم يسيرون على سنّة رسول الله وهم يقتلون آل بيته.. أليسوا هم الذين قسموا العالم الإسلامى ـ فى فتنة ماتزال فى سعير لظاها ـ إلى سنة وشيعة.. أكان يوجد قبل معاوية سنة وشيعة؟!

الله واحد ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم واحد والإسلام واحد فمن الذى شقه. ومن الذى دفع الإسلام إلى الطريق الوعر الذى يتعثر فيه المسلمون حتى يومنا هذا.. من أجل هذا اجتهدت فى كشف بدايات الخطيئة منذ معاوية واثقاً من وعد الله بأجرين أن أصبت وأجر أن أخطأت.. ومهما قلت فى معاوية فلم أقل إلا بعضاً مما قاله إمام المتقين على وسيد شباب أهل الجنة الحسين فيه.

لكن.......

أأجرؤ على أحد صحابة رسول الله ـ على أى حال ـ ثم أنكص أمام حسنى مبارك عن كلمة حق.

فلا خير فىّ إن لم أقلها ولا خير فيه إن لم يسمعها..

ليس ثمة شك فى أن حسنى مبارك أفضل من أنور السادات (الذى لا يفرقه سوء إلا يزيد بن معاوية). وإننى كمواطن أعتقد فى يقينى أننى أمثل أغلبية صامتة أقدّر صفات الرجل الشخصية وأظن أنه نزيه.. لكن الدهشة تستبد بى عندما أراه غير حريص على نزاهة معاونيه فى الحكم.. وقد بدا الأمر فى البداية كأنه حريص ألا يستمع إلى أقوال مرسلة قد تكون مجرد شائعات كاذبة.. وبدا حرصه على عدم اتخاذ اجراء ضد شخص إلا بحكم قضائى حرصاً له وجاهته رغم بطء اجراءات التقاضى من ناحية وعدم إمكانية الإحاطة بكل الجرائم التى تتستر

عليها مراكز قوة تحتمى به من ناحية أخرى.. ومن ناحية ثالثة فليست كل الأخطاء الموجبة للإبعاد عن العمل العام تخضع لقانون العقوبات. وبرغم كل هذه الاعتراضات قد كنت ألتمس شيئاً من العذر له.. كنا مختلفين وكان لكل منا منطقه.. لكننى لم أستطع أن أجد عذراً على الإطلاق له عندما بدأت السلطة التنفيذية تتحدى أحكام القضاء.. لم يكن الأمر انتظاراً لعدالة القضاء إذن، بل استغلالاً لبطء اجراءاته.

ريفى أنا مثلك يا سيادة الرئيس.. وكان ليل القرية الطويل يمنحنى الوقت كى أفكر وأتأمل وأحلم وأحاسب نفسى.

فهل مارست هذا أنت.

أتملك الوقت كى تحاسب نفسك إن كنت قد أخطأت أم لم تخطئ.. أم أن ثمة لعنة فى كرسى الحكم تشى لشاغله أنه منزه عن الخطأ..

مندهش أنا يا سيادة الرئيس ولا أفهم..

لماذا تكون أنت طاهرا ويكون بعض من حولك غير ذلك..

ألم تقرأ قولة سيدى وسيدك عمر بن الخطاب أن مَن ولى أمر المسلمين فاجراً فهو فاجر مثله.. عليه وزر ما فعل..

يا سيادة الرئيس.. إنك إن تجاوزت عن فاسد واحد فى بطانتك فسوف يفرخ مئات الألوف..

فى قديم الزمان أراد ملك أن يكافئ العالم الذى اخترع له لعبة الشطرنج.. وأراد العالم أن يظهر للملك ضآلة ملكه فطلب منه أن يترك له اختيار المكافأة.. وعندما وافق الملك قال له العالم أنه يريد هديته على رقعة الشطرنج مكيالاً من القمح فى المربع الأول ثم يتضاعف الرقم فى كل مربع بعد ذلك فيكون مكيالين فى المربع الثانى وأربعة فى الثالث وثمانية فى الرابع.. وهكذا حتى المربع الرابع والستين. ودهش الملك لضآلة ما يطلبه العالم.. وطلب من خازنيه أن يعطو العالم ما طلب.. ولكن الملك دهش بعد قليل عندما ذهبوا إليه يخبرونه أن غلال الدنيا كلها لا تفى بما طلب العالم..

يا سيادة الرئيس إنك حتى برغم أنك طاهر إن تركت فاسداً واحداً بجوارك وأفرخ هو فاسدين أفرخ كل منهما فاسدين آخرين لاستمرت الدائرة الجهنمية حتى يملأ الفساد البلاد.

يا سيادة الرئيس إن مصائر مراطنيك معقودة بك.. فماذا فعلت وماذا

ستفعل..

في بداية رئاستك كتبت لك الكثير من الخطابات.. كنت أعرف أن مصيرها سيكون الإهمال لكنني لم أكن أستطيع الصمت والوطن ينزف.. ولقد قلت لك فيها أنك قد وصلت إلى قمة المجد فليس لك في الدنيا بعد ذلك مطمع ولا مطمع.. أصبحت رئيساً للجمهورية وأغلب الظن أنك ستظل كذلك حتى تموت.. وناشدتك أن يكون عملك بعد ذلك لآخرتك لا لدنياك.. وناشدتك أن تدرك وطنك.. ناشدتك أن تحارب الفساد.. وأن تجيد اختيار معاونيك.. وناشدتك ألا تقابل أبداً مسئولاً اسرائيلياً.. وناشدتك أن تعود مصر في الداخل والخارج إلى المكان الذي تستحقه.. وناشدتك وناشدتك وناشدتك لكن الأيام كانت تأتي بعكس ما ناشدتك به.

وسألتك يا سيادة الرئيس عن كامب ديفيد.. والعلاقات مع إسرائيل والجفوة مع العرب.. وسألتك بأي وجه تريد أن تقابل ربك: وجه رئيس الجمهورية أم وجه البطل حسني مبارك قائد قوات السلاح الجوي.. وأيهما تريد أن يذكرك التاريخ به..

يا سيادة الرئيس.. إن حياة كل إنسان منا حلقات متصلة قد يختلف فيها الشكل لكن المضمون واحد.. لا يتغير المضمون إلا لدى العباقرة والمجانين والخونة.. وعلى هذا فإن مبادئ الإنسان وقيمه الأخلاقية لا تتغير.. وقد تتغير الوسيلة لكن الهدف لايتغير.. وقد يحدث ماليس في الحسبان فيتأخر الوصول للهدف لكنه لايتغير.. فماذا كان هدفك يا سيادة الرئيس وأنت في العشرين من عمرك.. في براءة الشباب التي لم تخدشها أنياب الزمن.. وماذا كان هدفك وأنت في الأربعين.. وماذا ستكون عليه في الستين.. إنني أتخيل الشاب حسني مبارك يحاسب اللواء حسني مبارك عما حققه من أهداف فيمتلئ به انبهاراً.. لكنني لا أعرف بماذا يحكم اللواء حسني مبارك على الرئيس حسني مبارك.

إنني أتخيل أحياناً يا سيادة الرئيس أنك ترى بحكم موقعك من سوء الأحوال ما لانراه ويطيب لي أحياناً أن أتخيلك كربان سفينة يتهدد الغرق سفينته فيمنعه حنانه من إزعاج الركاب بخطورة وضعهم ويتحمل الألم وحده ويسلك بالسفينة طرقاً غريبة لايفهم الركاب سببها كي يصل بهم إلى بر الأمان.. لكن لماذا لا تصارح شعبك أيها الرئيس.. هل وصلنا إلى درجة من الخراب فلا نستطيع أن نعيش إلا بمقايضة مستقبل أجيالنا؟.. وهل بلغ الهوان بمصر أن ترغمها

إسرائيل على صلح لم تنجح فى ارغام لبنان عليه؟. لكن لماذا لا تصارحنا إن كان الوضع كذلك؟.. إننى أعلم أنك لست مسئولاً عن ظروف ورثتها عن السادات لكنك مسئول عن استمرارها.. ولقد سا ءلت نفسى طويلاً عن موقف السادات وهو يبيع الأمة، كنت أحاول أن أدفع عنه شبح الخيانة البغيض.. وفكرت أنه لم يجد حلاً لمصر ـ من وجهة نظره ـ إلا ما فعل.. وأنه اجتهد فأخطأ.. لكننى لو كنت مكانه لعدت إلى الشعب أصارحه بحقيقة الوضع.. فإن شاء الشعب الاستسلام والعار فدونه أمره.. أما أنا فإننى أهتزل كل شئ.. أما إن زَوّرتُ انتخابات واستفتاءات فذلك لايكون دليل شرعية ما فعلت.. بل دليلاً على الخيانة.. خيانة لا يتقصر أثرها على الحاضر فقط، وإنما تهدر آلام الماضى وتضحياته وتغتال أحلام أجيال لم تولد.. أجل.. فالأمر ليس حماسة ساذجة وإنما هى أمانة أجيال وتاريخ بدأ بالرسول «ﷺ» ولا ينتهى إلا يوم القيامة.

أما عن وضعنا الاقتصادى يا سيادة الرئيس فليس ثمة وصف ينطبق عليه سوى الجنون.. لن أحدثك عما سرق ونهب واختلس وهرب ودمر برغم مسئوليتك عنه.. سوف أترك مايمكن الاختلاف فيه إلى مايمكننا الاتفاق عليه.

فى مصر المطحونة بالديون والفقر يزيد عدد أجهزة الڤيديو عن الموجود فى بريطانيا وفرنسا مجتمعين «٢ مليون» جهاز فيديو.. ثمن الجهاز يكفى لاستزراع فدان من الصحراء، ٢ مليون فدان نزرعها قمحاً يغنينا عن بيع شرفنا وكرامتنا وإرادتنا لقاء كسرة خبز.. وفى مصر ربع مليون مليونير يملكون أعلى نسبة من السيارات الفاخرة.. وفى مصر المطحونة بالديون تكلف تغيير دورات المياه استجابة للشعار الانفتاحى «انسف حمامك القديم» مليارى جنيه.. وقد كان هذا المبلغ وحده كافياً فى هذا الاقتصاد المجنون لحل مشكلة ساكنى المقابر.. كان يكفى لبناء ربع مليون وحدة سكنية ليشغلها مليون ونصف مليون مواطن لا مأوى لهم.. وفى مصر إهدار وإسراف وتبذير لو رشد توجيهه لحل جزءاً كبيراً من مشاكلنا.

ولعلك ترد علّى بما قلته فى إحدى خطبك أنك لاتجد من يقبل منصب وزير الآن.. لكننى أسألك يا سيادة الرئيس وأرجوك أن تسأل نفسك.. هل أحسنت الاختيار؟.. وما بال المحاكم تدين وزراءك كما لم يحدث فى تاريخ مصر.

أتذكر أحياناً مسرحية جون اوسبرز «انظر وراءك فى غضب» حين يقول أحد أبطاله أن خلف كواليس السلطة الرسمية يوجد خمسة أو ستة أفراد لا يعرفهم

أحد هم مصدر السلطة الحقيقة.

فهل أدركت الآن يا سيادة الرئيس لماذا ينكص الشرفاء عن الوزارة.. لأنهم يدركون أنهم سيكونون مجرد واجهة لآخرين يملكون القرار الحقيقى لكنهم لايحاسبون.. ولقد كانت طعنة دامية ـ لكنها نبيلة ـ أن يوجه القضاء نظر السلطة التنفيذية إلى أن تجيد اختيار من يتولى العمل العام.. إلى هذا الحد بلغ الانهيار يا سيادة الرئيس فهل ترضى أن يحدث هذا فى عهدك.. أن ينحرف كبار المسئولين حتى يضطر القضاء لتقريع السلطة على اختيارهم.

إن كان انحراف أبنائنا مأساة فإن انحراف آبائنا كارثة.. ولعل هذه الكارثة هى الدافع الرئيسى لما يحدث فى الشارع المصرى من سلبية أحياناً وإرهاب أحياناً أخرى.

يا سيادة الرئيس إنه رد فعل خاطئ لواقع أشد خطأ وأنتم تعلمون أن ما أقوله حق.. لكن دهاليز السياسة وخداع السلطة يلوون الأشياء فإذا الحق باطل والباطل حق.

وليس ثمة شئ يمكن أن يقنع الشعب بأن يستمر هذا.. حتى لو فى سبيل الاستقرار.. فمن قال أننا نريد لهذه الأوضاع الخاطئة أن تستمر أو أن تستقر.

وإننى أرى يا سيادة الرئيس أن ماتنادينا إليه ليس استقرارنا بل استمراركم..

أجـــــل..

ليس الاستقرار بل الاستمرار..

الاستمرار مهما سحق الوطن أو المواطن..

الاستمرار مهما خسف الحق وساد الباطل..

الاستمرار مهما أهدر المنطق..

الاستمرار ليس ضد اتجاه المصلحة والناس فقط وإنما ضد التاريخ أيضاً..

لكن الباطل لايمكن أن يستمر أو يستقر إلا إذا شوّه الحق..

وهكذا أخذت أقلام خدام السلطان تشوه رموز مصر وضمائرها..

لكننا فى الشارع فهمنا اللعبة..

كان قذف داعرات لمحصنات..

ولم نسمع له إلا لنشمئز منه.. ولم يزد ذلك السابّ شرفاً ولم ينقص المسبوب قدراً.. برغم كل هذا يا سيادة الرئيس مازلت أحترمك.. أحترم الفلاح حسنى

مبارك والشاب حسنى مبارك واللواء حسنى مبارك.. وبسبب احترامى لك كانت مأساة أن ينزل الملك إلى الحلبة فتهاجم فى الإذاعة والتليفزيون والصحافة يوسف إدريس متهماً إياه بالعمالة لليبيا مقابل خمسة آلاف جنيه[1].

بشرى إذن لكل خائن!!

إن أعلى سلطة فى الدولة لاتملك حيالكم إلا التشهير فى وسائل الإعلام فخونوا كما شئتم.

إلا أن المعنى الخطير الذى يقبع خلف ذلك أنك يا سيادة الرئيس تعلم مثلنا أن جميع كتّاب السلطة لاوزن لهم ولاقيمة.. وأنهم عندما أوغروا صدرك بوشاية لعجزهم عن المواجهة نزلت أنت إلى الحلبة بدلاً منهم.

وإن كان استيائى منك عظيماً يا سيادة الرئيس فقد كان استيائى من يوسف إدريس أعظم.. لقد نسى أنه يهاجم كفنان فأخذ يتشكى كإنسان متوسلاً أن لايسمع رئيس الجمهورية إلى وشاية قيلت ضده.

وكان مجرد الدفاع عن النفس مهانة..

لقد استسلم يوسف إدريس لضعف الإنسان ناسياً حجم الفنان الهائل الذى لايستطيع النيل منه إمبراطور ولا حاكم.

وليس معنى أن الاتهام يصدر من حسنى مبارك أنه صحيح..

وبرغم هذا الاتهام الهائل ليوسف إدريس ـ وهو اتهام يعرف الضمير القومى أنه غير صحيح ـ فإن سيادة الرئيس لم يعلق عندما صرخت جيهان أنها المرأة الوحيدة فى العالم التى تتقاضى من حكومة الولايات المتحدة مخصصات رئيس الجمهورية فضلاً عما يخصص لها من طائرات خاصة للانتقال وأطقم للحراسة..

لم يسأل الرئيس فى مقابل ماذا: هل أصبحت جيهان السادات فجأة أعظم من كل أساتذة العالم؟ أم أن ثمة خدمة كبرى قدمتها لأمريكا لا تقدر بثمن، ولهذا فهى تساويها برئيس جمهوريتها.. وهل قدمت جيهان السادات هذه الخدمة بصفتها الشخصية أم بالاشتراك مع زوجها.. وهل كانت تلك الخدمة من مالهما

---

(١) بعد ذلك بسنوات، فى مفارقة يعجز أمامها أى كاتب ساخر كان حسنى مبارك ومعمر القذافى يزوران يوسف إدريس فى منزله الصيفى ويشربان الشاى معه فى مرح وحبور. إن كان خائناً فكيف؟ وإن كان الرئيس جانب الصدق فلماذا؟ وما دور الأمة المستهان بعقلها فى كل هذا. وهل تأخذ تصريحات الرئيس كلها هذا الاتجاه؟

الشخصى أم أن وطناً بيع وشرفاً ضيع.

أرجو ألا تغضبك صراختى يا سيادة الرئيس.. فأنت إنسان وأنا إنسان وكلانا يخطئ ويصيب.. وبرغم أن بطانة السوء تخيل لكل حاكم أن كل من يقول لا إما خائن أو عميل...

لا تغضب يا سيادة الرئيس وخذ من التاريخ عبرة.. فإن العبيد والجوارى الذين كانوا يؤلهون جمال عبد الناصر هم الذين يجلدون اليوم بالسياط ذكراه.. والأحرار الذين عذبهم هم الذين يدافعون الآن عن مبادئه.. فأرجوك أن لاتغضب..

وقبل أن تغضب يا سيادة الرئيس تعال نحلل أبعاد العلاقة الشرعية بينى كمواطن وبينك كرئيس.

فى حياتى لم أدل بصوتى الانتخابى إلا لبيان ٣٠ مارس فقد رأيت فيه أيامها مخرجاً لأزمة الأمة.

يعنى هذا أننى لم آنتخبك يا سيادة الرئيس.. لم أنتخبك عام ٨١ ولن أنتخبك عام ٨٧.. ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان بلا قيمة.. لكننى واثق أن صوتى الذى لم أعطه لك أخذته السلطة منى غصباً ليكون لك. ولو اقتصر الأمر علّى وحدى لكان بلا قيمة..

لكنك يا سيادة الرئيس تعلم والشعب جميعاً يعلم أن ٧٥٪ على الأقل من أصوات الانتخابات والاستفتا ءات أصوات مزورة..

فأى شرعية تلك التى تنبنى على أصوات مسروقة.

وإن الذى سرق صوتى لم يكتف به بل يريد أيضاً تضليل وعيى واغتصاب عقلى ونيل ارادتى.. فبأى منطق..

يا سيادة الرئيس إذا أهدرت الشرعية فكل شئ مباح.. ولقد حمد ابن الخطاب الله يوماً أن جعل فى أمته من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.. أما أجهزة أمنك فهى تسحق سحقاً أولئك الذين يقومون اعوجاج منحرفيكم بألسنتهم.

ولعلنا نحتاج يا سيادة الرئيس إلى الخروج من قلب الدوامة كى تصبح الصورة أكثر وضوحاً.. وكى نتجنب ذلك الاتهام الخسيس الخائن الذى يوجه لكل طالب حق وعدل وكل معارض لظلم أنه شيوعى وملحد، أو متطرف دينى.. وبداية لا أنكرك يا سيادة الرئيس أنه برغم كثير من العوامل فإن جموع شعبنا لا ترفض النظام الغربى كنظام للحكم.. وإليه فلنحتكم.. تخيل معى يا سيادة

الرئيس أن مايحدث فى بلادنا يحدث فى أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا.. ماذا سيكون حكم المؤسسات والشعب عليه. بل ماذا سيكون حكم محاكم الجنايات.

تخيّل أن نيكسون لم يتورط فى فضيحة وترجيت وإنما تستر على تزوير إرادة شعبه.. وتخيّل أن تاتشر يدين القضاء نصف مجلس وزرائها.. وتخيّل أن مليون فرنسى يعيشون فى المقابر.. وتخيّل أن الأفاقين واللصوص والمرتشين هم رؤساء مجالس إدارات الشركات الألمانية. وتخيّل يا سيادة الرئيس كل ذلك.. ولتفكر معى ماذا سيكون الحكم عليهم جميعاً.. على الرئيس إذا سكت.. وعلى الشعب إذا قبل.. وعلى المؤسسات الدستورية إن لم تمنع.

وأنت تنعى يا سيادة الرئيس على معارضيك أنهم يقدمون مثالب ولا يقدمون حلولاً.. وأنت تعلم أنهم طالما طرحوا حلولاً لكنكم لاتريدون.

وقد تعتذر يا سيادة الرئيس بالفارق بين الممارسة العملية والفكر النظرى.. وبالفارق بين الحلم والواقع.. وبسهولة الحديث من خارج السلطة ووطأة المسئولية داخلها.. وأنا إستطيع أن أتفهم كل ذلك.. لكنى لا أستطيع أيضاً إلا أن أفهم أن الواقع لابد أن يسير فى اتجاه الحلم الذى يعبر بالضرورة عن آمال الواقع.. أما إذا تناقض الواقع مع الحلم فهذا على مستوى الأفراد يعنى الجنون لكنه على مستوى الأمم يعنى الخيانة.. ولعل هذا هو ماكان يقصده محمود رياض حين صرخ أن ما حدث هو جريمة ضد الأمة.. فالجريمة ضد الأمة هى الخيانة العظمى..

ولو أننى كنت مكانك يا سيادة الرئيس لما فعلت ما تفعل.

إن البساطة عملية عبقرية بالغة التعقيد.

وكان يمكنك ببعض الاجراءات البسيطة أن تعطى شعبك يداً يذكرها لك أبد الدهر..

لو أنى كنت مكانك لألغيت القوانين الاستثنائية فهى وصمة عار لجيلنا. ولو أنى كنت مكانك لمنعت تزوير الانتخابات.

ولو أنى كنت مكانك لجعلت انتخاب رئيس الجمهورية ونائبه انتخاباً حراً مباشراً.

ولو أنى كنت مكانك لمنعت التعذيب فى السجون مع تعليمات صارمة بالتحقيق فى كل تعذيب تم.

ولو أننى كنت مكانك لانطلقت بحماس صادق وحقيقى مع شباب البلاد فى مشروع قومى ـ كالسد العالى ـ يمسح وصمة عار أخرى تلحق بجيلنا ألا وهى

سكنى المقابر. ولو أننى كنت مكانك لاخترت وزراء يبذلون للوطن أرواحهم لاوزراء يستنزفونه حتى آخر قطرة.. وزراء غير مرتشين بلا أرصدة فى الخارج واتصالات مشبوهة يبيعون فيها أمتهم.. وزراء يتحركون طبقاً لخطة تتقدم فيها البلاد.. لا وزراء يخربون وزاراتهم جرياً خلف عمولة هنا ورشوة هناك..

ولو كنت مكانك لعلمت أن خلف هذا التخريب لايقبع فقط مسئولون بلا ضمير وشركات أجنبية بلا ضمير وإنما يقبع فى النهاية أصابع مخابرات أعدائنا التى تخطط أن تصل بمصر إلى حالة العجز المطلق.

لو كنت مكانك لاخترت رئيساً للوزراء - إنساناً - كالمستشار أحمد رفعت خفاجى.. ولاخترت مسئولاً عن الدعوة الدينية وجهاً عظيماً كالشيخ محمد الغزالى..

لقد كانت مأساة جمال عبد الناصر ومأساتك أنت أيضاً سوء اختيار الرجال. إن المقربين يجب أن يبعدوا.. والمستبعدين يجب أن يسوسوا البلاد.. وإن وطناً يكون فيه فتحى رضوان على رأس المعارضة هو وطن لن يتقدم أبداً بل سيزيد كل يوم انهياراً.. ذلك أن مكانه ومكانه مثله يجب أن يكون فى قلب عقل الأمة يصوغون مستقبلها.

ذلك يا سيادة الرئيس ما أفعله لو كنت مكانك..

ولقد اقتصرت على السياسة الداخلية مهملاً السياسة الخارجية عن عمد لأننى أعلم أن ألف لسان سيرد علّى فيها بكلمات ضخمة تخفى مضموناً خاطئاً عن توازنات عالمية وسياسية دولية يجب أن نسير فيها صالح الوطن.. وليس لصالح الوطن مايقصد منها وإنما استمرار الحكم على حساب الوطن والأمة والدين والمستقبل.

ولأننى أبحث عن نقط اتفاق لا عن نقاط خلاف فإننى ركزت على الداخل فقط.. بقرارات بسيطة لكنها عميقة.. وكانت كفيلة بأن تغير وجه الحياة وتنقذ أجيالنا من الهاوية التي تدفعها إليها..

وهى كلها قرارات كانت جديرة بك وكنت جديراً بها.. لأنك يا سيادة الرئيس طيب ودمث الخلق وغير منافق.. مواطن بسيط مثلنا.. فلاح مصرى تتمتع بأخلاق القرية الحقيقية لا ذلك المسخ الشائه الذى إدعاه السادات.

فلماذا لم تفعلها..

كان المنطق يقتضى ذلك..

أم أن أبطال جون أوسبرز يقبعون فى مكان ما.. وهم الذين يقررون.. لا أنت.

ولماذا تستمع إليهم ولا تستمع إلينا..

وتساعدهم بأن تنادى ألا ننبش الماضى..

فليخش نبش الماضى من له فى الماضى عورة..

أما الطيبون المخلصون فليعرضوا كل شئ فى وضوح الشمس فهو إن لم يشرفهم لن يخزيهم.

أجل يا سيادة الرئيس..

فلنحاسب أنفسنا ولنحاسب بعضنا.. قبل أن يحاسبنا الله.. وإن كان يسوءك اشتدادى عليك فى الحساب اليوم فيوم القيامة أمام الله سيكون الحساب أشد..

لكن الحساب يوم الحساب.. ويخدعنا الزمن فنخال أنه بعيد.. فلنحتكم إذن لديموقراطية الغرب.

فهل تمنع هذه الديموقراطية مواطناً من محاسبة رئيسه..

إن الأدب مطلوب فى مخاطبة الآخرين لأنه واجب أخلاقى بل ودينى.. لكن هذا الواجب محدود بحيث لا يطغى على الحقيقة.. فهو المظهر الذى يجب ألا يطغى على الجوهر.. أم أنكم يا سيادة الرئيس تعاملوننا كأننا عبيد وأنتم سادة فلا حقوق لنا عليكم إلا ما كان من حقوق العبيد. فى أعناقنا سلاسلكم.. ظهورنا موطئ سياطكم.. حريتنا فى يمينكم.. وحتى أعراضنا حلال عليكم.. وليس من حقنا بعد ذلك إلا أن نسبح بحمد نعمتكم علينا.

أتقبل يا سيادة الرئيس أن يصل الأمر أن كاتباً شهيراً أعتقل أخوه فى قضية برأته منها المحكمة بعد ذلك يضطر لمناشدتك على صفحات الصحف فى اعلانات مدفوعة الأجر كى تنقذ أخاه من التعذيب فى سجون الزبانية حيث ينفردون بضحاياهم.. يعصب المجرمون أعينهم حتى لا يتمكنوا من معرفة الجلادين بعد ذلك إذا ما فكروا فى شكواهم.. وهم إذا شكوا يطالبهم القضاء بألف دليل ويقين على نوع التعذيب وشخصية المعذبين فكيف يتمكنون من ذلك وقد كان الشيطان منفرداً بهم..

فهل تعرف يا سيادة الرئيس وطأة ذلك على بناء شخصية الأمة.. إن الجميع يودون من أعماقهم أن يبادروا لنجدة المعذب المستغيث.. لكن الخوف واليأس يقتلان نخوة الرجال وشهامتهم فيصمتون.. وفى الصمت تسقط رجولتنا

وانسانيتنا وشرفنا وكرامتنا فنتحول إلى قطيع من الخراف ينتظر الذبح.....

وذات يوم انتشرت فى أربعة أركان مصر شائعة انتشار النار فى الهشيم.. وكانت تعبر عن لهفة الشعب المقهور للبطل الذى يخلصه من ذله وممن كان واجبهم حماية أمنه فاغتالوه.. قالت الشائعة أن أحد كبار ضباط الشرطة اصطدم بابن حسنى مبارك فى محطة بنزين عندما لم يحترم دوره (هكذا يراهم الشعب) فاعترضه ابن الرئيس فى هدوء (هكذا يتمناه الشعب) ولما كان الضابط لا يعرفه فقد انهال عليه بسباب قذر (هكذا عرفهم الشعب) لكن ابن الرئيس تمالك أعصابه تماماً (هكذا يتمناه الشعب) إلا أنه أصر على موقفه بعزم من حديد (هكذا يريده الشعب) وازداد تطاول الضابط (هكذا خبرهم العشب) وازاء ذلك طلب ابن الرئيس التوجه إلى قسم الشرطة للتحقيق.. واعتبر الضابط أن هذه فرصته الكبرى للتنكيل به فى قسم الشرطة حيث يمكن هناك (فيما يفترض أنه قلعة الأمان) أن يعذب لايدركه أحد.. وتوجها إلى قسم الشرطة وهناك قابلوا الضابط الكبير بأيات التبجيل والتوقير واستقبلوا ابن الرئيس باستهانة ولم يسمحوا له حتى بالجلوس.. وبدا التحقيق الذى كان ينتوى به تلفيق قضية للمواطن ابن الرئيس.. وأدلى الضابط الكبير ببياناته شفهياً لكنهم طلبوا بوقاحة من المواطن بطاقته وكاد المحقق أن يسقط مغشياً عليه عندما أدرك أن من شارك فى الاستهانة به هو ابن رئيس الجمهورية.. وفى لمح البصر انقلب الوضع تماماً فإذا بالضابط الكبير يتهاوى تماماً ويتذلل إلى ابن الرئيس أن يصفح عنه لكن ابن الرئيس يرفض (هكذا يريده الشعب).. ويحضر مدير الأمن والمحافظ بل ووزير الداخلية لكن ابن الرئيس يظل واقفاً فليس من حقه أن يجلس كإبن رئيس وقد منعوه من الجلوس كمواطن.. وتنقلب الدنيا ويشتت الظالمون وينتصر الحق..

كانت الشائعة رسالة أمل يائس منسحق إليك يا سيادة الرئيس من شعب أمل فيك أن تكون مخلصه ومنقذه من جلاديه..

لكن صحافتكم القومية نفت الشائعة بمنتهى القسوة..

إذن.. ليس هو أنت..

فإذا لم نجرؤ نحن أن نسائلك عن كل هذا..

أو إذا جرؤنا لكنك لم تعرنا اهتماماً..

فكيف ستواجه حساب الله سبحانه وتعالى لك يوم القيامة..

إننى واثق أنك أيها المواطن المصرى مثلى بالله تؤمن..

لكن...

لا إيمان بلا يقين..

واليقين يهزم الزمن حتى يكاد يلغيه..

وإنى لأكاد أراك رأى العين.. يحاسبك الله ويسألك الملائكة وأصابع مئات الملايين من وطننا ومن العالم العربى والإسلامى تشير إليك هاتفة:

كان يستطيع يارب.. لكنه لم يفعل..

وأخالك يومها.. وحدك.. لا جيش ولا حرس ولا أمن مركزى ولا وزير داخلية يقلب الحقائق..

وكل نقطة قوة كانت لك فى الدنيا هى عليك فى الآخرة.. فهل أعددت عدتك للسفر يا سيادة الرئيس.. للقاء ربك..

أدمعت عيناك من خشية الله منذ أصبحت رئيساً للجمهورية أم غرتك القوة.

انكصت عن فعل كنت تزمعه خوفاً من الله..

أو أقدمت على فعل لصالح رعيتك مبتغياً وجه الواحد القهار لا مبتغياً استمرار النظام..

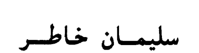
أقدرك الله علينا فاتقيت قدرتنا عليك غداً أمامه..

وكيف تجيبه حين يسألك عن جائع لم يجد طعامه.. وعار لم يجد كساء وقاطن بالمقابر لم يجد مسكناً.. وعن مظلوم لم تنصفه. وعن ظالم لم تنصره برده عن ظلمه.. وعن آمال ضيعتها وعن آلام سببتها وعن كذب لم تصححه وعن تزيف لعقل الأمة لم توقفه.. وعن أشرار وليتهم، وعن لصوص ائتمنتهم، وعن أتقياء استبعدتهم، وعن حق هجرته، وعن باطل احتضنته، وعن أخ لك فى الله جفوته حتى العداوة، وعن عدو الله اصطفيته.. وكيف تجيبه عندما يأتى أولياؤك يلقون بذنوبهم عليك فيعذبون بك وتعذب بهم.. وكيف تجيبه حين يسألك عن لصوص ومرتشين استنزفوا البلاد سكت عنهم.. وكيف تجيبه عندما يواجهك من عذب فى عهدك.. وما بالك إذا أخذوا يقتصون منك بكل ما فعل بهم واحداً واحداً يا بن الأكرمين.. وكيف تجيبه حين يواجهك الآلاف الذين استشهدوا فى حروب الوطن.. أدافعت عن القضية التى استشهدوا فى سبيلها، أم شاركت فى بيع دمائهم.

كم عمرك الآن يا سيادة الرئيس.

وكم يتبقى لك من عمر.. عام.. عشرة أعوام.. خمسون عاماً..
سوف تمر كلمح البصر كما مضى..
ثم يأتى يوم الحساب..
فهل تشك يا سيادة الرئيس أن هذا اليوم آت..
لا أظن أنك تشك.
وإن كنت لا تشك فى ذلك الهول كله.. أفليس جديراً بك أن تدعوا بالرحمة لمن يهدى إليك عيوبك.
وأليس جديراً أن أهتف بك:
ـ اتق يوماً كان عذابه مستطيراً..
كان..
فعل الديمومة والكينونة..
سوف يحدث..
لكن اليقين يجعله كأنه يحدث الآن أمامى..
ولا إيمان بلا يقين..
هى الفتنة يا سيادة الرئيس فابتغ الخلاص.
أم حسبت أن تقول آمنت ولا تفتن.

❋ ❋ ❋


سليمان خاطر

كان خريف ١٩٨٥ خريفاً حزيناً، لكن الشتاء كان أشد حزناً..

وكأنما خلا الجسد العربى من مكان وحيد لطعنة جديدة تستنزف الباقى من كرامته، وتذل المتبقى من كبريائه.. ففى أول أكتوبر ١٩٨٥ قامت الطائرات الاسرائيلية بمعونة أمريكية بنسف مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس فالتهمت المجزرة مائة وخمسين عربياً غير الجرحى.

يارب.. أليس لهذا الهوان والذل من نهاية.. رحماك.. كانت مشاعر الأمة العربية كلها ـ دون الحكام ـ تغلى بالغضب..

كان هذا الهوان فوق طاقة البشر. لو أن كل هذا الاستفزاز والإهانة والسخرية والقهر وجهت لحيوان أعجمى من حيوانات الغابة لفقد الحيوان غريزة البقاء وواجه الموت، فالموت أكرم.. إلا أننا كنا وصلنا لمرحلة كانت أنباء قتلى العرب وأشلائهم موضوعاً روتينياً فى كل نشرة أخبار وكل صحيفة كتقرير الارصاد الجوية عن حالة الطقس.. ولم يكن صمت الأمة صمت من فقد الإحساس، وإنما تصرفت كما يفعل الجسد البشرى عندما يتعرض لألم يفوق احتماله فيفقد الوعى. إلا أن حالة الغيبوبة هذه لم تكن كاملة ولم تشمل الجميع.

ففى يوم ٥ أكتوبر ١٩٨٥ فاجأ سليمان خاطر العالم كله بإطلاقه النار على الصهاينة، ولم تكن عظمة العمل أنه بطولى ولا خارق، بل كانت عظمته أنه عمل عادى تماماً.. تعبير حقيقى عن مشاعر الأمة.. كان يمكن لأى واحد منا أن يقوم بهذا العمل لو كان مكان سليمان خاطر.. عمل تمليه ملايين المشاعر والأشياء والأحداث ودير ياسين وصبرا وشاتيلا.. وأكثر من مائة ألف شهيد وكامب ديفيد.. وذل السنين وهوانها وعارها.. لذلك لم تتوحد مشاعر الأمة العربية كلها

خلف أحد منذ جمال عبد الناصر كما توحدت خلف سليمان خاطر.. حتى خالد الإسلامبولى نفسه لم يحظ بهذا التعاطف والتأييد برغم أنه بأى مقياس موضوعى يمثل البطولة الخارقة التى لاتدانيها فى العصر الحديث بطولة.. لكن خالد الإسلامبولى كان يمثل الإعجاز الخارق للعادة، بينما سليمان خاطر كان يمثل الفطرة نفسها.. وكان موقف الأمة منه امتداداً لموقفها يومى ٩ ، ١٠ يونيو.. استفتاء حقيقياً غير مزيف على اختيار الحرب ورفض الاستسلام.. ولم تقف ضمائر الأمة ولا زعماء المعارضة معه وحدها، بل وقف الشارع المصرى والعربى كله وكانت إحدى المرات النادرة التى يعبر فيها الناس عن رأيهم الصريح مباشرة.. وتكلم الجميع.. فتحى رضوان، وإبراهيم شكرى، وعمر التلمسانى، والفريق محمد فوزى، وأمين هويدى، ومحمد إبراهيم كامل، ومئات ومئات يطالبون بعدم محاكمته أصلاً لأنه نفذ الأوامر.. كان يحرس منطقة ممنوع الاقتراب منها.. فلما اقترب منها الصهاينة رغم تحذيراته أطلق الرصاص.. وإلا لماذا أعطوه الرصاص أصلاً.. وفيم كان يطلق الرصاص إن لم يطلقه فى موقف مثل هذا.. إن الجندى المصرى الذى قتل البطل أحمد عبد العزيز فى حرب ١٩٤٨ لأنه لم يعرف كلمة السر ولم يمتثل للوقوف لم يحاكم.. فكيف يحاكم سليمان خاطر؟

لكن السلطة لم تكن مصرة على المحاكمة فقط.. وإنما المحاكمة السرية أمام محكمة عسكرية رفضت كل طلبات الدفاع.. وإننى كفرد عادى لا أستطيع أن أعلق على تصرفات هذه المحكمة.. لكن التاريخ سيحكم.. وستظهر الحقيقة ناصعة يوماً ما إذا كانت هذه المحكمة قد أضافت إلى شرف العسكرية المصرية أم سلبته.. إلا أن نقابة المحامين التى كانت أحد عناصر ضمير الأمة أبدت رأيها مع اللواء سمير فاضل الذى حاكم خالد الإسلامبولى ورفضت بعد ذلك أن تمنح هذا الرجل شرف عضوية النقابة.

كان الشارع المصرى يغلى..

وكانت المظاهرات لاتتوقف..

لكن الشيخ شعراوى لم يبد رأياً صريحاً.. ولقد قال كلمات بليغة لكنها يمكن أن تفسر مع سليمان خاطر أو ضده.

❁ ❁ ❁

وفى إسرائيل كان الإصرار على إعدام سليمان خاطر.. وكان الفجور الأشد أنهم فى نفس الوقت كانوا ينظرون طلباً قدمه المجرم السفاح آلان جودمان الذى

قتل وأصاب أكثر من ١٥٠ ملسماً وهم يصلون صلاة العيد وحوكم يومها وحكم عليه بالسجن سبع سنوات لكنه قدم طلباً للإفراج عنه قبل انتهاء المدة!!

كنت أتخيّل فى نفسى أن حسنى مبارك كان يبكى وهو يصدق على قرار إعدام خالد الإسلامبولى ورفاقه.. وأنه كان يقدمه شهيداً من أجل الأمة كى نسترد سيناء..وكنت واثقاً أن لن يكرر نفس العمل أبداً.. لذلك غفرت له عندما ذبح مشاعرى ومشاعر الأمة العربية والإسلامية كلها بتصريحه أن سليمان خاطر مجنون[1].. وظننت نفسى ذكياً بأن حسبته يناور كما يناور الصهاينة لإنقاذ آلان جودمان.. كان يقول ذلك تبريراً لعدم الحكم على سليمان خاطر بعد ذلك.. ولم يكن فى عقلى ولا فى مشاعرى احتمال آخر لتصريح حسنى مبارك.



(١) كان رد المظاهرات الشعبية: «ماتقولوش عليه مجنون.. قولوا عليه ماقدرش يخون».


مـاذا بعــد...

فى ١٩٨٥/١١/٢٩ أمرت نيابة الأموال العامة بحبس الدكتور محمود جامع وشقيقه وابن عمه على ذمة التحقيق لمدة ستين يوماً.

كان لقرار حبسه وقع القنبلة.. كان صديقاً للسادات ومواطن شرف أمريكى وعضواً هاماً فى الهيئة الحقيقية الحاكمة من خلف ستار.. وكان أقوى من معظم الوزراء وعضواً رئيسياً فى معظم المجالس واللجان التى ابتدعها السادات.

وكانت فرائص اللصوص ترتعد.

أما المواطن العادى الذى يمثل الأغلبية الصامتة العزوفة عن المشاركة لأنها تدرك بفطرتها زيف اللعبة فقد بدأ يتخلى عن سلبيته المدعاة ويشارك. فإذا كان مجلس الشعب يتم بانتخابات مزورة.. وإذا كانت السلطة الحاكمة ماخيِّرت بين أمرين إلا اختارت أسوأهما.. فما يزال القضاء شامخاً بصرحه.

لكن السلطة كان لها رأى آخر. فقد تلا ذلك مباشرة نقل المستشار محمد عبد العزيز والمستشار محمد أبو زيد والمقدم محمد عبد المنعم خارج طنطا. وعندما أحيل المستشار أحمد رفعت خفاجى للمعاش لم تحاول السلطة الاستفادة من شخصيته الفذة فى موقع من عشرات المواقع التى أصبحت قاصرة على الخدم.. خدم السلطان!!

كانت السلطة تتجاهلهم. لكن الشعب والتاريخ كان يحتفظ بهم رموزاً مضيئة فى قلبه الدامى.

وكنت أعرف أن تلك ليست نهاية الحكاية وإنما بدايتها..

كان حزنى كثيفاً وثقيلاً. جزء قليل منه على الدكتور جامع كمأساة إنسان فلم يكن انحرافه سوى جزء لا يتجزأ من انحراف السلطة التى كانت ومازالت

تطبق قاعدة مروعة: (أنت لص ولم تكتشف.. إذن فأنت مواطن صالح.. أنت لص واكتشفت إذن فأنت مواطن غير صالح)..!!

وكان جزء آخر من الحزن أننى فشلت فى قضيتى.. كنت أريد أن أثبت أن السلطة سلطة خيرة.. وأنها تحتاج فقط إلى من يدلها على الفساد كى تجتثه. ولكن تجربتى أثبتت العكس تماماً. تماماً، وكنت أريد أن أضرب مثلاً لأى مواطن على أن مواجهة الفساد عمل لا يتطلب سوى ضمير نقى.. وأن أى إنسان مهما كان ضعيفاً يستطيع مواجهة أى فساد مهما كان قوياً.. وفى هذا أيضاً فشلت. فإن كم الجهد والعناء الذى بذلته أصبح لا حافزاً على مقاومة الفساد، بل دليلاً يُضرب على أن مقاومة الفساد دونها شوك القتاد.

وهأنذا كبطل فى روايات ألف ليلة وليلة أخوض بحور الظلمات وبلاد الأهوال باحثاً عن أكسير الحياة الذى يشفى وطنى لكنى لا أعود إلا بخفى حنين.

هأنذا قد نجحت فى انتزاع شوكة من فرع من شجيرة فساد. فماذا عن بقية أشجار الغابة التى تنمو نباتاتها الشيطانية كل يوم تلتف حول عنق وطنى.. تغرز أشواكها السامة فى جسده وتستنزفه..

فماذا بعد..؟

ماذا بعد؟!!



تشـريـح المجتمـع!

أعترف للقارئ أننى ظللت شهوراً عديدة متوقفاً عن الكتابة. وهذا السؤال يدوّى فى رأسى كطنين النحل.. ماذا بعد؟

تتداعى الأفكار فى عقلى كأنما هى كائنات حية تتسابق إلى رأسى، كل منها تحاول أن تفوز بأن تكون هى البداية.

لم أكن أريد أن أنقل للقارئ أكداساً من الهزائم والأحزان.. ولقد نقلت الواقع الصادق المجرد قحاً كما حدث وهو فى رأيى أشد بشاعة مما يمكن أن يصل الخيال والرمز والتورية إليه.. ولست أقلل بذلك قيمة الأدب والفن.. لكننى فى نفس الوقت أؤكد أن ثمة فارقاً هائلاً بين قصيدة شعر أو لوحة رسم عن إنسان يذبح وبين أن ترى هذا الإنسان يذبح فعلاً أو أن تكونه...!!

ولقد كان منطقياً فى هذا الكتاب أن يمتزج الخاص بالعام فتصبح قضية الفساد التى عايشتها هى نموذج للفساد فى مصر..

وكان طبيعياً أيضاً ـ برغم أنه مذهل ـ أن أكتشف أن الفساد ليس مجرد نباتات شيطانية، بل شجرة هائلة تتشابك جذورها حول السلطة وتتساقط ثمارها عليها.. وأنه لم يكن من الممكن أن يستفحل الفساد كالسرطان دون أن يكون هناك فى السلطة من يدعمه ويحميه ويستفيد منه.

ولكم وددت أن يكون الخلاف فى الشارع المصرى بين منطق ومنطق، وليس بين منطق ولا منطق.

وأن يكون انتصار الحق واندحار الباطل هو القاعدة لا الاستثناء.

لذلك كله فإننى أكتب هذا الكتاب لجيل قادم حتى لو تأخر مجيئه ألف عام.. ولسوف يتساءل هذا الجيل.. كيف استطاع جيلنا الحاضر أن يتسم بهذه

الحماقة كلها.. أن يكون عدو نفسه بهذه الصورة.. أن يصل هذا الدرك من الحضيض.

سوف يتساءلون ألم نكن نفكر ونحس.. وكيف استطاع الشرفاء فيه أن يعيشوا أم لم يكن به شرفاء؟ لهذا الجيل الذى ربما يتأخر ألف عام.. أقول لا.. هناك من فكّر وأحس وعانى وأدرك أن مصر تعانى الآن ما لم تعانه فى عصر المماليك والشراكسة والأغوات.

وأن هناك من قال لا..

قالها ومات..

قالها وعذب..

قالها وشرد..

قالها وشوه وحوصر..

قالها كُفِّر..

قالها فخُوِّن..

ولم يكتف الطاغوت بوسائل القمع القديمة.. ففى كثير من عصور الانحطاط القومى كان الشرفاء يقهرون.. لكن شراسة الطواغيت أيامها لم تصل لقلب الحقائق والاختلاف على معتقلين مكبلين فى السجون لا يستطيعون رداً.. أما شراسة طواغيتنا فقد فاقت كل ذلك.. وذات يوم وقف رئيس الجمهورية ومعه وزير داخليته يشوهون بعضاً من أعظم أبناء مصر متهمين إياهم بالخيانة العظمى والتجسس للاتحاد السوفيتى.. وطرحت التفاصيل وأذاع التليفزيون أفلاماً مصورة للجريمة كدليل لايدحض.. ثم يأتى القضاء بعد شهور ليلفظ كل هذه الأدلة.....

وأصبح رفض الخيانة خيانة.

كما أصبحت محاولة كشف المنحرفين واللصوص مجرد خلافات شخصية وأحقاد قديمة.

فيا أيها الجيل القادم ولو بعد ألف عام.. إنه كما يصاب الأفراد بالأمراض كهبوط القلب والفشل الكلوى فإن جيلنا أصيب بأمراض عديدة منها هبوط العقل وفشل الروح وفقدان المناعة.. وأن هناك أمراضاً معروفة فى الطب يأكل الجسد البشرى فيها نفسه فتلتهم كرات الدم البيضاء الكرات الحمراء رتنعكس وظيفة الأجسام المضادة فى الدم والمنوط بها مهاجمة الجراثيم والمواد الضارة التى تدخل الجسم فتتحول هذه الأجسام المضادة إلى مهاجمة أعضاء الجسد نفسه فتغزو

القلب وتليف الكبد وتدمر الكليتين وتحطم العظام.. ومثل هذا المرض قد أصاب جيلنا وأمتنا..

يا أيها الجيل القادم. نحن ندمر أنفسنا.!! فتلعم. وأناشدك. أيها الجيل القادم ـ ولو بعد ألف عام ـ أن تحتفظ فى ذاكرتك جيداً برموز الخيانة فى جيلنا فليس ذلك نبشاً للماضى.. وإنما لن تستطيعوا أبداً بناء أجيال نظيفة وقوية على أساس نخره السوس وملأه العفن.

إلا أننى أؤكد لكم أن جيلنا كله لم يكن مصاباً.. وإنما نشأت فيه بؤر سرطانية عكست وظائفه فجعلت بعضاً منه يدمر بعضه.

ما هو السرطان؟

السرطان نمو غير طبيعى فى خلايا كانت من قبل طبيعية فتنمو هذه الخلايا على حساب باقى الخلايا ثم تبدأ فى التهامها وتدمير وظائف العضو الذى تصيبه ولا يتقتصر الأمر على ذلك.. بل إن هذا العضو يبدأ فى التهام ما حوله من أعضاء أخرى.. ولقد أصيب جيلنا بمثل ذلك..

وإلا فماذا تقولون عن كتّاب وصحفيين كانت وظيفتهم الصدق فصارت الكذب.. لقد أصبحت الوسيلة لفهم أى قضية ليست متابعة الصحافة أو الاذاعة أو التليفزيون، وإنما تجنبها جميعاً.

وماذا تقولون عن جهاز أمن كانت وظيفته حماية أمن المواطن فتضخم وتضخم وأصبحت وظيفته الأولى هى تهديد أمن هذا المواطن!!

وماذا تقولون عن أجهزة كانت مهمتها اجراء انتخابات حرة ونزيهة فأصبحت كل مهمتها تزوير هذه الانتخابات!

وماذا تقولون عن جيش كانت مهمته مواجهة العدو فإذا به يواجه الشقيق!!

ماذا تقولون عن هذا كله وعن مئات الأسئلة مثله!!

تكاد خيوط العقل والمنطق أن تفلت منى ازاء هول مانواجهه..

إن القانون الذى نعيش فى ظله يجرِّم من يزدرى نظاماً كهذا. فماذا سيحكم جيلكم أنتم..؟؟

والقانون الذى نعيش فى ظلمه يحرم علّى أن أعلن أن اسرائيل عدوة وأن ليبيا وسوريا شقيقتان!!

والقانون الذى نعيش فى ظله يعطى صوتى بالرغم عنى لمجلس شعب لم أنتخبه!!

والقانون الذى نعيش فى ظله يُفرض علّى بقوة القهر الكذب.. وليته كان

كذباً غير مفضوح أو مكشوف.. فقد كان ذلك على الأقل سيعنى جزءاً من الاحترام لعقلى.

والقانون الذى نعيش فى ظله يجعل خالد الإسلامبولى وسليمان خاطر خونة.. ويجعل من مصطفى خليل وبطرس غالى وحسن التهامى أبطالاً...!!

والقانون الذى نعيش فى ظله يجعل موسى صبرى كاتب السلطة ويحرم محمد حسنين هيكل من الكتابة لمواطنيه بينما يتلقف العالم كله ما يكتب..!!

والقانون الذى نعيش فى ظله يسلب منى مصر.. يعطيها لأعدائى.. فإذا أى هجوم على سياسات الحكام هجوم على مصر.. ولم يكن الأمر كذلك أبداً. بل كان الهجوم عليهم من أجل مصر.

أخائن أنا أيها الجيل القادم، والرئيس الآتى عندما أتمرد على كل هذا...؟؟

أخائن أنا عندما أقرر أن أكثر ماهو جدير بالاحترام فى أمتنا العربية فى هذا الجيل أنها حاصرت نظام الحكم في مصر بعد كامب ديفيد.. لم يكن حصاراً لمصر وإنما دفاعاً عن مصر الحقيقية الأصيلة.. وربما يكون هذا الموقف هو البذرة التى ستنمو بعد ذلك فى جيلكم.

إننى لا أبرئ العالم العربى من تصرفات ارتكبها ضد مصر وضد المنطق كانت أشد إيلاماً من كى الرصاص المنصهر.. وكانت هى الأخرى سرطاناً يسرى فى دمائنا.. لكن يبقى هذا الموقف فقط ضد كامب ديفيد والمبادرة الحلقة الوحيدة التى تربطنا بماضينا بمستقبلنا[1].

أخائن أنا عندما أقرر أن ارتباطنا بأمريكا هو ارتباط الفريسة بالصياد والضحية بالجلاد. وأننا بهذا الارتباط نلغى عقولنا متجاهلين أن مايحدث الآن هو استمرار للحروب الصليبية وأنه كما قال غوردون فى دمشق «ها قد عدنا ياصلاح الدين». فقد قالها نيكسون فى مصر «ها قد عدنا يا جمال عبد الناصر».

أخائن أنا عندما أقرر أن مصر عربية وأن فلسطين عربية.

أمجنون أنا أيها الجيل الآتى.. عندما أقرر أنا المواطن البسيط بلا حول ولا

---

(١) كان الانهيار بشعا، والألم فادحا، ماذا نقول الأن بعد حرب الخليج، وبنى يعرب بعد تدمير أنفسهم يلهثون خلف كامب ديفيد. أى ألم، وهل هو زمن الفرص الضائعة أم زمن العقل الضائع.

قوة إلا ما أستمده من عبرة آلاف السنين الماضية ومن أمل آلاف السنين الآتية.. عندما أقرر بعيداً جداً عن رؤسائنا وملوكنا شروط الحل مع اسرائيل: شرط واحد فقط .. هو أن ترحل.

ألست من إخوانك يا رسول الله يا محمد ﴿ﷺ﴾..

ألم آت بعدك.. لم أرك وآمنت ب‍الله وبك..

لماذا لا أقول لإسرائيل إذن قولتك للمشركين وأنت مستضعف فى الأرض إذ يقابلونك فى المسجد الحرام ساخرين وقائلين بماذا جئتنا اليوم يا محمد.. فتكون إجابتك الصاعقة التى تهتز لها السماء والأرض وينفذها الله.. جئتكم بالذبح.

أجل، أنا المواطن المقهور فى حاضرى أملى شروط المستقبل.. ولعلى أكشف لأعدائنا ما لن تستطيع أبداً عقولهم الالكترونية كشفه.. أنهم يستطيعون استقطاب بعض أبناء الوطن. وأنه سيوجد دائماً من هو مستعد لأن يبيع وأن يخون.. لكن ضمير هذه الأمة سيظل راسخاً كما هو.. وأنهم سيستطيعون طمسه أحياناً بقوة القهر لكنه سوف يظل كالجنين فى الأرحام ينتظر الفرصة الملائمة كى يولد.. إن لم تصدقونى فانظروا إلى جبل المقطم وإلى مأذن الحسين وإلى أمثال فتحى رضوان فإن انهاروا فسوف تنالون مآربكم.

أكشف لأعدائنا سراً آخر عن عبقرية أمتنا عبر التاريخ.. أنها لاتعطى حكامها شرعيتهم إلا بقدر ما يمثل هؤلاء الحكام بصدق ضميرها.. وأنها قد تغفر لحكامها كثيراً من الزرايالكنهم عندما يخونون الأمانة ويحاولون عكس عجلة التاريخ فإنها تقوم بعمل بسيط جداً لكنه عبقرى.. إنها تسحب منهم هويتها.. فلا يعودون من أبنائها، بل إنها تضمهم إلى أعدائها.. ولقد تمثل ذلك الفكر العبقرى فى بداية هذا القرن فى كلمة سعد زغلول أن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس.. فليفاوضه.. وليفاوض نيكسون نيكسون، وفورد فورد، وكارتر كارتر، وريجان ريجان، وكيسنجر كيسنجر، وبيجين بيجين.. لكننى أنا المواطن العادى لم أفاوض أحداً. لم أتفق على شئ ولا أعترف بشئ سوى مايمليه على منطقى وضميرى ودينى وتاريخى.

ذات يوم هتف ديجول وهو منفى عن وطنه المحتل «أنا فرنسا».. كان وحده.. وهأنذا الآن وحدى.. أهتف مثله «أنا مصر».

إلا أن أملى فى المستقبل لايمنعنى من محاولة فهم أسباب انهيارنا فى الحاضر.. ولعل حديثى عن مصر يمثل بصورة أو بأخرى مايحدث فى باقى الدول

العربية والإسلامية.

يشكل الحزب الحاكم في مصر سلطة احتلال كالاحتلال الأجنبى. ولأن ثمة تعارضاً منطقياً بين مصلحة الاحتلال ومصلحة الوطن فإن هذا الحزب لايكتفى بتخريب البلاد اقتصادياً لنهب ثرواتها، وإنما يلجأ أيضاً لتدمير روحها المعنوية وأخلاقها وآمالها كى يضمن لنفسه الاستقرار فى الحكم. وهو استقرار لايستتب إلا بقهر الوطن والمواطنين وتزوير إرادتهم ومحاربة الشرفاء وتقريب المنافقين. ولعل أى باحث يلتقط هذه النقطة ليعقد مقارنة بين ما كان يفعله الاحتلال الإنجليزى والحزب الحاكم. أن يقارن طرق وأسباب تغيير الوزارات وتعيين الوزراء ووكلاء الوزراء وترقية الموظفين ونقلهم ورسم سياسة البلاد وتخطيط اقتصادها. إلا أن هذا الأسلوب الذى فشل فيه الاستعمار قد فشل فيه الحزب الحاكم أيضاً. كان المواطن البسيط يواجه ذلك بمعادلة عبقرية: أنت قوى جداً وأنا ضعيف جداً، فافعل ما شئت الآن. لكننى غداً سأنتقم. ولقد تجلى ذلك ضمن ماتجلى فى تلك الروح الساخرة المفعمة بالمرارة التى واجه الشعب بها مغتصبيه فى نكت ساخرة مرة تعبر عن رأيه فى حكامه.. وعندما توغل الفساد واستشرى كان الشعب يعلن رأيه بصراحة مذهلة فى بساطتها، كما حدث فى صفقة الأتوبيسات الفاسدة التى فاحت منها روائح تورط كبار المسئولين فتجاهل الشعب نوع السيارات الحقيقى (وارد) وأطلق عليها اسم كارتر كاشفاً لمغتصبيه أنه يعرف مكامن الفساد وجذوره.

إلا أننى ـ إحقاقاً للحق ـ أقرر أن بالحزب الحاكم بعض الشرفاء.. وهؤلاء ينقسمون قسمين.. قسم لايدرك اللعبة الحقيقية بأن حزبهم حزب احتلال ترتبط مصالحه بقوى الاستعمار الخارجى.. وهؤلاء قد يظلون في خديعتهم طويلاً لكنهم عندما يدركون الحقيقة يتخذون الموقف الذى يمليه عليهم ضميرهم وشرفهم ووطنيتهم.. وعلى رأس هؤلاء يتربع الوطنى العظيم محمد إبراهيم كامل والذى يمثل كتابه العظيم السلام الضائع فى كامب ديفيد صرخة دامية سيحفظها له التاريخ أبد الدهر[1].

---

(١) لم أذكر اسماعيل فهمى رغم موقفه العظيم بالاستقالة عشية زيارة القدس لأنه كان ـ برغم مذكراته ـ منظر السياسة التى أدت للكارثة . ولقد كانت مذاكراته حيثيات دفاع عن نفسه.. ولم تقنعنا.

أما القسم الثانى فهو أكثر مأساوية.. لأنه يدرك أبعاد اللعبة جيداً.. لكنه يدخل فيها كى يقلل من حدة الانهيار وسرعته انتظاراً ليوم تستعيد فيه الأمة كيانها.. وأظننى أضع على رأس هذا النوع الدكتور أسامة الباز.

وازاء تطرف الحزب الحاكم المحتل نشأ تطرف دينى هاله الواقع فاندفع إلى أقصى الاتجاه الآخر، وبرغم أننى أكنُّ فى أعماقى احتراماً عميقاً لهذا التيار الذى سما أفراده عن أنفسهم وتجاوزوا ذاتهم وحملوا أرواحهم على أيديهم شهداء دين وفكر فى سبيل الأمة. إلا أن تطرفهم وضحالة علمهم الدينى تجعلهم كالخوارج فى صدر الإسلام. وأنا بهذا لا أدينهم.. بل لعلى أستعير تعبير الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ فى وصف الخوارج بأن أصفهم بأنهم قوم طلبوا الحق فأخطأوه.. واستعير وصفه لقوم معاوية فى وصف الحزب الحاكم بأنهم قوم طلبوا الباطل فأصابوه.

وأنا هنا أستعمل التطرف بمفهوم الأمة لا بمفهوم الحزب الحاكم الذى يتهم كل من يواجه ممارساته الخاطئة بالتطرف. ولكى أكون أكثر تحديداً وصراحة فإننى لا أعتبر الضحية الذى اتهم جلاده فى السجن بالكفر متطرفاً. فبرغم المحاذير الهائلة التى يضعها الدين ازاء تكفير أى شخص فإننى لا أستسيغ أن تكون الحيوانات البشرية من ضباط وجنود ممن مارسوا التعذيب مؤمنين.. والافقسروا لى معنى حديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه».. على أن الإدانة هنا لاتقتصر على الجلادين فقد، بل تتعداها إلى مؤسساتنا الدينية الرسمية والتى غالت فى نفاق السلطان مغالاة سحبت عنهم غطاءهم الدينى فلم يعودوا سوى موظفين كبار فى بلاط الحاشية.. فإن تلك المؤسسات التى حرمت الصلح مع اسرائيل هى نفس المؤسسات التى قارنت المادرة الفاجرة بصلح الحديبية..!! وتلك المؤسسات التى أدانت أفراد الجماعات الدينية واتهمتهم بالخروج على الإسلام لم ترفع صوتاً ضد جلاديهم الذين مزقوا فى السجن كتاب الله وداسوه بأقدامهم.. ألا لعنة الله على الظالمين.. وتلك المؤسسات التى اهتمت بما يفطر الصائم كالطين والأرمنى لم تهتم بأن تفتى الناس فى التعذيب والتزوير وبيع الأمة.. فصدق الإمام الخمينى حين قال: لسنا فقهاء الفساء والظراط والحيض والنفاس وإنما نحن فقهاء الجهاد فى سبيل الله.. وصدق حين قال أن التاريخ لا يصنعه الأبطال بل الشهداء.

أجل.. تحولت المؤسسات الدينية الرسمية إلى وظيفة (المحلل) التى تبرر للسلطة جرائمها حتى وجدنا شيخاً كبيراً يفتى أن الشورى غير

ملزمة للحاكم[٢].

لذلك لم يكن غريباً أن ينصرف الشعب عن هذه المؤسسات ويتجاهلها..

يبقى فى الساحة السياسية اليمين واليسار والاخوان المسلمون.

وبالنسبة لليمين فلا توجد أى وسيلة لتعريفه.

ليتـه كان يميناً كاليمين فى العالـم الغربى فذلك صاحب فلسفة وفكر وقد لا نوافقـه ولكننا نحترمه.. لكنـه فى مصـر يمثل شذاذ آفاق ولصوصاً لـم يجدوا حتى مكاناً فى الحزب الحاكم .. وهم يدّعون المطالبة بحرية الاقتصاد بينما يقصـدون حرية السرقة واستنزاف الوطن.. ولقد تنكّر الكثيرون من أصحـاب الفكر الليبيرالـى لهذا اليمين الجيديد العفن.. وإن مصطفى أمين الذى سجـن فى الستينيـات بتهمـة ميولـه الأمريكية يكاد يكون شيوعياً بالنسبة لهذا اليمين الذى يمثله بعض من تولوا مؤسسة الأخبار وأخبار اليوم بعده!!

أما حزب الوفد الجديد فهو يمثل اتجاها ليبرالياً جديراً ببعض الاحترام الموروث من احترامنا لحزب الوفد الحقيقى إلا أنه وقع فى أخطاء فادحة نحّته عن قلب الأمة الذى احتله الوفد القديم لأنه مثل آمالها القومية والإسلامية مع أصدقائها وضد أعدائها.. ولم يواجه حزب الوفد الجديد أعداء الحاضر والمستقبل وإنما واجه جمال عبد الناصر بأسلوب لم يحطمه وإنما حطم الوفد الجديد نفسه والذى لم يفهم أنه رغم اختلاف الوجوه فقد كان جمال الدين الأفغانى هو أحمد عرابى هو مصطفى كامل هو محمد فريد هو سعد زغلول وهو مصطفى النحاس هو جمال عبد الناصر.. كل أولئك كانوا وجوهاً مختلفة لشخص واحد مثل آمال الأمة وأحلامها.. بل لقد وصل الأمر برئيس تحرير الوفد أن طعن قلب الأمة ووجدانها وتاريخها حين قال أن خطر إسرائيل مجرد لعبة صغيرة ازاء خطر الخمينى.. وحين قال أنه لو كان فلسطينيا لوافق فوراً على التفاوض مع اسرائيل ولرفض مجرد مصافحة نظام الحكم في سوريا.. فأين أنت ياسعد زغلول.. ويا مصطفى النحاس.. كى توجها الدفة التى انحرفت[٣]..

---

(٢) حتى ولو كانت الفتوى حقاً فالمراد به باطل. وإن التفويض الذى يمكن أن تمنحه الأمة للخلفاء الراشدين لا يمكن أن تمنحه ليزيد.

(٣) لم يطعن أحد فى إسلام الشاه (الشيعى) ولا فى إيمانه كفروا الإمام الخمينى، وكان واضحاً أن الإيمان الذى يقصدونه هو الإيمان بالههم فى أمريكا وليس الإيمان بالله الواحد القهار.

ويتشكل اليسار المصرى عموماً من حزب العمل والناصريين وحزب التجمع. ولعل حزب العمل هو أقرب الأحزاب إلى ضمير الأمة.. فهو يعتمد على قيادة عظيمة وصحيفة ناضجة وقوة شعبية.. إلا أن هذه القوة لا تستطيع مواجهة قهو الحكم المدجج بالسلاح وتدعيم أمريكا وإسرائيل.

أما الناصريون فبرغم احترامى لهم إلا أننى لا أجد خيراً من تعبير محمد حسنين هيكل أنه يوجد ناصريون لكن لاتوجد ناصرية وهم على العموم ينطبق على بعضهم ماينطبق على حزب العمل وعلى بعضهم الآخر ما ينطبق على حزب التجمع مع وجود عدد قليل منهم فى قسم الشرفاء فى الحزب الحاكم.

يبقى حزب التجمع والذى مثل بصدق روح الوطنية المصرية منذ عام ٧٧ وحتى الآن.. ولقد كان شديد الصراحة والوضوح والحدة فى مواقفه الوطنية حتى أننى أشعر بصعوبة فى إيضاح مثالبه وربما يكون على رأسها بالنسبة لى موقفه من خالد الإسلامبولى، عندما طالب السلطة فى تملق مرفوض أن تقارن بين اليسار الذى يحارب بالفكر والاتجاه الدينى الذى يحارب بالرصاص. ولقد كان عجزه عن فهم قيمة خالد الإسلامبولى استمراراً لعجز اليسار عن فهم أبعاد الخطر الصهيونى فى الأربعينيات ثم استمراراً لعجزه عن فهم الأبعاد الحقيقية لثورة ٢٣ يوليو فى الخمسينيات ثم انخداع بعض قياداته وتعاونها مع أنور السادات فى بداية السبعينيات. ولعلى أعبر عن شعور الأمة الحقيقى عندما أقرر أن خالد الإسلامبولى هو حسين هذا القرن الذى أهلكه يزيد.

إلا أنه فى مقابل الإعجاب بمواقف حزب التجمع العملية توجد كثير من الملاحظات على فكره النظرى(١).

ولعلى أقرر من البداية أن من يتهمون حزب التجمع بالكفر هم نفس الفجار والمجرمين واللصوص الذين يتهمون أعضاء الجماعات الدينية بالكفر كما يتهمون به الإمام الخمينى وكل خارج عن نطاق الطاغوت.

تتمثل قيادة حزب التجمع فى صفوة من أعمق مثقفى مصر وأحرصهم عليها. إلا أنهم يبدون عجزاً فادحاً فى التواصل مع قواعد حزبهم الذين أخذوا من القيادة الشكل دون المضمون والشعارات دون الثقافة فأصبحوا يمثلون فى

---

(١) فى الأعوام الأخيرة، ثمة اتجاه غير مريح لحزب التجمع.. وأرجوا ألا يكون قد فقد - كما حدث له من قبل - بوصلة اتجاه ضمير المجتمع وقلبه.

الغالب اتجاهاً رومانسياً ساذجاً لم يخل فى كثير من الأحيان من الانتهازيين والأفاقين.. وثمة عذر لهم فى ذلك الهجوم المكثف والرهيب من المخابرات الأمريكية التى تردد أقوالها وسائل الدعاية فى كل مكان مقابل حصارهم إعلامياً إلا أن هذا السبب برغم أهميته ليس هو السبب الجوهرى. السبب الجوهرى فى عجز هذا الحزب عن التواصل مع الجماهير يكمن فى عجزه عن تلمس نبضها الحقيقى وآمالها وأحزانها وأفراحها. ويكمن فى عجزه أن يدرك أن أى محاولة للإصلاح فى مصر والوطن العربى لايمكن أن تنجح إلا على قاعدة واحدة من الدين والقومية.. ولن تنقذنا فلسفة من الخارج أو حتى من الداخل إلا على هذه الركيزة. ولعل معظمهم معى فى أن الدين الإسلامى الحقيقى لا دين يزيد ـ يكفل من العدالة والمساواة صوراً أبهى بما لايقاس ولا يقارن بأى فلسفة أرضية أخرى.

وثمة خلل جسيم فى الفكر الماركسى ـ الذى لا أنكر نبله ـ أنه يتجاهل طبائع الإنسان وغرائزه. كان العالم الروسى «بافلوف» يعلّم الكلاب كراهية أكل اللحم بأن يعرضها لصدمات كهربائية كلما أكلته. لكن هل كان ابن هذا الكلب يكره اللحم مثل أبيه.. وإن الطفل يولد لديه غريزة حب التملك والأنانية والغيرة والكراهية والحب والخوف.. ولن تستطيع أى فلسفة دنيوية مهما كان قدرها أن تغير هذه الطبيعة.. فليخلقوا أولاً انساناً لايحب ولا يكره ولا يغار ولا يختال كى يستطيعوا تطبيق نظريتهم.. ثم ان هناك نقطة أخرى هامة.. إن الفكر الماركسى ينبنى على تضحية الفرد فى سبيل المجموع.. لكن ماهو الدافع لتلك التضحية.. أهو النبل الإنسانى فقط؟(*).

أليسوا يحملون الإنسان الفرد بهذا نبلاً لايحتمله.. بل لايمكن أن يحتمله دون أن يكون هناك شئ آخر أقوى حتى من كل غرائز البشر وصفاتهم.. وهذا لايمكن أن يكون فى النهاية سوى الله.. فإذا اعترفنا بهذا لماذا لا نختصر الطريق لتطبيق شرع الله مباشرة؟

وربما تغيب عن اليسار نقطة جوهرية مدفونة فى أعماقنا لأنها مستنزفة

(*) نبوءة مبكرة بانهيار الماركسية فقد كتب قبل البرويسترويكا والانهيار العظيم لدول المعسكر الشرقى. لكنهم يخطئون مرة أخرى حين يعزون سبب انهيارهم للاقتصاد والديموقراطية، فالسبب الرئيسى ليس سوى الروح التى أهملوا توقها وشوقها إلى إله وآخرة.

وضعيفة لما نالها من جراح الزمان.. وهى أننا خير أمة أخرجت للناس.. هذا هو حكم الله فينا.. ولن نسكت حتى نبلغه أو نهلك دونه.

ولعلى أوافق اليسار فى كثير جداً مما ينادى به.

ولعلى أوافقه أيضاً فى امتنانه لمواقف الاتحاد السوفيتى مع العرب.. لكنهم يتجاهلون ـ وربما يجهلون أن مايجمعنا مع السوفييت الآن هو عدو مشترك.. لكن المستقبل سيفرقنا حتماً.. وليتخيل أى يسارى ماذا سيحدث بعد مائة عام أو حتى ألف عام، عندما نتبوأ المكانة التى كتبها الله لنا.. ربما لا يكون الصدام معه فى شراسة الصدام مع أعدائنا الآن ـ بسبب نبل إنسانى لا أنكره فيه ـ لكنه أيضاً صدام آت لا ريب فيه.

وإننى فى هذا أتحدث عن اليسار المصرى الذى أثق أنه فى عمومه مؤمن. أما القلة القليلة التى لا تؤمن ـ وهى على أى حال أقل بكثير جداً من كفار وفجار اليمين ـ فإن هذه الأرض ليست أرضهم وهم لا يمثلون قلب الأمة فى شىء.

وربما يكون مناسباً هنا أن أذكر رأياً لفهمى هويدى وهو من أعظم الكتاب الإسلاميين فى عصرنا فى كتابه القرآن والسلطان: «إن المؤمنين بالله وكتبه من أهل اليسار هم أقرب للفهم الصحيح للإسلام من كثيرين غيرهم من حيث وعيهم المفترض بقضية العدل الإجتماعى».

وربما كان كتاب صلاح عيسى «مثقفون وعسكر» الكتاب الوحيد الذى ينافس كتاب محمد حسنين هيكل «ملفات السويس» فى عظمته وشموله أفضل الكتب التى تنتقد مراهقة اليسار المصرى وتناقضه.

أما الإخوان المسلمون فهم يمثلون ظاهرة نبيلة فى المجتمع المصرى إلا أنها أقل نبلاً بكثير مما يظنون فى أنفسهم، ولقد تعرضوا كاليسار لحملة تشويه ظالمة كانت أبواق السلطة موجهة ضدهم دون أين يباح لهم حق الرد. إلا أن تأثير التعذيب البشع الذى تعرضوا له كان أبعد أثراً على شخصيات بعضهم مما كان على اليسار الذى تعرض لتعذيب مماثل.. وبرغم نبل حركة الاخوان المسلمين إلا أن الحجم الذى يعطونه لأنفسهم أكبر بكثير من حجمهم الحقيقى في الأمة.. وأنهم يمثلون رافداً أساسياً من روافد التيار الدينى، لكنهم ليسوا النهر الأساسى وليسوا منابع أمواجه. ولعل أكبر أخطائهم أنهم يجهلون هذه الحقيقة التى عبرت عن نفسها على أرض الواقع فلم يمثلوا قبل الثورة قط تهديداً حقيقياً لشعبية حزب الوفد. وبعيداً عن قهر عبد الناصر أيضاً فلم يحققوا فى السودان فى أعظم

انتخابات ديمقراطية فى العالم العربى والإسلامى أى ثقل سياسى، بل إن موقفهم المأساوى فى مساندة نميرى الخائن للدين والوطن مقابل مجرد التظاهر بحكم إسلامى يلقى ظلالاً ثقيلة على أسوأ تطبيق لأنبل أصول. لقد أيدوا نميرى وضياء الحق واتهموا بالكفر جمال عبد الناصر وحافظ الأسد اللذين وقفا بجانب الإسلام ضد الهجمة الصليبية الشرسة عليه(*).

ولم يقتصر الأمر على هذا.. بل إن كاتباً عظيماً مثل أحمد بهاء الدين عبَّر عن اتجاههم بأنه «الرمز الغامض» فإن الاخوان المسلمين الذين وقفوا ببطولة ضد الانحراف عن الدين لم يحددوا تماماً مايريدونه.. ولقد نادوا دائماً بأن الإسلام هو الحل..ولم تكن المشكلة عبر التاريخ فى الإسلام ولكن فى المسلمين كما أنهم تجاهلوا باستمرار نقطتين أساسيتين بدأ انهيار المسلمين منهما.. عندما شق معاوية (الذى وصفه الرسول ﴿ﷺ﴾ بالصعلوك) قلب الإسلام بأن أهدر فيه عنصر شرعية الحاكم ودورة المال بين المسلمين.. ولقد ركَّز الاخوان المسلمون على أشياء كثيرة لكنهم لم يولوا هاتين النقطتين أهميتهما، ومن الصعب علّى وعلى الأمة أن تقتنع أن هذا كان عفواً.. كما كان من الصعب علينا أيضاً أن نتقبل انعدام أوجه التصادم بينهم وبين التوجهات الأمريكية.. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فمسلمو أفغانستان مجاهدون شهداء، بينما مسلمو فلسطين ولبنان وسوريا دروز وكفرة.. وجمال عبد الناصر ملحد، بينما السادات مؤمن.. وتأميم الأموال حرام، لكن سرقتها والنصب والاحتيال بها أمر آخر.. والإسراف فى الغنى حتى الفجور أمر لايليق بالمسلم التدخل فيه حتى لايأكل لحم أخيه ميتاً.. لكن الفقر والجوع وسكنى المقابر أمور لم يفتنا فيها السلف الصالح(٤).

وبعد ذلك ينادون بالإسلام.. وللإسلام نستجيب.. لكن أى إسلام يدعوننا إليه؟

إسلام على أم إسلام معاوية؟

إسلام الحسين أم إسلام يزيد؟

---

(٤) اننى هنا لا أتحدث عن النظرية وإنما عن التطبيق، عن العمل وليس عن الفكر، عن الأفراد لا القادة، لكنهم بصورة ما مسئولون عن التطبيق والعمل والأفراد. وربما كان الاخوان محتاجين إلى تنقية أنفسهم من المحسوبين عليهم الذين يسيئون إلى نبل الفكرة، ولعل الشيخ محمد الغزالى يمثل نموذجا هائلا فى تنقية الفكرة مما علق بها، ولعل عادل حسين يمثل برغم أمل فى اعتبار الجهاد والعدالة الاجتماعية من أركان الدعوة الأساسية

كما أن هناك ظلالاً ثقيلة حول تحالفاتهم السياسية.. فلقد تحالفوا مع الملك الفاجر ضد حزب الأغلبية ومع غيرى ضد الوطن.. وكانت لديهم حساسية مرضية ضد العدل الاجتماعى مما جعل بعضهم يبدو أحياناً مجرد يمين يستعير من الإسلام عباءته كى يخفى حقيقة نواياه.. كذلك قد دفعهم الضغط الرهيب إلى مجافاة الحقيقة أحياناً، كما حدث فى محاولاتهم الساذجة إثبات أن محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى المنشية كانت مجرد تمثيلية.. وبالنسبة لى ليست محاولة اغتيال عبد الناصر اتهاماً مشيناً لهم، بل ربما كان دليل بطولة واستعداد للاستشهاد فى سبيل المبدأ.. لكن المشين فعلاً أن يكذب البعض منهم.

كل هذه الظلال الثقيلة تجعلنا نعيد التساؤل..

إسلام أجل..

لكن إسلام على أم إسلام معاوية؟

إسلام الحسين أم إسلام يزيد؟

وعندما تواجههم بعض فئات الأمة المسلمة بهذه التساؤلات يعتبرون مواجهتهم مواجهة الإسلام أو أن رفضهم رفضاً للإسلام، وليس الأمر بالطبيعة كذلك.. إنما هو مواجهة لتفسيرهم للإسلام ولمدى صدق تمثيلهم له وهم بهذا يقتربون إلى حد كبير من الحاكم الطاغية الذى يعتبر الهجوم على طغيانه هجوماً على الوطن.. والتصدى لجبروته إهانة للوطن.

ثم إنهم يلجأون أحيانا إلى تفسيرات مضحكة للتاريخ، لكن الأثر هنا لايقتصر على الإضحاك بل يتجاوزه إلى تجهيل وتغييب للعقل مما يفقد الجميع القدرة على الاستفادة والاستنباط للتقدم. وذات يوم فسروا سبب زلزال حدث فى روسيا بأنه غضب من الله عليهم فلما استشهد آلاف الحجيج فى نفق المعيصم سكتوا. ومثل ذلك تفسيرهم لتاريخ الدولة الأموية والعباسية والعثمانية، وحزنهم الفاجع على انتهاء عصر مايسمونه بالحكومة الدينية أو الخلافة. ولم يكن مايدعو إليه بعضهم حكومة دينية بل حكومة شيطانية ـ كما سماها المودودى ـ تتستر خلف الله لتملى إرادتها هى، يشرعون للناس قانونا من عند أنفسهم حسب ماشاءت أهواؤهم وأغراضهم ويسلطون ألوهيتهم على عامة أهل البلاد متسترين وراء القانون الإلهى[1].

(١) القرآن والسلطان.

وذات يوم كنت أحاور أحدهم فى قوله أن الانهيار لم يبدأ إلا منذ انتهاء الدولة العثمانية، وأن كمال أتاتورك ـ ومثله جمال عبد الناصر ـ ليسا إلا شيطانين مريدين طعنا الإسلام والمسلمين. وأن كتب التاريخ كلها كاذبة. وأن ما ينشر عن مظالم ومذابح ومفاسد فى عصور هؤلاء الخلفاء كلها نسج خيال أعداء الإسلام. ووجدتنى أقول له: هل تظن حقا أنهم كانوا خلفاء؟ ونظر إلى بذهول كما لو كنت أجاهر لا بمعصية وإنما بكفر. فواصلت بمرارة أنت سميتهم كذلك ولكن الرسول ﴿ﷺ﴾ لم يسمهم كذلك حيث يقول الحديث النبوى الشريف بالنص:

«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاجبرية ماشاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة».

ونظر إلى رفيقى بذهول وهو يتمتم:

ـ إننى أعرف هذا الحديث لكنى كأنما أسمعه لأول مرة، كيف إذن فكرنا بهذه الصورة ولم اعتبرنا عصورهم هى العصور الزاهية للإسلام ولم تكن إذن كذلك.

وأطرق الرجل فى حزن ذاهل وهو يرى إحدى أهم أسس فكرة تتهاوى أمام عينيه، مدركا أنه عاش وهما.

وانصرفت عن صاحبى مرددا قول فهمى هويدى «إن إساءات الآخرين تظل محسوبة عليهم فى نهاية الأمر، ولكن إساءات هؤلاء وحماقاتهم يحملها البعض على الإسلام، وهنا الخطر الجسيم».

على أن التقييم الموضوعى للإخوان المسلمين وما تفرع منهم قد يعطى لهم دوراً بنسبتهم العددية (أو حتى أضعاف أضعافها) مقارنة بعدد المسلمين فى العالم، لكنه لا يعطيهم أبداً الدور كله.. لكن هذا كله لا ينفى أن منهم شهداء وأبطالاً يمثلون بعضاً من أنبل ظواهر المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث..

ولعله يكون واضحاً أن نقدى (أو تشريحى) للخريطة السياسية فى مصر هو نقد من الداخل لا من الخارج وهو نقد لا يتصيد النقائص، بل يحاول أن يبحث فى مأساوية دامية عن إنصراف غالبية الشعب عن كل هؤلاء.. وهل يقبع خلف ذلك إحساس حزين أنه كالغريق الذى أيقن بالموت مدركاً أن مجرد النوايا الطيبة والكلمات لن تنقذه.. وعلى أية حال فإنه بانصرافه ذلك يحول كل هذه الاتجاهات

إلى مجالس للثرثرة أو الصراخ ثم الصراع حول توافه..

كخريطة مصر، حيث يمثل الوادى ٤٪ من مساحتها تعج بالحياة و٩٦٪ صحارى وجبالاً تغرق فى صمت تحمل فى طياتها أمل المستقبل الوحيد.. وكخريطة الجغرافيا تبدو خريطة المجتمع.

كل هذه الفئات والأحزاب التى تحدثت عنها تمثل كتلة الأقلية ازاء كتلة الأغلبية الصامتة حيث يكاد بيت الشاعر يبوح بمكنون الصمت حين يقول:

وكل يدعى وصلاً بليلى وليلى لاتقر لهم بذاكا

ولا أريد أن أغرق فى بحور الوهم فأعطى هذه الأغلبية الصامتة صفات الكمال، ولا أن أنفى عنها صفات العجز والنقائص.. إلا أننى أجد المبرر الكافى لأمراض هذه الأغلبية فيما عانته من قهر حكامها.. وعبر التاريخ فإننى أظن هذه الأغلبية تمتد جذورها إلى المستضعفين فى الأرض الذين آمنوا فى البداية بمحمد ﴿ﷺ﴾ ووقفت بقلوبها الحزينة وقوتها العاجزة مع على ضد معاوية ومع الحسين ضد يزيد.. ليس قصراً للخلافة على آل البيت وإنما لأنها رأت بفطرتها السليمة أن الخلافة للأتقى.. وقد علم التاريخ هذه الأغلبية الصامتة أن تصبر حتى يهلك الزمن طغاتها.. لذلك لم يكن غريباً أن تصمت طالما هى مستضعفة فى الأرض لكنها لم تكن سلبية أبداً عندما كان يجود عليها القدر بزعيم تتوحد آمالها فى شخصه وما مراجعة التاريخ الدامى للدولة الأموية إلا دليلاً على ذلك.. ولم يكن هذا الشعب سلبياً أيضاً مع صلاح الدين الأيوبى ولا مع سيف الدين قطز ولا مع أحمد عرابى.. الذى وقفت الأمة كلها معه حتى تجاوز عدد الزعماء الذين اعتقلوا بعد هزيمة التل الكبير خمسة عشر ألفاً.. ولم يكن الشعب سلبياً حين أخفى عبد الله النديم عن السلطة الغاشمة عشرة أعوام كذلك لم يكن الشعب سلبياً مع سعد زغلول ولا مصطفى النحاس.. ولم يكن الشعب سلبياً فى عدوان ٥٦ حين خاض الحرب بنفسه.. ولم يكن الشعب سلبياً حين خرج عن بكرة أبيه ينعى جمال عبد الناصر غافراً له سلبياته مدركاً أنه ابنه الغالى الذى واجه العالم به ومن أجله، وفى خلال ذلك أصاب وأخطأ.. ولم يكن الشعب سلبياً فى الانتفاضة الشعبية فى ١٩٧٧.. كما لم يكن سلبياً حين لم يخرج منه أحد فى جنازة أنور السادات.

بل إن هذا الشعب يملك طريقته العبقرية فى محاصرة حكامه الذين يحاولون قهره.. وهو كشعب تمتد حضارته إلى ما قبل التاريخ يملك أسلوبه الخاص فى التمرد.. وهو فى العصر الحديث يمارس نوعاً من الإضراب بالتباطؤ عن العمل وعدم الإنتاج فيضمن بذلك ألا يسرق اللصوص هذا الإنتاج، ومن ناحية أخرى يوقع البلاد فى أزمات اقتصاد طاحنة تطيح باللصوص والجلادين..

ولم يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للشعب بين حكم المندوب السامى الإنجليزى أو الأمريكى أو الإسرائيلى أو المصرى.. فعاملهم جميعاً بنفس البغض والاحتقار والسلبية.

وتجاسر المجرمون ـ ومنهم رؤساء تحرير صحف عينهم المندوب السامى ـ فزعموا أن شعب مصر هو الشعب الوحيد الذى غزته كل دول العالم.. وتجاهل المجرمون أنه الشعب الوحيد الذى قهرهم جميعاً.

بل إن من يطالع التاريخ ليذهل.. ليس لسلبية هذا الشعب وإنما لمعجزة أنه استمر نابضاً بالحياة والتأثير رغم ما مر به من كوارث وجلادين وخونة. لم يكن الشعب سلبياً حين اقتنع بعظمة قائد وعدالة قضية. بدأت حرب أحمد عرابى مع الإنجليز وخزانة الجيش خالية وتعداده عشرة آلاف وانتهت وتعداد الجيش مائة ألف وخزانته عامرة رغم أن ميزانية الدولة لم تدفع فى هذه الحرب مليماً واحداً. ولم يكن سلبياً مع سعد زغلول ومصطفى النحاس.. لم يكن سلبياً عند تأميم القناة ولم يكن سلبياً بعد هزيمة يونيو عندما أخذ العدو الإسرائيلى يقصف المدنيين ليستشهد عشرات الألوف على أمل انهيار الروح المعنوية للشعب لكنه صمد..[٦].

لا يكون هذا الشعب سلبياً إلا حين يدرك ببصيرته النفاذة أن اللصوص والخونة يتحكمون فيه.. وأن كتابه كذابيه وأن حُماته سارقيه وأن من يصوغون

---

(٦) فى الكتاب المروع «جسر على قناة السويس» للكاتب الصحفى فتحى رزق يتحدث عن مذبحة الاسماعيلية فى ١٥ يوليو ٦٧.. حيث مات وجرح فى ليلة واحدة ألف رجل وطفل وامرأة، وكان الرجال يجمعون الأشلاء فى صمت قبل أن يأتى الصباح حتى لا يشاهد الأطفال والنساء اللحم المسحوق بأسفلت السوارع فتنهار معنوياتهم.. وحين أتى الصباح الدامى توافد الآلاف على مبنى المحافظة لمعرفة مصير ذويهم.. لا أحد يبكى.. العيون مملوءة بحزن جليل صامت صامد يشى برغبة هائلة فى الإنتقام.. ويقف فتحى رزق يرقب الموقف.. ثم ينهار باكياً.. أبكاه أن الناس لا يبكون.

وعيه يزيفون الحقائق.. لذلك لم يكن سلبياً مع زعيم يقتنع بإخلاصه.. ولقد كان جمال عبد الناصر دليلاً ساطعاً على قدرة هذا الشعب على أن يحقق أحلامه.. ولقد كانت أحلامه كلها مشروعة وإن لم تكن كل وسائله كذلك.. وأتى السادات لقلب كل شئ.. وليحاول اقناع هذا الشعب أن أحلامه كانت أوهاماً، وأنه ليس أمام هذا الشعب لكى يعيش سوى أن يبيع شرفه ومبادئه.. وتتداعى إلى الذاكرة كلمة الشهيد العظيم عبد المنعم رياض أنه لا يقصد بمثل هذا الشرف مجرد الشرف القومى، بل يقصد حرفياً شرف كل رجل وفتاة وامرأة.. لعل تلك كانت جذور المصطلح الذى انتشر بعد ذلك أن مايجرى فى مصر هو نوع من البغاء السياسى.. إلا أن ذلك كله عبر التاريخ لم يترك جسد الأمة سليماً. فقد تسلل العفن من أعلى إلى أدنى. ولم يعد للقيم المعنوية والمثل العليا فى سوق البغاء قيمة. ولم يعد هناك ذلك الفكر الجماعى المترابط الذى يوقف الحاكم الظالم عند حد وفقدت الأمة جزءاً كبيراً من روحها ومعنوياتها.. فانغلقت على نفسها فى عصر الانذباح.. ولعلنا فى تقييم موضوعى نواجه المأساة.. إن خريجى الجامعة يتدهور مستواهم كل يوم.. المستوى الخلقى والعلمى لمعظم فئات المجتمع يتدهور.. اسألوا طبيباً ذا ضمير عن رأيه فى الأطباء.. واسألوا مهندساً ذا ضمير عن رأيه فى المهندسين، واسألوا صحفياً ذا ضمير عن رأيه فى الصحفيين، واسألوا قاضياً ذا ضمير عن رأيه فى القضاة، وأسألوه بالتحديد عن رأيه فى نيابة أمن الدولة.. وأسألوا محافظاً ذا ضمير أو وزير ذا ضمير ـ إن وجدتم ـ عن رأيه فى الوزراء والمحافظين.. واسألوا عاملاً ذا ضمير عن رأيه فى العمال.. واسألوا فلاحاً عن رأيه فى الفلاحين..

وفى مثل هذا الجو الملوث تفجرت في المجتمع المصرى جرائم مروعة لم يشهدها من قبل كذلك الطالب الذى قتل أباه(٧)، وأمه وتلك الزوجة التى قتلت زوجها وابنها من أجل عشيقها. وبرغم أنها ظواهر فردية إلا أنها كانت ناقوس خطر.. إن أوصال المجتمع تتحلل منذرة بالانهيار.. كما مثلت ظاهرة اغتصاب النساء رعباً اجتماعياً لم يحدث فى مصر منذ قرون.

وحتى الطلبة. براعم المستقبل الطاهرة التى لم تلوثها الخيانة بعد لم ينجوا من محاولة السلطة لتلويثهم.. ولقد كان مأساوياً لى ذات مرة عندما حضرت

(٧) الأستاذ الدكتور محمد عزيز عبد الجواد أستاذى فى الأشعة.

مؤتمراً علمياً يضم بعض الأطباء كانت الطبيبة اليمنية الجنسية تتمتع بوعى سياسى هائل مقابل جهل مطبق للمصريين.. وعلل طبيب مصرى ذلك ساخراً بأنه إذا كان خطر التدخين محتملاً على المدى البعيد فإن خطر السياسة مؤكد وفورى.. وعللت طبيبة مصرية ذلك بأن العمل السياسى فى الجامعة كان يعنى الفصل.. ولقد أدخلوا فى روعهم أنه نوع من الفساد الخلقى لايليق بالودعاء الطيبين ممارسته..!!

وتركت الزملاء لأقف فى احدى شرفات القصر العينى. كان النيل يجرى فى صمت. لم تعد أيها النيل دموع ايزيس.. بل دموع مصر كلها.. خلف النيل كانت تبدو قبة جامعة القاهرة. لم تعد شامخة ولا مهيبة كما كانت.. ففى مكان ما بين النيل والجامعة تقبع سفارة اسرائيل بين كليات جامعة القاهرة برغم دواعى الأمن واستفزاز شعور الطلبة.. لكن الأمر كان أكثر اجراماً من ذلك. فقد كان المقصود أن يرى مئات الآلاف من الطلبة علم اسرائيل كل يوم وأن يتعودوا عليه. ومن مكانى لم أر تمثال نهضة مصر.. وتخيلت أنه انهار.. وانتصب مكانه تمثال لسعد ادريس حلاوة يهتف: اطردوا السفير الاسرائيلى ولتحى مصر عربية.

لكن كل ذلك لايعنى أن كل شئ ينهار. فإن جهود النخاسين والقوادين لم تلمس سوى القشرة الظاهرية لهذا الشعب الذى احتفظ بمعدنه الأصيل بعيداً عن دنس المدنسين وإن هذا المصرى نفسه إذا توافرت له الظروف الملائمة فى الخارج أو الداخل أثبت عبقريته ونبوغه.

فكرة «المخلص» فى تاريخ البشرية قديمة قدم الظلم فيه.. منذ وجد جلاد يحكم لم تجد البشرية المسحوقة سوى أمل بعيد فى مخلص يأتى ليفتك بالجلادين ويملأ الدنيا عدلاً ونوراً. ولعل الفكرة لاتقتصر على المهدى المنتظر. فإزاء الجلادين الحكام وجد الناس دائما حكاماً آخرين كإمام آخر الزمان الذى اختفى ليعود وكالأولياء الذين أضفى عليهم العامة قدرة مواجهة الحكام الجلادين وعقابهم وقدرة نصرة الحق وهزيمة الباطل. وإزاء الشوق الملهوف إلى العدل سرعان ما تسلم الجماهير مشاعرها إلى مخلص تظن أنه أملها.. لكن سرعان ما يجهض الأمل. فينتظر الناس مخلصاًجديداً لينهار أملهم من جديد. وأظن هذه الفكرة وجدت فى الإسلام منذ شق معاوية شرع الله وبدأ الحكام بعده يسوسون شعوبهم كعبيد. ووقف معظم الفقهاء مع السلطان ضد الحق.. من يومها بدأ الجرح الذى مايزال ينزف. ومن هناك يجب أن يبدأ الاصلاح. وسوف

تجدون حتى فى زماننا آلاف الفقهاء يدافعون عن معاوية وحتى عن يزيد لكنكم لن تجدوا سوى أقل القليل يطالب بما كان يطالب به الإمام على وسيد الشهداء الحسين.

أجل..

ماكان ينادى به الإمام على والإمام الحسين لأنه هو نفسه ما كان ينادى به الرسول ﴿ﷺ﴾.

وعلى جماهير المسلمين أن تعلم أن المخلص موجود. لكنه ليس موجوداً فى رحم التاريخ ولا فى غياهب المستقبل فتلك فكرة ربما يشجعها الجلادون أنفسهم لأنها تقدم للشعوب عزاء يغريها بالصبر. إنما يوجد المخلص داخل كل فرد منا.. يمتد عبر تاريخنا ومستقبلنا وتراثنا حتى ليشكل قوة هائلة هى المهدى المنتظر وهى مسيح آخر الزمان.

المخلص نحن. كل فرد فينا.. أن ينصر الحق ويهزم الباطل. أن يقول لاعندما تكون الكلمة دفاعاً عن الشرف والدين والعقيدة والانسان.. وأن لا يكتفى بقولها بل يفرضها. ساعتها سيموت الجلادون فى أماكنهم رعباً.

المخلص فينا.. عندما نتوقف عن ممارسة اللعبة كنخاس وعبيد..

المخلص فينا.. لكن كم قرنا من الزمان سيمضى قبل أن تستوعب شعوب المسلمين هذه الحقيقة وليس مهماً ساعتها أن تمتلئ الدنيا نوراً وعدلاً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً.. فليست العلاقة بين المسلم وخالقه علاقة تجارة. أنا أطيعك فاعطنى الثمن.. بل إن قدرنا أن نطيع الله لأنه أمرنا بذلك.. فالانتصار موقف وليس نتيجة. وليس مايحدث فى الدنيا نهاية المطاف فجنة الله واسعة ورضوانه أوسع.

❋ ❋ ❋

اذ لم تدلكم أقواله على ادانته.. فاقضوا ببراءته..!!

«من مرافعة النيابة»

موسى صبرى

مصطفى أمين

د.حمدى السيد

ترددت كثيراً فى اضافة هذا الفصل إلى الطبعة الثانية من الكتاب اذ أنه يتعلق بتفاصيل فى قضية التأمين الصحى، وقد كنت حريصا منذ البداية على ألا أدع نموذج الفساد فيها يتجاوز حدوده كمجرد مثل، ليس له أن يطغى على القضية الرئيسية؛ ألا وهى مأساة الوطن. بيد أنى راجعت نفسى مقرا أن قطرة ما ء تحمل داخلها كل خواص كل أمواه الدنيا. ولقد كانت قضية التأمين الصحى مصداقا على ذلك من متهم أول يمثل عهدا ـ كان صديقا مقربا للسادات ـ وصحفيين اتسقت رؤاهم في هذه القضية مع رؤاهم الكلية فى كافة أزمات الوطن، كان موقفهم فى نكبة ١٩٤٨ هو ذات موقفهم فى نكسة ١٩٦٧ ثم فى كارثة ١٩٩١، ثم ذات المواقف فى قضايا الوطن وقضايا أعداء الوطن، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كان موقف مصطفى أمين وموسى صبرى من هذه القضية ـ وبطلها الدكتور محمود جامع ـ اتساقا مع مواقفهم السابقة واللاحقة، ربما عدا استثناء وحيد مايزال يدهشنى. ولأنه مدهش فهو يستحق التسجيل والاشادة؛ ذلك أنه حدث فى انتخابات ١٩٩١ لمجلس الشعب كارثة خطيرة عندما زور أحد المستشارين نتائج الانتخابات، وقيل أنه ارتشى، ونجح الوزير السابق حمدى السيد فى كشف المأساة ووضع الحق، ورغم ذلك لم يكتب الصحفيان الكبيران ضد حمدى السيد، ولم يؤيدا القاضى المرتشى؛ لم يبترا عنق الحق كما لم يكسوا هامته بالباطل. وكل ذلك والله مدهش.

كان ذلك مبررى لاضافة هذا الفصل، حيث أورد فيه مقتطفات من مرافعة النيابة متجنبا قدر جهدى اطنابا يدفع لملالة أو ارقاما تدفع لسأمة:

سيدى الرئيس.... حضرات المستشارين....

الأن حصحص الحق. آية كريمة من كتاب كريم. وددتها امرأة العزيز حين صفعها الدليل المادى الدافع. فلم تجد له من دون الحق من دافع، فاعترفت بالحق واذعنت للعدل قائلة الآن حصحص الحث أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين. وليت المتهمين الماثلين أقروا بالحق ورضخوا لحكم العدل حين صفعوا بهذا الحشد الهائل من أدلة الثبوت لعلهم بذلك ان يجدوا فى قلوبكم الرحمة طريقا إلى التخفيف يسلكوه أو بابا إلى الرحمة يطرقوه، ولكن كيف يفعلوها وهم جبارون. فأولهم آتاه الله بسطة العيش وبدلا من أن يخر لله ساجدا شاكرا له فضله حامدا له نعمه طاوله أرضه وشاطره فى ملكه ونصب نفسه ان لم يكن الها ففرعون والويل كل الويل لمن عصى له أمرا، ففى غفلة من الأيام قذفت الينا الأقدار بمن حسبناه للرحمة ملاكا، فأوى إلى أهله مناديا من منكم للشيطان وليا. فأجابه منهم الدانى والقاصى وما أن أتوه حتى كفلوا له أنيابا ساعدته على التهام المال العام وسنين عددا... فلما استقرت لهم امر تلك الأموال وانفردوا بها. انطلقوا يتصرفون فيها وكأنها ضيعة تركها لهم آباؤهم وهم لها وارثون. لقد ظنوا وهم فى غمرة من أمرهم ساهون أن الدنيا باتت قطوفها دانيه. وأنها آتتهم هرولا فانغمسوا فى ظلالتهم ونسوا أن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون.

....

... نسى أنه سوف يأتيه يوم يقال له فيه اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم حسيبا. أما وقد رغب عن قراءة كتابه بنفسه فلنقرأه له نحن لنقدم لحضراتكم قائمة بما سودت يداه من صفحات ولكى يعلم أن وعد الله حق وان كل نفس تجزى بما عملت ولا يظلم ربك احدا. وحين اتناول الدليل قبله فلن أقول خذوا الدليل على ادانته من أقوال شهود الأثبات فى الدعوى. بل أقولها مطمئنا خذوه من أقوال المتهم نفسه ليتحقق فيه قول الحق. يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون. نعم أقولها واثقا خذوا الدليل من أقواله فان لم تدلكم على ادانته فاقضوا ببراءته... وأبدأ بما يصح أن يكون البداية وأسأل كيف أستقر فرعون على عرشه وانها لبداية، لأن من بدأ سفاحا لا يرجى منه صلاحا. أنا أدلكم... شهادة ميلاد عرش فرعون قرار مزور. نسب زورا إلى محافظ الغربية الأسبق الدكتور محمد محب زكى. مضمونه تسوية حالة فرعون مديرا عاما بمستشفى المبره بطنطا على الدرجة الأولى المخصصة لوظيفته أعتبارا من أول عام ١٩٧١.

ولم تكتف بكل ما سبق فأردنا أن نسمع فى هذا الأمر فصل الخطاب فقدرنا أننا نبحث عن من نسب إليه القرار السيد محافظ الغربية الأسبق محمد محب زكى فقرر فى الصفحة ٨٨٥ أن القرار المعروض عليه ـ قرار التسوية ـ مغاير للقرارات التى كانت تصدر من ناحية أنه ليس له رقم ولا تاريخ وبالنسبة للتوقيع بتاعى فانا كنت بأوقع كامل. فسألناه عن مصدر القرار أجاب يسأل المستفيد من هذا من هذا القرار عن مصدره ذلك ما سهدوا به.

....

....

سيدى الرئيس حضرات المستشارين أن لنا أن نترك فرعون بعد أن قلنا قوله الحق لنلقى بوزيره وساعده الأيمن محمد جامع الذى تربى فى مدرسته وتخلق بأخلاقه فبات للشيطان وليا وكيف لا وقد سحره فرعون فبات به مفتونا. وأعطاه فصار لرزقه ممنونا أفحسبتم أن يعصى له بعد ذلك أمرا. كلا بل كل ما يقوله فرعون حكمة. وسرقته لمال مصر نعمة. والخروج على أمره نقمة هكذا تربى فى مدرسة فرعون وترعرع. فنادى شيطانه لعله يهديه. فأوى إليه أنبوبة الليزر تسعده وتغنيه. فجمع كيده. وحشد جنده. ثم أمرهم كونوا شاهدين. فأثبتوا على غير الحقيقة أنهم قاموا بتركيب أنبوبة جديدة لجهاز الليزر بقسم الرمد بمستشفى المبرة ثم تلف الأنبوبة القديمة حتى يخفوا معالم جريمتهم. ولكن أنى لهم فقد أفتضح أمرهم. وأنكشف سرهم. فأبلغ الدكتور محمد عباس بكذبهم وشهد أن الأنبوبة لم يتم تركيبها وأنهم اختلسوا قيمتها كما شهد محمد عبد المنعم عبد السلام عضو الرقابة الادارية.

وقال فرج علام محمد النجار فى الصحيفة ٤٨٠ أن جهاز الليزر كان عطلان بسبب الأنبوبة الجديدة وأثناء التركيب انكسرت الأنبوبة القديمة وتم عمل محضر بذلك ثم استيقظ ضميره وجاء طائعا مختارا ليحدثنا فى ص ٥٠٨ عن الحقيقة فقال: الحقيقة أنا مشفتش الأنبوبة الجديدة وهى بتتركب ولا شفت الأنبوبة القديمة اللى انكسرت وأنا لم أكن استطيع ان أرفض التوقيع على المحضر لأن الرؤساء فى العمل والدكتور محمود جامع وأقاربه ماسكين كل حاجة ولهم سلطات النقل أو الجزاء لأى سبب وأن الكلام الذى قاله كان مملى عليه من الدكتور رأفت عبد السلام وأسامه شلبى وقالوا احنا ماضيين على محضر التكهين ولو قلنا غير كده يبقى احنا مسئولين. وأضاف بأنه لا يعلم اذا كان فيه أنبوبة جديدة اتركيبت ولا

لأ وكل اللى عملته أنى مضيت على محضر التكهين بناء على طلبهم.

ثم جئنا بالدكتور عبد الباسط محمد النجار استاذ ورئيس قسم الرمد وسألناه عن الأنبوبة فشهد فى الصحيفة رقم ٤٩٦، بأنه كان يتعين أن يحضر تركيب الأنبوبة وتشغيل الجهاز ـ والتأكد من صلاحيته بصفته رئيس قسم الرمد الذى يستخدم الجهاز ولكن لم يحدث ذلك وأنا عارف أن هذا الجهاز لم يكن عطلان وأنه كان يحتاج لشوية ضبط وصيانة وكان حضر مندوب من المكتب المصري وضبط الجهاز لكن فيه أنبوبة جديدة جت وأتركبت بدلا من القديمة (لا). وأن محضر لجنة فحص أنبوبة الليزر صورى. وكان يتعين وجود عضو من الرمد فى هذه اللجنة وأن محضر التكهين صورى أيضا كما قررت نعمة محمد خطاب فى الصحيفة رقم ٦٤٦ بأن جهاز الليزر لم يتعطل وأنه لم يتم تركيب أنبوبة له لأن الجهاز كان عهدتها ولم يتم تركيب أنابيب للجهاز طوال فترة عملها. وأضافت فى الصحيفة ٦٤٧ أن محمد عرفة جامع جالى البيت بعد ما سبت الشغل وقالى النيابة عيزاكى وقولى فى التحقيق أن الأنبوبة جت وأتركبت فى الجهاز. ذلك ما فاحت به الأوراق وما شهدت به عليهم السنتهم فحق أن تطلب أن يلقى بهم فى غياهب سجن ساء مستقرا ومقاما.

مازلنا على درب جرائم هامان نسير نتتبع خطاه. ونحصى ما التهمه من المال العام. فرأيناه لايدع فرصة إلا اقتنصها. ولا يرى أموالا إلا اغترفها. فمن تربى فى مدرسة فرعون لا يشبع ولو أوتى خزائن قارون لن يقنع. فسرطان الطمع نبت فى قلبه وظلل على نفسه. فرأى فى الاستيلاء على الدواء ضالته فقد شهد محمد عبد المنعم عبد السلام عضو الرقابة الإدارية فى الصحيفتين ٣٩٢، ٣٩٣ أنه قد تبين أن المتهم محمد معوض جامع قام باستلامه بعض دفاتر التذاكر الطبية من أمين المخازن والتى تحرر كتذكره طبية للمستفيدين من القانون رقم ٧٩ لسنة ١٩٧٥ الخاص بصرف الأدوية مجانا حيث تولى هؤلاء الأطباء الممارسين التلاعب فى عمليات صرف الأدوية وذلك بتحرير تذاكر على أساس أنها علاج استشارى لصرف أدوية مرتفعة القيمة موقعة من أطباء ممارسين دون أثباتها بواسطة الطبيب الأستشارى فى البطاقات الصحية كما تقضى التعليمات. كما تم ضبط كميات من التذاكر الطبية تحمل أرقام وأسماء بعضها وهمية والأخرى لموتى أو مرضى من بين المستفيدين بالتأمين الصحى ولم يتم صرف الأدوية المدونة بها بواسطة المنتفعين. فلما اردنا أن نستوثق الأمر جئنا بالأطباء الممارسين نسألهم فماذا اجابوا

يقول الطبيب أحمد رامز الحصرى في الصحيفة رقم ٥٤٦ أنه فى خلال عملى بعيادة ـ خالد بن الوليد كان يقوم السيد الطبيب محمد جامع مدير التموين الطبى والصيدليات فى هذه الأونة بأجبار وتحريض الأطباء العاملين بالفرع أو بالعيادة على تدوين أدوية يتم صرفها من صيدلية العيادة. وبالنسبة للواقعة رفضت فى أحد المرات كتابة مجموعة من الأدوية لاحساسى بالخطر وعن طريق بعض الزملاء الذين أسدوا إلى النصح بعدم ممارسة هذا العمل فتم نقلى فورا من عيادة خالد بن الوليد إلى ادارة اللجان و اجراء تحقيق معى. ثم جئنا بطبيب أخر هو على السيد محمد عبد الله و سألناه فقرر فى الصحيفة ٧٣٦ أن الصيدلى محمد جامع كان يحضر ومعه البطاقات العلاجية ويقول أن المرضى موجودين عند الدكتور محمود جامع في مكتبه ويطلب العلاج لهؤلاء الناس فكنا نقوم بكتابة العلاج للدكتور محمد جامع أما الصرف والمسئولية على الصيدلى وأضاف بأنه كان يكتب هذه الروشتات للصيدلى محمد جامع خوفا من نقله أو تخفيض درجته المالية أو الوظيفية. ثم جئنا بأمين المخزن محسن محمد السيد على نسأله عن أمره فقرر فى الصحيفة ٥١٢ أن الدكتور محمد جامع كان يرسل له على دفاتر روشتات بأسم الدكتور على عبد المطلب وأنه أرسل له حوالى ثلاث أو أربع مرات وحصل على حوالى ٢٠ أو ١٥ دفتر من تلك الدفاتر. وأضاف فى الصحيفة ٥١٥ أنا مكنتش قدر أقول لأ لأن الدكتور محمد جامع يعتبر رئيس ولما لا نقلت من عياده خالد بن الوليد لأدارة الفرع.

....

سيدى الرئيس حضرات المستشارين عذرا أن اطلت فلو شئت أن أفصل انباءهم فلن يكفينى قدر هذا الوقت مرات ولكن لايمانى أنكم بما أوتيتم من علم قد أدركتم ما حوته حين طالعتموها فكفانى هذه الاطلالة السريعة على سجل جرائمهم.

سيدى الرئيس حضرات المستشارين:

هؤلاء من اشتروا الضلالة بالهدى فخسروا خسرانا مبينا.

هؤلاء من نبتوا على أرض الكنانة وسرقوا ماءها ثم ارادوها بورا.

هؤلاء من اتخذوا إلههم هواهم فكانت دعواهم تدميرا.

هؤلاء من هانت عليهم أنفسهم فباتوا شرا مستطيرا.

هؤلاء من اعتلوا الصرح ظلما وزورا.

هؤلاء مترفيها سقناهم إلى ساحتكم فخذوهم أخذا وبيلا.
أودعوهم غياهب سجن ساء مستقرا و مقاما.
فقولكم عليهم نارا وعلى الكنانة بردا وسلاما.
أعانكم الله ووفقكم واثابكم خيرا عميما.

رئيس نيابة طنطا فى ١٩٨١/١١/١٨ بيابة استئناف طنطا والمنصورة للأموال العامة.

شريف حسن شادى

كان المستشار حسنى عبد اللطيف هو رئيس المحكمة، وهو قانونى ضليع طبقت شهرته الأفاق بتوليه عددا من القضايا التى تهم الرأى العام، وهى على سبيل المثال لا الحصر قضية الدكتور عبد الحميد حسن، وقضية الفنانين (سيد زيان وآخرين)، وقضية مجدى وهبة ثم قضية الريان بعد ذلك.

ولاحظت أن أحدا من الشهود لم يحضر، حتى ضباط الرقابة الادارية، فتقدمت إلى رئيس المحكمة منوها بذلك طالبا سماع شهادتى.

عندما وقفت أدلى بشهادتى كنت أتذكر قول عبد الله بن عمر رضى الله عنه حين رفض أن يتولى القضاء لسيدنا عثمان. وتذكرت أيضا قول أحد الأصدقاء من المستشارين أن احساس القاضى الجالس على المنصة احساس مروع لايحميه منه إلا إيمان قوى، ذلك أن الله يحيى ويميت وهو يحيى ويميت!!!!.

وبرغم تحرزى الصدق فى الأحوال العادية إلا أننى يومها أحسست بوطأة مبهظة، فكلمة تزيد أو تنقص يمكن أن تهوى بى فى أعماق الجحيم، ووددت لو لم أقف هذا الموقف، فلله درك ياسيدى عبد الله بن عمر حين قررت أن هذا أمر لو نطق الانسان بالحق فيه فلا ذنب ولا حسنة، أما أن أخطأ جهلا أو عمدا فهى الهاوية فى النار.

بعد ذلك حدثت مواجهة حادة بين رئيس المحكمة ورئيس النيابة مما اعتبرته المحكمة أمرا ماسا بها فرفعت الجلسة، وعادت المحكمة للانعقاد بعد قليل ليقدم رئيس النيابة شريف شادى اعتذاره مؤكدا على ثقته بالمحكمة واحترامه لها، لكن المحكمة فيما يبدو لم تقبل الاعتذار، فانسحب وأتى مكانه من كلفه المحامى العام كى يحل محله.

وفى اليوم التالى أصدرت المحكمة حكمها ببراءة جميع المتهمين.

كنت أدرك وأذكر ماقلته قبل ذلك للمستشار محمد أبو زيد من أن القضية مهلهلة.

وددت من أعماقى لو يظفر المتهم السياسى بقدر مماثل من تفسير الشكوك فى صالح المتهمين الجنائيين.

كانت المحكمة التأديبية العليا قد أدانت المتهمين قبل ذلك وأحيل الدكتور جامع إلى التقاعد. ورفض الطعن على الادانة. كما أعادت المحكمة التأديبية العليا حكمها بالادانة بعد ذلك لتوقع على المتهم الرئيسى أقصى عقوبة للمحالين الى التقاعد.

وطعنت النيابة العامة فى الحكم.

لو أن حكم محكمة أمن الدولة كان بالادانة لوقعت فى مأزق فكرى!!؛ اذ أن ذلك كان يعنى أن كل الأمور على مايرام، وليس فى الأمكان أبدع مما كان، ففى بلادنا يوجد فساد كما يوجد فى كل بلاد الدنيا لكن هذا الفساد يمكن محاصرته وردعه. لكن... عندما يوجد فساد يعجز القانون عن ادانته والامساك بتلابيبه فان ذلك يعنى أن الأمر أخطر بكثير من مجردقضايا فساد وأن الخلل يكمن فى القانون والنظام العام فيتسرب إلى كل مناشط الحياة، ويصبح الحل ليس مجرد تطبيق القانون بل تقويمه، وليس اللجوء إلى النظام بل البحث كيف يمكن تصحيح الأخطاء الجسيمة فى بنيان النظام.... النظام كله. لكن تبقى مشكلة جوهرية: إذ كيف يمكن أن نعالج نظاما خاطئا من خلال قانون خاطئ بأفراد خطائين؟؟!!. ولعل تلك هى الأزمة التى يدور هذا الكتاب حولها والتى لولاها لما كان.

وفى هذا السياق نفسه فان الصحف القومية ـ شاملة الوفد! ـ تجاهلت كل هذا لتنشر فى أبرز الأماكن ـ فى الصفحة الأولى أحيانا ـ نص دفاع المحامين على أنه حيثيات حكم المحكمة!! كان استمرارا فى أداء مالم تكل عنه، تضليل المواطنين وتزييف الوعى.

ولم يشذ كتاب الصحف القومية عن أداء نفس العمل فكتب مصطفى أمين وموسى صبرى وحامد دنيا مقالات مستفيضة تستدر الدموع عن وكيل الوزارة الذى اتهمه المغرضون بما هو منه برئ، وتحالفت النيابة معهم فسجنته على ذمة القضية ستين يوما حتى حكم القضاء العادل ببراءته.

كانوا كدأبهم يقرؤون ويل للمصلين ويسكتون.

وكانت الحقائق أمامهم كاملة لكنهم انتقوا منها مايريدون.

ووجدتنى أهتف مروعا: ياالهى: ان هذا هو نفس مايفعلونه فى السياسة والتاريخ والثقافة.

ووجدتنى أتذكر فى أسى ملايين الشباب الذين يتكون رأيهم العام ويتشكل وجدانهم من خلال مقالات هؤلاء كبار الكتاب.

ووددت لو أصرخ فيهم بصوت يجلجل فى أرجاء الوطن لاتقرؤوا صحفا كى تفهموا بل تجنبوها، كى تظلوا فاهمين وأتقياء أنقياء.

بيد أني لابد أن أشكر الذى جعل من السم الناقع دواء، فجعل من الأمية المنتشرة فى أمتنا وقاية وحفظا لأذهانهم وأرواحهم من كبار الكتاب.



ولاد الكـاـمـــب

كان محمد حسنين هيكل قد تربع على عرش الصحافة العربية كأعظم صحفى فى تاريخها. بشهادة العرب وشهادة العالم. كان قد استقطر خلاصة العقل والحكمة كعراف يقبع فى صومعته مسترجعاً حلم مجد الماضى وبؤس الحاضر ويأس المستقبل. وكان كمنظّر عظيم للواقع العربى ابن خلدون العصر الحديث. وكان ممنوعاً من الكتابة فى وطنه!!

وفاجأتنا أخبار اليوم بإعلان كبير فى صدر صفحتها الأولى أنه سيكتب فيها مقاله الأسبوعى «بصراحة».. وكأنما قام الطوفان.. فبرغم أنه كان ثمة إيحاء قوى بموافقة مسبقة من جهات عليا.. إلا أن الجهات السفلى والتى كانت تحكم حقيقة ملأت البلاد برعب مزيف فصدر الأمر بمنعه مرة أخرى من الكتابة وكانت فضيحة هائلة للنظام الهش الذى يخشى من الانهيار ازاء الصراحة والمنطق. وإن لديهم المئات من الكتّاب الذين يكتبون كل يوم لكن النظام كله لم يحتمل مقالاً أسبوعياً وحيداً لمحمد حسنين هيكل.. وأسفر النظام عن عورته التى لم يجد حتى أوراقاً يخصفها عليها.. وتداعت رجة الفضيحة فى العالم العربى فعادت أخبار اليوم بعد شهور لتعد بنشر مقالات بصراحة.. وبالفعل نشرت مقالتين تمهيديين وكان المقال الثالث سيتعرض لكيفية صناعة القرار فى مصر ومن يتخذه.. ومرة أخرى بدت عورة النظام التى لم يعد يخفيها شئ.. فقد مُنع محمد حسنين هيكل عن الكتابة.

وكان هذا القرار هو أعظم وسام ناله محمد حسنين هيكل فى حياته.. فقد بدا بقلمه فقط أكبر من السلطة بكل جبروتها.

وظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.. فقد كان هذا القرار تعرية

كاملة للسلطة التى ادعت أن شعبنا لا يحتمل الديمقراطية جرعة واحدة.. الآن يتضح أن نظام الحكم لا يحتمل أى جرعة من الصدق والمواجهة. وإلا انهار. وأن شعبنا العظيم جدير بالديمقراطية كلها لا بمجرد اطارها الأجوف الذى تتشدق السلطة به.

لكن القدر لم يكن يفلت السلطة من ضرباته الصاعقة.. فقد كانت حادثة السفينة أكيلى لارو فى ٧ أكتوبر ١٩٨٥ حيث قام بعض الفلسطينيين بخطف سفينة انتقاماً لضرب اسرائيل قواعد منظمة التحرير فى تونس وحاول النظام المصرى أن يقوم بدور البطل فى انهاء العملية سلمياً ونجح إلى حد ما فى إبرام صفقة بذلك وجاء المختطفون إلى مصر لترحيلهم إلى تونس لكن القوات الأمريكية اختطفت الطائرة المصرية فى عملية قرصنة فاجرة.

كان حادث سليمان خاطر يهز مصر.

وكان ثمة حادث آخر يرج المجتمع المصرى رجاً.. كانت إحدى الفتيات من المعادى فى نزهة مع خطيبها على كورنيش النيل فى سيارتهما الخاصة.. وفجأة تعرض لهما ستة من أبناء عصر الانفتاح وكامب ديفيد والسادات وأجبروهما على النزول من السيارة واتجهوا بهما إلى عمارة خالية تحت التشطيب.. كان المسكينان يحاولان فض الأمر بأقل قدر من الفضيحة.. عرضوا على البلطجية أموالهم وحليهم.. لكنهم أخذوهما إلى ذلك المكان المهجور.. وأدرك الخطيب ما سيحل بخطيبته فبدأ يقاوم فأوثقوه بالحبال. وبأوا يحاولون اغتصاب خطيبته أمام عينيه وهى تصرخ وتقاوم.. فتعاونوا عليها حتى تمكن أولهم من اغتصابها فانهارت تماماً فأخذ الباقون يغتصبونها واحداً واحداً.. وخطيبها المسكين يصرخ.. تنداح إلى مخيلتى ذلك المعتقل السياسى فى وضع مماثل.. فهل هؤلاء البلطجية أقل إجراماً من ضباط ذلك المعتقل السياسى.. الآن ينمو الوحش الذى ربته السلطة وينشب مخالبه بأفراد المجتمع خارج السجون.. وكانت أسرة الفتاة فى مركز أتاح لهم الاتصال بوزير الداخلية مباشرة فظفرت هذه القضية ـ دون آلاف القضايا المماثلة ـ ببحث مكثف لوزارة الداخلية وتغطية إعلامية هائلة.. وانتشر الرعب فى الشارع المصرى.

كان ما يحدث على مستوى الوطن يحدث على مستوى الأفراد.. وكان مايحدث على مستوى الأفراد يحدث على مستوى الوطن.. وكنت أربط فى مشاعرى بين هؤلاء البلطجية وأمريكا.. وبين حادث اختطاف الفتاة واختطاف

الطائرة المصرية وبين اغتصاب الفتاة المتكرر واغتصاب مصر المتكرر.. أما ذلك الخطيب المسكين الذى جرح فى كرامته ورجولته كما لم يجرح رجل فقد كان يمثل الشرفاء فى مصر.. كان يمثل ذلك النزيف الوحشى فى صدورهم ازاء وطن يغتصب ويغتصب ويغتصب ويغتصب ويغتصب.. وأمام عيونهم وأجسادهم المكبلة، كان يمثل فتحى رضوان وإبراهيم شكرى وحلمى مراد ونعمات فؤاد وصلاح عيسى وآلاف من الشرفاء.. وكان يمثلنى أنا.. لكنه لم يكن يمثل عظيمين.. أعظم من كل هؤلاء.. هما خالد الإسلامبولى وسليمان خاطر.

كانت قضية سليمان خاطر الشغل الشاغل للعرب جميعاً، وإن تفاصيل المحاكمة المخزية تملأ عديداً من الكتب.. كان العالم العربى كله معه وكانت مصر معه.. وكنت أظن أن حسنى مبارك فى أعماقه معه.. لكن تفاصيل المحاكمة كانت عاراً كتفاصيل محاكمة خالد الإسلامبولى وتفاصيل محاكمة سليمان الحلبى من قبل.. كانت أمريكا واسرائيل تطلبان رأسه.. وكنا جميعاً نفتديه. وتبلور الصراع فى منعطف حاد جسده اشتعال الشارع المصرى بمظاهرات اعتبرت سليمان خاطر تجسيداً لآمال الأمة.. واتخذت المحاكمة خطها المرسوم.. وتولى الدفاع عن سليمان خاطر من دافعوا عن خالد الإسلامبولى.. وكانوا يدافعون عن رمز وطن.. وكانت الصحافة الاسرائيلية تؤكد أن الحكم سيكون بالإعدام.. لكن ازاء الغليان الشعبى والجبهة العريضة التى شكلها ضغط الرأى العام ولجنة الدفاع عن سليمان خاطر والتى كان نبراسها فتحى رضوان، كذلك وصف نقيب المحامين أحمد الخواجة لسليمان خاطر بأنه «أخلص أبناء مصر» وما أصدرته العديد من النقابات منها نقابة الأطباء.. كل ذلك كان يشكل مؤشراً خطيراً أمام السلطة أعطى الشعب أملاً كبيراً فى أن السلطة برغم مايحدث فى المحكمة من تجاوزات وصدام مع المحامين لن تجرؤ على الحكم بالإعدام.. وكانت كلمات سليمان خاطر التى تتسرب إلى الشارع المصرى تزيده اشتعالاً.. وكان منها:

* أنا لا أخشى الموت ولا أرهبه.. لكننى أخشى أن يكون للحكم الذى سيصدر ضدى آثار سيئة على زملائى تقتل فيهم وطنيتهم.

ـ وكان أحد المحامين يصرخ:

* هل لو كان السبعة الذين اقتربوا من النقطة العسكرية الممنوع الاقتراب منها مصريين وأطلق عليهم سليمان خاطر الرصاص.. هل كان يحاكم؟(١)

وكان سليمان خاطر يوجه اتهامات صريحة للقيادات العسكرية فى سيناء:

(كلهم بيشتغلوا مع الأجانب وحيضيعوا البلد) وأن (فيه واحدة اسرائيلية عملت مسطولة ودخلت نامت فى شاليه عسكرى وأخذت تردد جهاز الإشارة فيه) كما فجّر العلاقات الجنسية بين الإسرائيليات العاريات والعسكريين المصريين.. وفسرها بأنها تجسس.

وكان الشيخ عمر التلمسانى يقول:

«العمل الجليل الذى قام به هذا المواطن الشريف هو الموقف الذى أتمنى أن يقفه كل مصرى ازاء اسرائيل وأن ماتفعله بنا اسرائيل هو عار الدنيا وخزى الحياة.. لقد قبلت مصر كامب ديفيد فتفرغت اسرائيل لمواجهة الدول الإسلامية».

وقال إبراهيم شكرى:

«لقد عبّر سليمان خاطر بما قام به من غضب المصريين جميعاً.. إن قالوا عنه أنه مختل العقل والتفكير فإننى أقول أنه عبّر عن كل الحكماء فى مصر.».

❁ ❁ ❁

وكانت السلطة بكل جبروتها مستخذية ازاء الهبة الشعبية والشعور القومى. لكن الأمر لم يخل من كلب من كلاب السلطة ـ كل سلطة ـ أخذ يهاجم سليمان خاطر ويطالب برأسه[1].

❁ ❁ ❁

وتتداعى إلى مخيلتى ذكرى كلب خسيس فى محاكمة مماثلة عندما دخل الصحفى الذى طالما أشاد بأحمد عرابى قبل الهزيمة.. دخل إليه فى السجن بعد الهزيمة ليبصق فى وجهه.

❁ ❁ ❁

وتتداعى إلى ذاكرتى ما هو أشد إيلاماً. ففى محاكمة كتلك كان الجلاد يزيد بن معاوية وكان المتهمون من تبقى من آل بيت رسول الله الذين قتلهم جند يزيد.. ولم يكتف يزيد بما فجر وغدر.. بل بلغ به الأمر أن يطرح فى مجلسه فكرة بيع بنات الحسين سبايا.

❁ ❁ ❁

---

(١) عندما اقترب شاب بعد ذلك من القصر الجمهورى مزّق الحرس جسده بالرصاص للاشتباه فيه، وعزى الرئيس أباه، لكن احدا لم يقارن بين ما فعله الحرس ـ وهو تهور لأن الرئيس لم يكن فى القصر والشاب كان وحيدا ـ وبين مافعله سليمان خاطر. لكن الدفاع عن الرئيس ـ ولو من احتمال خطر بعيد والدفاع عن الوطن ـ مهما كان الخطر ـ شيئان مختلفان.

كان الشعور القومى والدينى يزداد أواره كل يوم.. وأدركت السلطة خطورة إعدام سليمان خاطر.. وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٨٥ حكمت المحكمة على سليمان خاطر بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وقال سليمان خاطر:

ـ كنت أتوقع وساماً.. هذا حكم ضد مصر.. فقد كنت أؤادى واجبى.

وهتف فى حراسه:

ـ اذهبوا واحرسوا سيناء فلست محتاجاً لحراسة.

❁ ❁ ❁

وبرغم الاستياء البالغ الذى قوبل به الحكم من الجماهير فقد كان هناك بالرغم من ذلك بعض شعور بالراحة أنه لن يعدم.. وكان ثمة أمل كبير أن رئيس الجمهورية سيخفف الحكم وحتى إن لم يخففه فسوف يخففه فيما بعد أو سيلغيه قطعاً من يأتى بعده.

وهدأت مشاعر الناس قليلاً وهى ترقب رد حسنى مبارك على الالتماس المقدم إليه بتخفيف الحكم.

وفى ٧ يناير ١٩٨٦ أتى إلىّ سمير شرباش مروعاً ومذهولاً.. وكان قد حضر إحدى جلسات تجديد حبس الدكتور جامع وأقاربه.. وكان العشرات من كبار المحامين يدافعون.. لكن ماروعه أن يكون منهم أحمد الخواجة نقيب المحامين والذى تزعم لفترة طويلة نضالاً نبيلاً كان فى مجمله ضد ما يدافع عنه اليوم تماماً.. وروعه أن يكون منهم المستشار محمد عبد العزيز والذى كان مرشحاً لقيادة الاخوان المسلمين.. وروعه أن يكون منهم الأساتذة على عبد الرحيم ومحمد عثمان وآخرين لم يكن يتوقع أبداً أن يجدهم هناك..

وكان سمير شرباش قد علم بتفاصيل المرافعة.. وأخذ يتحدث إلىّ بانفعال:

ـ أنا لم أخف فى حياتى قط.. لكننى اليوم خفت كما لم أخف أبداً.. هذه الرموز التى كانت رائعة فى تاريخ نضالنا السياسى.. كيف تتبنى قضية الدفاع عن فساد سياسى واقتصادى كانوا هم ن أول من تصدى له.. لشد ما أقشعر بدنى من الخوف وأنا أرى الحق يتحول بين أيديهم إلى باطل والباطل يتحول إلى حق.. لقد كنت أتخيل فى نهاية مرافعتهم أن القاضى سيأمر بالافراج عن المتهمين ويأمر بحبس من أبلغ عنهم.. ولم يخفنى الحبس لكن أخافنى أن يغير الرجال جلودهم.

وأخذت أخفف من روعه مدركاً ما أصاب براءته الطيبة إزاء بشاعة الواقع.. وقلت له أن قضية التأمين الصحى لم يعد لها قيمة ازاء مايحدث للوطن.. وقلت له أنه إذا كان داخل السجن عشر نماذج ساداتية فإن خارج السجن مئات الألوف.

لم يقنعه حديثى..

تركنى وهو مايزال مروعاً..

❁ ❁ ❁

وبعد ساعات قليلة فوجئت بباب مكتبى يفتح بعنف وينطلق منه كالقذيفة سمير شاباش ملقياً بنفسه على مقعد.. كان يلهث كما لو كان الشيطان يتعقبه.. وكان شهيقه صواخاً وزفيره نواحاً.. وكان جسده غارقاً فى العرق ووجهه غارقاً فى الدموع.. صرخت فيه ماذا حدث..؟؟ لكنه وسط الصراخ والنواح والتنحيب لم يجيب..

تداعت إلى مخيلتى آلاف الاحتمالات لكننى لم أجد منها أى احتمال يفسر موقفه..

....

وأخذت أسائله وأسائله واسائله..

وأخيراً التقطت من شفتيه الموتعشتين كلمة:

سليمان خاطر..

صرخت فيه.. ماذا به..

وغرق فى النحيب مرة أخرى..

ثم صرخ صرخة مروعة من أعماق روحه الدامية.. كانت كلمات صرخته كأنما صنعت من فتات جسده الذى سحق وروحه التى ذبحت..

ـ قتلوه ولاد الكلب..

❋ ❋ ❋

ثلاثيــــــة:

الألـــــــم

المـــــــوت

اليـــــأس

الحزن أجلُّ من أن يوصف.

لكننى أتعزى بكلمات سيدنا الحسين:

«إن من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدى إلى بغّى من بغايا بنى اسرائيل».

وها هو ذا رأسك يا سليمان خاطر يدركه ذات المصير.

أما حزن الشعب المصرى فقد كان فاجعاً..

كا الحزن الرابع فى هذا القرن.. الحزن على موت سعد زغلول.. ثم الحزن على موت عبد المنعم رياض ثم الحزن على موت جمال عبد الناصر.

أما الحزن الرابع فقد كان سليمان خاطر[1]..

* * *

ثقيل الوطأة أن أعيد سرد ما حدث..

جبل المقطم يجثم على صدرى..

قالت السلطة أن انتحر..

وقالت الأمة العربية أنه قتل.

* * *

ونظر اللواء ابن زياد إلى غلام هزيل مع السيدة زينب فسأله:

ـ من أنت؟

---

(١) فى نفس اليوم ـ٧ يناير ١٩٨٦ـ أصدر رئيس الجمهورية (الأسرائيلى) قراراً بالعفو عن السفاح آلان جودمان.

ـ على بن الحسين.

ـ ألم يقتل الله عليا بن الحسين؟

ـ كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس.

وأخذ يزيد ينكث فى الشفتين الطاهرتين لرأس الحسين المجزوز..

وطالع لواء آخر الوجوه الطاهرة فأشار إلى السيدة فاطمة بنت الامام الحسين طالباً من يزيد أن يهبها له.. فتهتف فيه السيدة زينب:

ـ كذبت ولؤمت.. ما ذلك لك ولا له..

فيقول يزيد:

ـ كذبت إن ذلك لى ولو شئت لفعلت.

فتقول السيدة زينب:

ـ كلا والله ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا.

ويصرخ بها يزيد:

ـ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك..

❁ ❁ ❁

مادام يزيد يحكم فلنعد قوله.. إنما خرج من الدين الإمام على والإمام الحسين ومادام ابن زياد مايزال بيننا فقد انتحر سليمان خاطر..!!

يادموع الدنيا..

لاتكفينى لغسل القهر..

❁ ❁ ❁

لطالما ظل يزيد حياً فى ولاة أمورنا فليمت سليمان خاطر وليمت خالد الإسلامبولى.. وليمت مرة أخرى مئات الآلاف من الشهداء.

❁ ❁ ❁

طلب الشعب المصرى كله وطلب العالم العربى بإعادة تشريح جثة سليمان خاطر فقد كان تقرير السلطة عن الوفاة مستمداً من مثل قول يزيد.. بل وأعلنت منظمات عالمية استعدادها للاشتراك فى تشريح الجثة دون مقابل كشفاً للحقيقة..

لكن ابن زياد رفض والحجاج رفض وعمرو بن ذى الجوش رفض والسادات رفض..

لاتبكيك وحدك يا سليمان خاطر..

وإنما مثلك نبكى مصر التى كنت رمزها وضميرها.. نبكيك ياحلمنا الذى اغتالوه.. نبكيك يانحن.. أبكيك يا أنا..

* * *

كان الجميع يتسا ءلون.. من قتلك..؟

وكنت أعرف الاجابة..

قتلناك نحن عندما تركنا مندوبهم السامى ينفرد بك فيخنقك ويخنقنا معك..

* * *

«الصحافة وجميع وسائل الإعلام فى أيدينا عدى شواذ يمكن تجاهلها»
من بروتوكولات حكماء صهيون

الصحافة واغتيال الأمة

منظمة ثورة مصر

بموت سليمان خاطر، بتلك الصورة البشعة، وبسفور الإجرام دون حياء، انهد في الناس شئ ما.. لابد أن شيئاً مثله قد انهد يوم استشهد الحسين، ويوم سرق الحجر الأسود من مكانه. وليس ذلك الشئ الذى انهد قصور القدرة عن بلوغ الحلم. بل العجز عن فهم السبب الذى من أجله لاتنزل من السماء صواعق تهلك المجرمين.

وفى قضية سليمان خاطر، كما فيما قبلها وما بعدها، لم تكن الصحافة فى معظمها تمثل قيادة للرأى العام ترشده وتوعيه وتحذره وتعلمه، وإنما كانت قوادة تروّج دنساً تدافع به عن دنس.

ولقد تضاءل مافعلته الصحافة بقضية سليمان خاطر إزاء ما فعلته بخالد عبد الناصر وأعضاء منظمة ثورة مصر. فكما ينبثق النزيف، وفى يوم ١٩ فبراير ١٩٨٨، والذى كان يوماً من أيام الألم العظيم الذى يعانيه جيل غير عظيم، وكان إمتداداً للآلام الهائلة التى توهجت فى ٥ يونيو ١٩٦٧، وانصهرت فى مبادرة السادات والصلح مع إسرائيل، لتخلفنا بعد ذلك أشبه بالرماد المحترق الخامل، الذى لم يبق له من علامات الحياة سوى أن يحس ويتعذب. فى هذا اليوم كان العنوان الرئيسى لصحيفة الأهرام:

«٢٠ متهماً بينهم خالد عبد الناصر فى قضية ثورة مصر».

«النائب العام يعلن قرار الاتهام ويطالب بمعاقبة المتهمين بالإعدام والأشغال الشاقة».

وكان مانشيت صحيفة الأخبار:

«النيابة تطالب بإعدام ١١ متهماً بينهم خالد عبد الناصر».

كانت القضية هى قضية منظمة ثورة مصر والتى شغلت البلاء منذ شهر

يونيو ١٩٨٤ بإطلاق الرصاص على دبلوماسى اسرائيلى وأصدرت بيانها بمسئوليتها عن الحادث، لكن كبار المسئولين وبينهم وزير الداخلية وكتاب الصحف القومية نفوا ساخرين أن تكون هناك منظمة بهذا الإسم. لكن دبلوماسياً إسرائيلياً قتل فى ٢٠ أغسطس عام ١٩٨٥ فقل إصرار المسئولين على الإنكار. وفى ٢٦ مايو ١٩٨٧ أطلق الرصاص على دبلوماسى أمريكى بعد حادث القرصنة الأمريكية ـ الصديق الإستراتيجى للحكام ـ والذى اختطفت فيه طائرة مدنية مصرية فى عملية احتقار هائلة لمصر والعرب وللمسلمين وللقانون الدولى، وهى عملية استنكرها حتى حلفاء أمريكا فكاد يحدث اشتباك مسلح بين الجنود الإيطاليين والقراصنة الأمريكيين عندما اعترض الإيطاليون على همجية الأمريكيين وصلفهم. كان العالم مشدوهاً.. واقتصر رد الفعل المصرى على تصريح الرئيس حسنى مبارك بأنه مجروح. ولأن بعض المصريين أحس بما هو أكثر من جرح الرئيس، فقد كان شروع منظمة ثورة مصر فى قتل دينيل ويليامز الدبلوماسى الأمريكى.

ولأن عمليات المنظمة أصبحت غير قابلة للإنكار، فقد انتقل كهنة المعبد فقهاء السلطان وحاشيته من الإفراط فى الإنكار إلى الإفراط فى الإدعاء، فأخذوا ينسبون إلى المنظمة ما لم تقم به مثل حادث إطلاق الرصاص على الصحفى مكرم محمد أحمد. وانبرت أقلام أخرى تحلل وتفسر وتتعمق كى تصل إلى أسرار هذه المنظمة. وكان كثيراً على كتاب صحافتنا القومية أن يكون هناك مصريون على هذه الدرجة من الحنكة والخبرة والمهارة ودقة التخطيط، فراحوا يؤكدون أن أعضاء المنظمة فلسطينيون، بل وحددوا أسماء بعضهم. كان كثيراً عليهم أن يكونوا مصريين، أو أنهم كانوا يدافعون عن أنفسهم ومناصبهم بادعائهم هذا، وإلا فما جدوى جهدهم عبر عشرات الأعوام كى يزيفوا وعى الأمة، كى يصلوا بأبنائها إلى درجة من القهر لاتسمح لهم بأى شئ لأنهم لايجيدون أى شئ. حتى من يدافعون عن كرامة الوطن ليسوا مصريين.

كانت مهمة الصحافة عبر سنوات طويلة مضت أن تكون امتداداً لجهاز الأمن. كان دور جهاز الأمن هو قمع الفعل وكان دور الصحافة هو قمع الفكرة، أن تستأصل شأفة المشكلة من جذورها. أن تقمع مجرد التفكير فى الفعل. أن لاتجرّمه فقط بل أن تحرمه أيضاً. كزواج المحارم، أن تصبح كل حركة فكرية إثماً يستحق العقاب الشديد، وأن توصم كل حركة بطولية بما يجلب الخزى والعار

والفضيحة، وأن يتهم كل من يدافع عن قضية عامة بالسعى لمصلحته الخاصة، وأنه يخفى خلف أغراضه المعلنة أهدافاً دنيئة وخططاً أشد دناءة. وفى شعب متدين كشعب مصر، كان لابد للدين أن يستغل، أن يطوع لأغراض الطواغيت والكهان. وأن يهاجم المعارضون أمام الناس كى يكرهوهم ويحتقروهم. فهم كفرة، مارقون من الدين، وهم يقترفون الكبائر من المعاصى ويعاقرون الخمر ويباشرون النساء ويسرقون ويرتشون من دول أجنبية.

وفى ظل فلسفة «قمع الفكرة» فقط يمكن فهم ما جاءت به الصحافة فى ذلك اليوم الكئيب: ١٩ فبراير١٩٨٨ وما تلته من أيام أشد كآبة.

كانت قائمة المتهمين كما نشرتها الصحف تضم عشرين بطلاً، ثلاثة منهم ينتمون أسرياً لثورة ٢٣ يوليو: خالد جمال عبد الناصر شوقى عبد الناصر وشريف حسين الشافعى.. كان الانفعال المباشر اعجاباً وإكباراً تلاه هلع عليهم فذكرى الحسين ماثلة، وأعقب ذلك تمن لو أنهم لم يشاركوا، ليس حرصاً عليهم، وإنما لإبعاد شبهة أن تكون معاداة اسرائيل والدفاع عن كرامة الوطن وأمنه مقصورة على رواد يوليو وأسرهم. فذلك شرف وواجب يجب أن يكون للعامة قبل الخاصة.

كان أحد العناوين الرئيسية فى الصفحة الثالثة للأخبار:

«خالد عبد الناصر زود المنظمة بالأموال والبنادق الروسية والرشاشات»

والعنوان نموذج على الخداع والتزييف الذى مارسته الصحيفة وتمارسه. فالقارئ العادى، الذى سبق للصحيفة صياغة وجدانه وعقله وفكره، سوف يستنبط أنه مادامت الأسلحة من مصدر روسى، ومادامت روسيا كافرة، فالسلاح كافر ومن يستعملونه كفرة. حتى لو استعملوه ضد إسرائيل التى يفتى شيوخنا بأن نجنح للسلم معها. ولم تكتف الصحيفة بالإيحاء فالفقهاء جاهزون، تحت الطلب، لا يحتاجون لمراجعة مسألة ولا للتريث فى حكم. ففى نفس اليوم كانت صحيفة المساء تحمل رأى الدكتور أحمد شلبى والدكتور سعد ظلام بأن المتهمين مارقين من الدين، وأنه يجب استئصال شأفتهم كما استؤصل شأفة الخوارج من قبل.

وبرغم كل هذه الإيحاءات المتعددة فى صحف مختلفة فإن تفاصيل الأخبار تحت العناوين نفسها تظهر أشياء أخرى فصحيفة الأخبار نفسها تقر أن الأسلحة المضبوطة والتى أحضرها خالد جمال عبد الناصر، ليست روسية فقط، بل

أمريكية وإسرائيلية أيضاً.

لكن محرر الصحيفة ليس غبياً كي يكذب على طول الخط وليس نقياً كي يذكر الحقيقة مجردة. إنه يعلم أن الخاصة لايعتمدون على الصحافة فى معرفة حقائق الأمور. وهو على ذلك يقصد رجل الشارع العادى المنسحق بهموم معيشة يومه، والمحدود الثقافة والوعى والذى يكتفى بقراءة العنوان فقط دون أن يشغل نفسه بمتابعة التفاصيل، والمقصود أكثر فئة الشباب وطلاب الجامعات. فهؤلاء لم يعيشوا حقبة الثورة. وهم الأرض اليباب التى ينثرون فيها نباتاتهم الشيطانية. وليس المقصود هنا بحقبة الثورة جمال عبد الناصر قائدها، ولا أنور السادات خائنها، بل المقصود قتله، هو ذلك الفكر الذى عبرت الثورة عنه، أنه فى إمكان جيلنا ومقدرته، أن يواجه أعداءه، ويقهر مستغليه، ويثأر من مستذليه، وأن يرفع رأسه فى كبرياء وفى كرامة.

فى نفس اليوم أيضاً نشرت كل الصحف القومية وصحيفة الوفد فى أماكن بارزة أن النائب العام وجه تهمة تعاطى المخدرات لأعضاء التنظيم. وذكرت الأخبار أنه: «تم ضبط ١٤ سيجارة كليوباترا معبأة يدوياً بالحشيش، وورقة سيلوفان بها حشيش، وثلاث زجاجات تحتوى على الهيروين، وأنبوبة بلاستيك تحتوى على الكوكايين، وقد ثبت أن معظم المتهمين كانوا يتعاطون المخدرات».

وأبرزت الأهرام أن:

«خالد عبد الناصر فى حالة سكر»

ونشرت الوفد فى الصفحة الأولى خبراً عنوانه:

«القبض على إسرائيلى وأمريكيين بتهمة محاولة اغتيال خالد عبد الناصر» وكان مفهوماً أن القبض لم يتم فى القاهرة التى مشغولة هى الأخرى باغتياله وإنما فى يوغسلافيا.

فى نفس اليوم نشرت الأهرام مايلى:

«إن جنود إسرائيل أصابهم سعار ضرب الفلسطينيين بوحشية، ولعل هذه هى آخر شهادة دولية حتى كتابة هذه السطور عن همجية جنود إسرائيل، وقد أدلى بها فريق طبى أمريكى بعد زيارته لمستشفيات الضفة وغزة. وقد وصلت هذه الوحشية إلى حد مروع، أن يدفن جنود إسرائيل الفلسطينيين أحياء، وهى جريمة بشعة يتفوق بها جنود إسرائيل على جرائم النازيين القدامى».

■□■□■

كقارئ لم أكن أستطتع إلا أن أمزج الأخبار وأتأمل.. إن مقتضيات المنطق العادى للسلطة كانت تقتضى عدم إلهاب مشاعر الناس، وهى ملتهبة أصلاً بما تفعله إسرائيل فى فلسطين. إلا أن مايبدو للوهلة الأولى متناقضاً مع المنطق يسفر عن حقائق مريرة. والسلطة قد تكون غير شريفة لكنها ليست غبية، إسرائيل تدفن الفلسطينيين أحياء وتفوق حتى النازيين فى جرائمها الوحشية، لكن السلطة تتحدث بصراحة، ترفع عن وجهها الكالح برقع الحياء منذرة أنه رغم كل ماتفعله إسرائيل فلن نسمح بأى مساس بها، ومقابل إسرائيلى واحد قتل فى مصر فالنيابة تطالب بإعدام ١١ مصرياً، وبرغم وحشية إسرائيل فليس من حق أى مصرى أن يثور لكرامته. وليس من حقه أيضاً أن يقارن بين مايحدث عندما بذل ومهانة وبين مايحدث فى إسرائيل عندما يتهم إسرائيلى بأنه قتل عشرات العرب، فهناك، و ـ ـ مهرجان من التكريم والتبجيل للمجرم، ولمجرد ذر الرماد فى العيون، يحكم عليه ببضع شهور فى السجن، ويشمل قرار المحكمة أحياناً أن يستبدل المستشفى بالسجن.. وهناك أيضاً لايصدر نائبهم العام قراراً بحظر النشر!!!

■□■□■

تعلم الصحف أن الشعب المصرى فى خصوصه والعربى فى عمومه سينظر إلى أعضاء منظمة ثورة مصر كأبطال وليس كمجرمين. فالجريمة التى تحاكمهم بها السلطة هى خلاصة وجدان الأمة. وهنا يأتى دور الصحافة لتزييف الوعى. إن التركيز يجب أن لا يكون على صلب الأحداث ولا على شخصية الرجال وحقيقة دوافعهم. بل يجب أن يخفى كل ذلك خلف ستار كثيف من المال والنساء والمخدرات والتشكيك فى إيمانهم. وثمة شيوخ تحت الطلب على استعداد لإصدار أى فتوى فى أى وقت. حتى أننى أتساءل فى عبث مر، ترى لو بعث عمر بن الخطاب حياً، فماذا ستكون تقارير المباحث ووزارة الداخلية عنه، وأى فتوى سيصدرها الشيوخ حول إيمانه، وماذا سيكون موقف الأزهر.. وأى اعترافات ستنشرها الصحف على لسانه..!!

أما صحيفة الوفد، فقد أصابها الدوار، بين تراث مجيد مثله وفد سعد زغلول ومصطفى النحاس كان صلبه عداوة الاستعمار وإنصاف الأمة، وبين كراهية حمقاء للثورة أفقدتها التمييز بين ما هو حق وما هو باطل. ولو لم يكن خالد عبد الناصر متهماً فى منظمة ثورة مصر لاتخذت الوفد الموقف الصحيح

الذى تنتظره الأمة منها. لذلك كانت أخبارها غير متناسقة، ففى خبر تلمح التأييد، وفى خبر مجاور ترى الشماتة والحقد، وفى رأى تلمس التشهير والإدانة.

أما أغرب الأخبار التى نشرتها الوفد فى ذلك اليوم فقد جاء فى صفحتها الثانية على لسان المستشار على أبو جريشة حيث قال أن «الميثاق نص على أن مصر دولة لا دين لها»!! وهى كذبة لم يأت بها أحد قبله ولا بعده.. حتى ولا الدكتور عبد العظيم رمضان!! فما هى مصلحة صحيفة الوفد فى أن تكذب، فى أن تشارك فى تزييف وعى الأمة. أأحست بأن بعضاً من التعاطف الذى حملته الأمة لمنظمة ثورة مصر سينسحب إلى ثورة ٢٣ يوليو، وأن الإعجاب الذى حمله كل وطنى تجاه خالد عبد الناصر سيذكر بالإعجاب العارم بأبيه، فارادت أن تنثر الأكاذيب والأوحال على الماضى!!

■□■□■

فى اليوم التالى.. السبت ٢٠ فبراير ١٩٨٨ كان مانشيت الأهرام:

«الانتربول المصرى يطلب من يوغسلافيا تسليم خالد عبد الناصر لمحاكمته».

وكان العنوان الذى يليه مباشرة:

«أضخم عملية بوليسية فى تاريخ إسرائيل لقمع الإنتفاضة قبل وصول شولتز».

ألا يدرك المحرر الصحفى وهو يكتب العناوين أنه يقوم تجاه قارئيه بعملية تعذيب لاتقل بشاعة عما يحدث بداخل المعتقلات حين يغمسون الضحية فى الماء المثلج ثم الساخن ثم المثلج.

ألا يدرك أن العلاقة بين الصحيفة والقارئ هى علاقة حوار وليست تلقياً فقط. علاقة حوار.. بل علاقة حب أحياناً.. يشف ويرق حتى تصبح المطبوعة هى المحبوبة التى لا يطيق على تأخر موعدها صبراً. وهى التى ترسم وصل وشائج صلاته بالآخرين الذين لايعرفهم إلا من خلالها وبالعالم. لكن ذلك القارئ المسكين ـ كزوج لايعلم إلا أخيراً جداً ـ يفاجأ أن محبوبته بلا شرف.. أنها بغى تبيع عرض صفحاتها وطولها لكل سيد يملك ذهباً أو سيفاً.

نشرت الوفد فى اليوم ذاته:

«إسرائيل طلبت من مصر تسليم خالد عبد الناصر إليها» «مبارك كان سيتعرض لضغوط أمريكية شديدة فى حالة عدم إعلان قرار اتهام خالد عبد

الناصر» «الموساد خططت لاغتيال خالد عبد الناصر».

كما نشرت أيضاً أن «جهاز المخابرات المصرى سبق أن أعدم «أتلف» ملفات خاصة بعناصر متعاونة مع المخابرات المصرية داخل الأراضى المحتلة عندما طلبها الرئيس السابق أنور السادات خلال أول زيارة يقوم بها رئيس الوزراء الاسرائيلى السابق مناحم بيجين للقاهرة».

فهل أرادت الوفد أن تلمح أنه ثمة سابقة يمكن على إثرها فعلاً التفكير فى تسليم خالد جمال عبد الناصر لإسرائيل؟!..

لم تستطع الوفد تجاهل ماتنشره الصحف العربية والأجنبية ووكالات الأنباء حول القضية وماورد فيها من تحليلات ضافية متزنة عن صعوبة موقف النظام إزاء إسرائيل وأمريكا من ناحية وإزاء ضغط الشعب المصرى ـ الذى يراوده انبعاث الحلم الناصرى ـ من ناحية أخرى. نشرت الوفد كل هذا ولكنها نشرت علامات التعجب عقب كل فقرة تعبر عن تقدير الشعب المصرى لقائده العظيم جمال عبد الناصر.

مالكم يا كتاب الوفد..

ومالى أرى فيكم ملامح وجه هند يقطر من فيها دم الكبد الشريف الذى تلوكه..

لكننى أقسم.. أن الأمر ليس أمر جمال عبد الناصر..

وأقسم أننى مستعد أن ألعنه معكم..

ألعنه لأنه حارب إسرائيل وانهزم..

ألعنه لنتصر لا لنستسلم..

وألعنه معكم.. لأن ثمة تعذيب حدث فى عهده..

ألعنه ليتوقف التعذيب لا ليزيد وحشية وهمجية..

وألعنه.. لأنه كان ديكتاتوراً حاول أن يحمل الأمة أحلاماً فوق ماتطيق..

لكننى لا ألعنه أبداً كى نستبدل معاً أحلاماً مشروعة بعار غير مشروع. فلا تخلطوا إذن بين الكراهية الحمقاء لشخص وآمال الأمة التى مثلها هذا الشخص كما يجسد العلم الوطن.

فالبطل فى تاريخ الشعوب لا يمثل أبداً نفسه.. إنما يمثل بالفعل وفى الواقع مايراه الناس فيه.. آمالهم التى يسقطونها عليه.. أحلامهم التى يريدون منه تحقيقها.. يمثل كمّ الحب الشعبى له، وقدر انفعال الناس به.. وقدرته على تجسيد

كل هذا.. عندئذ لايتشكل البطل القومى من مجموع صفاته الشخصية سلباً أو إيجاباً.. بل يتشكل من كل الملايين الذين آمنوا به حتى لو لم يكن إيمانهم على أساس واقعى.. من أجل ذلك فإن من يهاجم مثل هذا البطل لا يهاجم شخصه.. إنما يهاجم هجوماً شخصياً مباشراً كل واحد وواحدة من الملايين التى جسدها ذاك الزعيم.. لا يشترط وحدة زمان ولا اتحاد مكان.. وإن ذلك الخنجر الفاجر الذى ذبح الحسين ما يزال يدمينى.. كما تدمينى أيضاً آلاف وآلاف من الطعنات عبر تاريخ جريح.. وإن ضربة السيف المسموم الغادرة التى وجهت لحظة إلى مصطفى النحاس تظل أبداً مسلطة علىّ.. لذلك فإن الهجوم الذى مارسته الصحافة ضد أبطال الأمة من أحمد عرابى إلى مصطفى كامل إلى محمد فريد إلى أحمد حسين وسعد زغلول ومصطفى النحاس وجمال عبد الناصر لم يكن هجوماً على أشخاصهم بل كان ذبحاً لمن آمنوا بهم.. ولأن صحافتنا لم تدع من الزعماء واحداً دون أن تثخنه بالجراح فإنها لم تدع من الشعب فرداً إلا ذبحته فى أبشع ما يمكن أن يحدث لأمة من تجهيل للعقل وتزوير للتاريخ ومسح للذاكرة وغسيل للمخ.

فى اليوم التالى كانت الأهرام تركز أن محمود نور الدين مجرد «بلطجى» لكنها تركت القضية الرئيسية لتركز على: «زوجة المتهم الأول تروى تفاصيل محاولة قتلها فى استكهولم» «ترفض ٢٠ ألف دولار خشية انتقام زوجها منها».

ويتخيل قارئ الأهرام أن هذه الزوجة ـ نادية سرى ـ تحمد الله الآن آناء الليل واطراف النهار أن حماها من هذا السفاح باحتجازه خلف أبواب السجن. لكن الأخبار تنشر فى نفس اليوم عن إلحاحها لزيارته فى سجنه!! لكن الأهرام والأخبار ينشران فى الأيام التالية كيف شوه محمود نور الدين وجه زوجته وكيف قتل صديقه «أبو النور» لشكه فى وجود علاقة آثمة بينه وبين نادية سرى.

لكن وفد ٢٧ فبراير ـ وقد بدأ يعود إلى بعض من أمل الأمة فيه ـ ينشر بمانشيتات عريضة أقوال نادية سرى: «قضيت معه أحلى أيام عمرى» «أقول للصحف التى زعمت أنه شوه وجهى: وجهى أمامكم واتحداكم نشر صورتى لكشف زيف ادعاءاتكم» «راعوا حرمات المنازل وحرام عليكم ما تفعلونه فينا.. أنا لا أعرف هذا الاسم ـ المقصود أبو النور ـ».

لكن ذلك لم يمنع الصحافة القومية من مواصلة الكذب. قومية قد تكون لكن قومية من. قومية العرب أم قومية أمريكا أم قومية اسرائيل. ففى الوقت ذاته، كنت أتابع الإذاعات والصحافة الأجنبية، فأجد أن صحفنا القومية أشد عداء لنا

حتى من صحافة أمريكا وبريطانيا. وعندما تعرض هذه الصحف على الأجيال القادمة فسوف تجد عناء كبيراً فى الاقتناع أنها كانت تصدر فى القاهرة لا فى تل أبيب. وسوف تجد عناء لكى تصدق أن مصر فى هذا الوقت كانت حرة مستقلة يحكمها حاكم مصرى لايتلقى التعليمات من قصر الدوبارة أو من السفارة الأمريكية، وأن القاهرة لم تكن تحت الحكم الفعلى لتل أبيب. فإن لم يكن هذا كله فلماذا كانت صحافتنا هكذا ؟!.

إلا أن ومضات ضوء كانت تومض فى الديجور، فنشرت الوفد أن المفكر الإسلامى الكبير والقائد الإخوانى محمد سليم العوا قد أبدى رغبته فى الدفاع عن المتهمين قائلاً أن مافعلوه هو أعظم شرف للناصريين وعمل وطنى وقومى ودينى من الطراز الأول.

هذا موقف عظيم، عزاء عما مضى، وأمل أن يدرك الاتجاه الإسلامى، أنه من حقه ومن حقنا أن نرفض ممارسات كثيرة حدثت فى عهد عبد الناصر، لكن علينا أيضاً أن ندرك أنه كان جداراً صلباً تحطم إزاء هجوم شرس من أعداء الإسلام والمسلمين.. أن يدرك ذلك.. بالعقل وبالمنطق وبالقلب.. فإن لم ندركه بكل ذلك فبالنقل عن بحث أمريكى شهير نشرته مجلة الموقف العربى ـ الذى صادرها نظام الحكم فى مصر ـ منذ أعوام مثرراً أن النتيجة النهائية لتوجه الإسلاميين هى ذات النتيجة النهائية لتوجه الناصريين، وأنه لن يكتب النجاح لكليهما إلا إذا اتحدا، لكن اتحادهم أمر مستبعد، وعليه فسيظل الاتجاه الساداتى مسيطراً على مصر حتى مشارف القرن الحادى والعشرين.

يوم الأحد ٢١ فبراير كانت الأخبار تنشر فى أماكن جانبية بعناوين صغيرة وبأصغر بنط: «محاكمة ضباط الشرطة المتهمين بالتعذيب اليوم».

تبدأ محكمة جنايات القاهرة اليوم محاكمة ضباط الشرطة المتهمين بالتعذيب. تضم القضية ٤٥ ضابط شرطة من مصلحة السجون وأمن الدولة اتهمتهم النيابة بضرب وتعذيب بعض المتهمين فى قضايا تنظيم الجهاد للحصول على اعترافاتهم.

وكان الخبر الآخر:

«أوراق مغتصبى التلميذة أمام مفتى الجمهورية، قررت محكمة جنايات القاهرة أمس إحالة أوراق قضية خطف واغتصاب فتاة مصر الجديدة إلى المفتى لأخذ رأيه فى الحكم بالإعدام. وحددت المحكمة جلسة ٢٦ مارس القادم للنطق

بالحكم. تضم القضية ٦ متهمين أحدهم هارب بخطف تلميذة بالإعدادى يقل عمرها عن ١٤ سنة وحجزها فى شقة أحدهم لمدة ١٠ ساعات قاموا خلالها باغتصابها جميعاً».

هكذا!! هكذا فقط!!!

إن منتهكى الأعراض والحيوانات البشرية التى مارست التعذيب تحظى بعطف الأخبار فلا تذكر مجرد ذكر اسم أى واحد منهم، لاتتحدث عن صفاته ولاتنقب فى تاريخه ولا تدس عليه. أما من يدافعون عن كرامة الأمة فهم كالحمزة لابواكى له.

أتساءل فى غضب:

ألم يكن الأحرى أن تكون اعتماد خورشيد رئيسة تحرير صحيفة، على الأقل كى نعرف مع من نتحاور، لمن نقرأ.. لكن اعتماد خورشيد لديها ذبالة فضيلة الاعتراف بالفضيحة.. أما كتابنا فخبراء فى سترها، من أجل هذا استحقوا مناصبهم.

كانت الأهرام تخصص الصفحة السادسة لقضية منظمة ثورة مصر، لكنها كانت تتجنب كباقى الصحف القومية مناقشة العمل الذى قاموا به ودوافعه. كانت ترفض مناقشة السياسة والتاريخ والجغرافيا والدين والمنطق والفلسفة والإجتماع لتكتب:

«المتهمون أحضروا أجهزة حديثة من لندن لشم السموم البيضاء».

لا أملك إلا أن أذهل..

حتى أنت يا أهرام..

حتى أنت يا رفيقة عمر طال عذابه لمّا ينته، ويا صاحبة أعمار انتهت صاغت وجدانى فمنذ أكثر من مائة عام صاحبت أبى وجدى، وتصاحبين أبنائى من بعدى.. حتى أنت.. ما الفرق إذن بينك وبين الأخبار والوفد.

«فكرة قصة»:

متابعة نفسية لفتاة أرستقراطية واسعة الثراء تحظى باحترام الكل، لديها قدرة فائقة على تجنب الموبقات التى هى سمات أصلية فى قريناتها. تحيط بها منذ شبابها الباكر هالة من الجلال، تمر بحقب وحقب وهى تحافظ عليه. يمتد بها العمر حتى تصبح مثلاً يتحدث عنه القاصى والدانى، فيصيبها فجأة نزق

الشباب وطيشه، لأنها لاتستطيع أن تكون داعرة فإنها تتحول إلى قوادة.

لا أعرف كيف أنهى القصة فأحداثها ماتزال تجرى!!.

فى ذلك اليوم، كان الدكتور عبد الله رشوان يصرخ فى نقابة المحامين «إننا نعيش فى ظل عصابات بالية، لاترتبط بدين أو قانون أو دستور أو فكر، نعيش فى دولة تجاوراً ولكنها دولة الفشل فى كل نواحى الحياة».

فى يوم الإثنين ٢٢ فبراير كانت الوفد تنشر:

«فصل خالد عبد الناصر من كلية الهندسة»

وكان المانشيت الرئيسى:

«تفاصيل مثيرة عن حقيقة دور السفارة الأمريكية فى اكتشاف أعضاء تنظيم ثورة مصر» «السفارة استصافت المتهم الثالث ٥١ يوماً وقامت بترحيله لأمريكا لعرضه على جهاز كشف الكذب».

لاتعليق.. فالدم ينزف.

يوم الثلاثاء ٢٣ فبراير كانت الأخبار تنشر:

«الناصرية لم تجمع أعضاء تنظيم ثورة مصر وجمعتهم الأموال والهيروين والجنس».

أيضاً لاتعليق..

لكن الأخبار كانت تنشر فى نفس اليوم:

«كينوك وزوجته يبكيان لمشاهدة مصابى الانتفاضة».

«بكى نيل كينوك زعيم حزب العمل البريطانى هو وزوجته عندما شاهدا ضحايا الانتفاضة الفلسطينية فى الضفة الغربية المحتلة وقال كينوك أن القوات الإسرائيلية أطلقت الرصاص على ظهور الشبان الفلسطينيين..».

«.. وسأل كينوك طبيباً هل هى رصاصة دم دم فأجاب الطبيب نعم، وانتقل كينوك وزوجته إلى سرير مريض آخر حيث كان واضحاً أن الصبى يعانى من آلام شديدة وتتساقط قطرات العرق من وجهه، وأمسك كينوك بيد الصبى وامتلأت عيناه بالدموع عندما أخبره الطبيب أن الصبى أصيب بشلل من الوسط حتى القدمين. والتقى كينوك مع مريض حالته خطيرة غضب عندما شاهده وسأل الطبيب: هل تريد أن تقول أنهم أطلقوا الرصاص على ظهر هذا الصبى أيضاً، فأجابه الطبيب: نعم، فى الكبد والبنكرياس. وقال الصبى لكينوك بصوت خافت: إنه كان فى المنزل عندما أطلقوا عليه الرصاص وأنه لم يشترك فى المظاهرات.

وغادر كينوك المستشفى وهو شاحب الوجه يردد: لقد أطلقوا الرصاص على ظهورهم. وكانت الدموع تنهمر من عينى زوجته وهى تقول: إن أحدهم فى عمر ابنى».

أيضاً.. لاتعليق .. فالدم نازف.

كان مانشيت صحيفة الشعب:

«وقائع تكشف الأكاذيب الحكومية عن رجال ثورة مصر»، «التحقيقات تكشف: أمريكا تبيع لنا أسلحة فاسدة ومتخلفة، وترفض تزويدنا بقطع غيار الطائرات».

أما تفاصيل الخبر فمخزية.. لكنها معروفة.

إزاء الهجمة الضارية اللاأخلاقية من الصحافة القومية وبعض من الحزبية على أعضاء المنظمة أصدرت نقابة الصحفيين والمحامين نداءات إلى الصحافة بمراعاة الحيدة والموضوعية.

لكن الوفد ينشر بعد أيام للمستشار مصطفى الطويل:

«ضبطت أخطر قضية إرهاب عن السنوات القليلة الماضية.. قنابل، متفجرات، أسلحة أوتوماتيكية، أسلحة كاتمة للصوت، أموال بالحقائب، تخابر مع دول أجنبية، وأقوال عن ملايين الدولارات التى صرفت لتمويل عمليات الإرهاب فى مصر، وبعد ذلك يهرب اثنان من أهم المتهمين فى هذه القضية وخروجهما من مصر كالشعرة من العجين، ورغم هذا كله فإن أجهزة الإعلام وكذابى الزفة فى مصر يتناولون هذه القضية بمنتهى الحرص دون تعليق أو تبرير أو تفسير...».

أهكذا يامصطفى الطويل..

كل هذا الحقد الأسود الذى يعمى عن كل حقيقة..

وهذا الكذب أيضاً فما ادعيته عن تخابر مع دول أجنبية لم يقل به قرار الإتهام.

ياوفد.. أأقل سوء أنت من الحزب الحاكم؟

أبمثل مصطفى الطويل وعلى أبو جريشة وجلال كشك وعبد العظيم رمضان تحكموننا إذا توليتم الحكم.

ألا فكلا.. وألف كلا..

«فإن كان لابد للكأس والطلا.. ففى غير بيت كان بالأمس معبدى».

يوم الأربعاء ٢٤ فبراير قدمت الأهالى تغطية واسعة للحدث:

«الموساد والمخابرات الأمريكية بدأت التحقيق قبل السلطات المصرية بـ ٥١ يوماً». «رئيس المنظمة: ضغوط لإقحام أولاد عبد الناصر ومستشار مبارك دفعتنى للانتحار» وعلى مساحة أربعة صفحات سردت الأهالى الوقائع الحزينة المأساوية».

كان العنوان الصارخ للصفحة الثالثة:

«الحقيقة أمام الوطن»

كان العنوان صرخة ألم دامية يائسة، فالحقيقة ليست فى الصحف طبعاً، ولاعند النائب العام، وليست عند السفارة الإسرائيلية على ضفاف النيل الغربية ولا فى السفارة الأمريكية عند ضفافه الشرقية، والحقيقة أيضاً لا ننتظرها أمام المحكمة، وهى ليست بالقطع عند الرئيس.

الحقيقة أمام الوطن..

ليست حتى أمام الشعب..

فالشعب فى وقت ما يمكن أن يزيف وعيه، أما الوطن الذى يمتد من الأزل إلى الأبد فلابد يعرف الحقيقة.

وكان بين العناوين الفرعية:

«صلينا العشاء فى جامع عبد الناصر قبل تنفيذ أول عملية ضد إسرائيل»

«اخترنا أمريكيين هدفاً لمحو عار ومذلة خطف الطائرة المصرية وإهانة القيادة».

يوم ٢٥ فبراير ١٩٨٨ نشرت الأهرام تصريحاً للرئيس حسنى مبارك:

«قضية ما يسمى بثورة مصر لم تستطع النيل من اسم عبد الناصر».

وهنا وقفة: فالحقيقة أن للسيد الرئيس طريقة شديدة التميز فى التعبير تولد خللاً.

من ادعى أصلاً أن قضية منظمة ثورة مصر نالت من أسمه؟! من وضع هذا الافتراض المعدوم كى يرد الرئيس عليه. ذات مرة أخرى، كان الرئيس فى تصريح آخر يرفض نقل الإشراف على الانتخابات من وزارة الداخلية إلى القضاء حيث أن ذلك يعنى تشكيكاً فى الشرطة.

ساعتها انفجرت ضاحكاً، وخبرت بنفسى كيف أن شر البلية ما يضحك. تشكيكاً يا سيادة اتلرئيس!! نحن لا نشك بل نجزم، وكلمة نجزم هنا غير كافية لأنها تنتقص من قوة الحقيقة بافتراض أنها تحتاج إلى تأكيد. فنحن إذن نجزم ونعلم ونشهد ونسمع ونحس أن الداخلية تزور الإنتخابات. والكارثة أننا متأكدون

أنك أنت أيضاً ـ لأنك رئيسنا ـ تعرف ذلك.

تبقى فى تصريح الرئيس نقطة أخرى، وهى استعماله كلمة: «ما يسمى»..

ألم يفطن أحد مستشارى الرئيس إلى ما تعود به هذه الكلمة من مغبة على الرئيس نفسه. إذ أن الكلمة نفسها تستعمل كثيراً فى كتب السياسة والإجتماع التى تبين أن الحاكم المتوازن نفسياً يقيم علاقات متوازنة مع الآخرين أما ذلك «العصابى» فيفشل. الآخرون بالنسبة له أشرار ملاعين مشبوهون ومجرمون. وهم الـ «مايسمى»[1]، إذ أنه لايذكر اسم العدو الداخلى إلا مقترناً بنعت كريه يمجه الدهماء، إنهم سفلة متعاملون مع دول أجنبية، ومعنى تعاملهم مع دول أجنبية هو الإيحاء للناس بالاحتماء بالوحدة الوطنية والالتفاف حول السلطة القائمة.

يوم ٢٥ فبراير أيضاً نشرت الأخبار أن نيابة المخدرات بدأت التحقيق مع أعضاء ثورة مصر. والغريب أن قرار الاتهام بعد ذلك قد خلا من أى إشارة لذلك. لكن الأخبار لم تشأ احتراماً لقارئها أن تعتذر إليه. أن تعترف أنها كذبت.

لو أن ذلك يحدث. لو تعترف الصحيفة الكاذبة أنها كذبت. ولو يعترف الكاتب الذى كذب عمداً أو غير عمد أنه كاذب. لو حدث ذلك لانصلح جزء كبير من شأن الأمة.

لعل من واجبى تجاه قارئى أن أخبره أن هذا الفصل مع الفصل الذى يتحدث عن بروتوكولات حكماء صهيون كانا يشكلان كتاباً كاملاً كاد أن يمثل للطبع. وقد حاولت تركيزهما واختصارهما فهُما من لحمة هذا الكتاب ـ اغتيال أمة ـ. وفى ذلك الكتاب الذى لم ينشر: «محاكمة مصر: منظمة ثورة مصر وقضايا أخرى» تابعت على مدى شهر جهد الصحافة الهائل فى تزييف وعى الأمة وطمس الحقائق عنها. فى الكذب والتدليس، وهو جهد لم يحظ بما يستحقه من متابعة وتمحيص وتحليل قد لا يستطيع غير متخصص أن يحيط به. وربما يكون هذا السبب بالإضافة إلى حالة الإحباط القومى، ما حال دون صدوره، بيد أننى أرجو أن يكون هذا الفصل دافعاً لمتحصصين ولمختصين لبحث هذا الموضوع، ولدراسة التطور الفكرى والسياسى والإجتماعى والاقتصادى لكبار الصحفيين فى مختلف العهود، أن يكشف تناقض الآراء والمواقف، تناقض المنشور فى الصحيفة فى نفس

---

(١) قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية. الدكتور على زيعور، دار الطليعة ـ بيروت.

اليوم، وفى نفس الأسبوع، وفى نفس العام، وفى نفس العهد، وفى عهود مختلفة أن يبحث الباحث ويمحص، مَنْ منَ الكتاب اغتال وجدان الأمة وعقلها، وباعتبار الصهيونية مذهباً سياسياً وليست دنياً، وأنه يوجد من الملحدين والمسيحيين من آمن بها، فعلى هذا الباحث أن يبحث عن كتابنا الصهاينة. أن يفسر لنا مثلاً كلمة أنيس منصور عن مشاعر أبناء العريش ومقارنتهم بين: الاحتلال المصرى والوجود الإسرائيلى ـ هكذا بالنص ـ!!.

وربما يكون على نفس الدرجة من الأهمية أن تمارس أجهزة الأمن يوماً عملها الحقيقى فى صيانة قلب الأمة وعقلها وروحها، وأن تبحث عن الدوافع الجنائية خلف المواقف الفكرية للصحفيين والصحف. والدوافع الجنائية وليست السياسية ولا الفكرية. الدوافع الجنائية وأقصد تحديداً الرشوة والعمولة والاختلاس والتستر والتزوير ثم التجسس الصريح.

فى الأيام التالية نشرت الصحافة كثيراً وكذبت كثيراً وصدقت قليلاً فواصلت بدأب لم تكلّ عنه تشتيت وعى الأمة ووجدانها. إفقادها أى حد أدنى مشترك للوجدان الجماعى وللقيم التى ينبغى على الجميع احترامها.

فى الشهور التالى أيضاً يستمر ذلك.

وفى السنوات والحقب التالية سيستمر وسوف يستمر.

ولأن من يستعر الحريق حوله لايحتاج لمن يصفه له..

ومن تفور البراكين وتمور أمامه لا ينظر إلى كارت بوستال عن بركان..

ومن تدمدم الأرض تحته فى زلزال مدمر لايبقى ولا يذر لن يكون بأى صورة قادراً على مشاهدة فيلم سينمائى عن الزلازل..

ولأن الانهيار فى وطنى ما يزال يحدث.. فإننى قد عجزت عن وصفه.. فأنا آراه.. وكل حواسى وكل عقلى وكل وجدانى مغموسة بمذاقه العلقمى ومنظره الدامى.



النهـــايـــــة

لا أعتقد أن قارئ الكتاب يحتمل مزيداً.. لأننى أنا نفسى لا أحتمل المزيد.
فما أشد تفاهة قضية فساد التأمين الصحى إزاء قضية الفساد فى الوطن..
وما أهون قضايا الفساد فى الداخل إزاء عارنا القومى..

❁ ❁ ❁

أما الذى يريد أن يعرف المزيد فيقرأ الكتاب مرة أخرى.. لأن الحزن والعار الذى جللنا فى الماضى سيجللنا هو نفسه فى المستقبل.

منذ أواسط السبعينيات كنت أخشى على أحبابى أن يموتوا فتكون آخر ماتراه أعينهم صورة وطن يذبح..

ودعوت الله أن يطيل أعمارهم حتى تكشف الغمة ويزول الكرب.

وطالت الأعمار لكن الغمة لم تنكشف والكرب لم يزل.

وبعد ذلك بأعوام لخص وحيد رأفت مأساة الوطن عندما صرخ:

ـ ما أتعس الحياة فى مثل هذا الوطن..

ولم يمض أسبوع حتى أدركه الله برحمته..

❁ ❁ ❁

أى قدر هائل مخيف مروع كان سيكون ألمك عليه يا أبى.. ويافتحى رضوان لو لم تموتا.. كيف ألمكما كان يكون لو امتد بكما العمر أعواما قليلة لترى قوات الصليبيين تعود بعد ألف عام.. لكنها تعود هذه المرة لتبقى. وشعوبنا تحت وطأة سفاهة حكام وإجرام حكام وعجز حكام تضيع. كيف ألمكما كان يكون ونحن نتهاوى.. دينا وحضارة.. وأمة.. وكيف ألمكما كان يكون لو رأيتما ماصار إليه أمر حزب الوفد العتيد الذى نسى نضاله الوطنى فعاد

يستجلب رضاء السيد الجديد الذى انتقل من قصر الدوبارة إلى البيت الأبيض..
كيف ألمكما كان يكون حين يكتب خالد محمد خالد الذى طالما احترمتماه فيضطر عادل حسين إلى وصفه بالبذاءة.. وهى صفة هو بها جدير.

❁ ❁ ❁

يصرعنى اليأس عندما لا أرى فى أجيالنا بصيص أمل..

فما أتعس الحياة..

لولا خوف الله لتمنيت الموت.. ليس رغبة فى الخلاص وإنما عجزاً عن المواجهة وعجزاً عن الاستسلام.

تبدو الساحة العربية والإسلامية فى وضع عبثى وصفه ديفيد هيرست بأنه يفوق أعظم أعمال كافكا عبثا.. وتبدو الساحة كمحكمة بلا قاض.. يتقاتل الخصوم ويتبارى الادعاء والدفاع فى التراشق بالكلمات لكن مقعد القاضى خال.. وتدلهمُّ حولنا الدنيا فكأنما أصدر الزمان حكمه علينا بأن يبقى الحال على ماهو عليه.. لا أحد يحكم في نهاية القضية.. ماهو الصحيح وما هو الخطأ. من هو الصادق ومن هو الكذاب.. بل من الجلاد ومن الضحية.. لم يعد لدينا فى الساحة العربية كلها شخص عظيم أو موقف عظيم إلا ودنسه المدنسون.. ولم يعد خائن إلا ورفعه المنافقون على الأعناق كبطل.. وما كان بالأمس جريمة يعاقب عليها بالاعدام أصبح اليوم فرضاً يفرضه القانون وما كان بالأمس بطولة أصبح اليوم خيانة..!!

لكن.. من بين دياجير اليأس الأسود يبزغ شعاع من التاريخ يعلمنا حكمته.. وهى حكمة لم يستوعبها الطغاة فى كل زمان فلم يدركوا مصيرهم. فلم تنقض أربع سنوات على استشهاد الحسين حتى مات يزيد شر ميتة.. ونهض المختار بن أبى عبيد اليقفى صارخاً يالثارات الحسين.. والتف حوله أهل الكوفة فلم يتركوا من قاتلى الحسين أحداً ولم ينج ابن زياد ولا عمر بن سعد بن أبى وقاص ولا أحد ممن شارك فى مأساتنا الدامية ـ والباقية أبدا ـ فى كربلاء.. وجوزى كل فاجر بكفاءة عمله.. فقتل ابن زياد وأحرق وقتل شمر بن ذى الجوش وألقيت أشلاؤه للكلاب ومات ألوف محرقين ومغرقين ممثلَ بأجسادهم.

كان يزيد يمارس سياسة الصدمات الكهربائية.. فلم يدع للمسلمين شرفاً إلا ثلمه.. مأساة كربلاء ومذبحة المدينة وضرب الكعبة بالمنجنيق.. كانت أدواته في تثبيت ملكه سحق روح المسلمين الذين أدركوا أن من يفعل هذا لا يستنكف فعل

أي شيء.. وبالفعل كانت تلك قوة يزيد.. وبهذه القوة ساد بنو أمية برهة من الزمان.. لكن هذه القوة هي نفسها التي انقلبت عليهم فدمرتهم تدميراً.. حتى ذبح أحياؤهم ونبشت قبور موتاهم. ومثل يزيد فعل السادات ـ ومائة ألف سادات معه وبعده ـ وكانت سياستهم في الصدمات الكهربائية وأقوى وسائلهم لتدعيم ملكهم زيارة القدس وكامب ديفيد والصلح مع اسرائيل وتوطيد العلاقة مع أعداء العرب والمسلمين وتزوير الانتخابات وتشويه الشرفاء وافشاء الفساد وقهر روح الأمة واعدام الأبطال وقلب الحقائق والمنطق والتاريخ[1].

ولن يكون السادات ـ كل سادات ـ بأفضل حظاً من يزيد. إن صدماته الكهربائية التي وطد بها أركان ملكه ستكون هي نفسها جحيم البراكين الذي تنفجر به الأمة الإسلامية كلها لتدمرهم تدميراً. فليسودوا من الزمان برهة كما سدت يايزيد.. لكنهم مثلك.. سيذهبون في مزبلة التاريخ.. ملعونين حتى آخر الزمان.

* * *

اللهم إنا نشكو أليك ولاة أمورنا..

ونشكو إليك الحكام ومن ضل بضلالهم.

فقد أنالونا يارب من القهر والذل مانالة أتباع علي والحسين.. وأتباع محمد ﴿ﷺ﴾ وهم يارب يحاربون بعضهم البعض ويصادقون عدونا وعدوك.. وهم جميعاً يتهمون بعضهم بالخيانة.. فهل نصدقهم جميعاً.. أم نكذبهم جميعاً..؟!!

* * *

لكن درس التاريخ باق.

سيأتي القاضي يوماً يشغل مقعده الخالي ليحكم..

سيأتي المختار لينتقم.

وسيكون القاضي والمختار هم غرس جيلنا المعذب والمنسحق.. وليكتف جيلنا إذن بكل هذا الألم والعذاب كمخاض نصر لابد أن يجيء لأنه وعد الله.

* * *

فليبق جيلنا إذن تغشاه المأساة حتى يدركه الله برحمته..

---

(١) لو أخبرني أحد بما سيفعله مبارك وفهد والأسد وصدام بعد الطبعة الأولى لهذا الكتاب لقسوت في القول على سوء ظنه وشطط عقله، ترى ماذا سيفعلون بعد؟! ماذا؟!.

فليبق جيلنا.. بلا أمل فى الحاضر.. فكل تقدم على مستوى الأفراد وكل نصر وكل متعة وكل نشوة وكل ثروة بلا قيمة والوطن الأم مستباح..!!

❁ ❁ ❁

تكاد مصر الذبيحة الدامية تتجسد أمامى عاتبة على فتى من فتيانها يأسه من جيله.. ويكاد ضمائر جيلنا يحدقون فىّ عاتبين غاضبين على جيل أعجزه اليأس.

❁ ❁ ❁

لكن.. لا تبتئسى يامصر.. ولا تعتبوا علينا ياشيوخنا.. فقد استيأس من قبلنا رسل.. لكن بعد العسر يسرا..

وها هو ذا كتاب الله يحمل لنا العزاء والبشرى..

(حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجّى من نشاء ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين) سورة يوسف ١١٠.

❋ ❋ ❋

للمؤلف

١ـ أغتيـال أمـة طبعـة أولـى ١٩٨٧ مكتبة مدبولى
٢ـ أغتيـال أمـة طبعـة ثانيـة ١٩٩١ مكتبة مدبولى
٣ـ الحاكـم لصـا طبعـة أولـى ١٩٨٩ مكتبة مدبولى
٤ـ مباحث أمن الوطن طبعة أولى ١٩٩١ مكتبة مدبولى

- تحت الطبع
- الوزير
- قصر العينى
- جلالة الملك.. فخامة الرئيس

❋ ❋ ❋

المحتويات

رقم الايداع ٨٨/٢٣٣٥
تاريخ الايداع ٧ـ ٨٣ ـ ١٣٣٠ ـ ٩٧٧


مطبعة اطلس
imprimerie atlas
LE CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C.100731, TEL: 747797
القاهرة : ١١-١٣ شارع سوق التوفيقية س.ت ١٠٠٧٣١ ت ٧٤٧٧٩٧

ما هذا الذى يحدث . . . . ؟

ماذا يراد بنا . . ؟

هل آن الأوان لكى تستأصل شأفتنا كما حدث من قبل للهنود الحمر وكما يحدث الآن للفلسطينيين .

أتشرق شمس هذا الكون على أرض ليس فيها مسلمون ولاعرب .

منذ أواسط السبعينيات كنت أخشى على أحبابى أن يموتوا فتكون آخر ما تنعكس على مآقيهم صورة وطن يذبح .

ودعوت الله أن تطول أعمارهم حتى تنكشف الغمة ويزول الكرب . .

وانقضت الأعمار لكن الغمة لم تنكشف والكرب لم يزل . .

أى انصداع كان يفرى قلوبكم يا أبى ويا فتحى رضوان ويا جمال عبد الناصر لو امتد بكم العمر لتروا قوات الصليبيين تعود بعد ألف عام ؛ لكنها تعود هذه المرة لتبقى ؛ أما شعوبنا فتحت وطأة سفاهة حكام وإجرام حكام وعجز حكام تضيع . .

فماذا يراد بنا . . . . ؟

وماذا أراد حكماء صهيون فى بروتوكولاتهم حين قالوا : "سنختار من بين العامة رؤساء ممن لهم ميول العبيد ؛ ولن يكونوا مدربين على فنون الحكم ؛ ولذلك سيكون من اليسير أن يمسخوا قطع شطرنج فى أيدى مستشارينا الذين دربوا خصيصا لحكم العالم" .

مكتبة مدبولى